

أسد قصر النيل

زين عبد الهادي

رواية

أسد قصر النيل

أسد قصر النيل

رواية

زين عبد الهادى

الطبعة الأولى ٢٠١١.

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

www.darmerit.net

merit56@hotmail.com

الغلاف: محمد سيد

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠١١/١٦٥٠١

الترقيم الدولي: 978-977-351-602-4

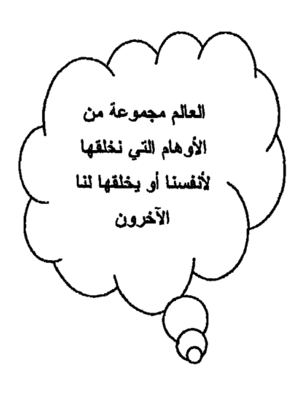
زين عبد الهادى

أسد قصر النيل

رواية

دار ميريت

القاهرة ٢٠١١


العالم مجموعة من
الأوهام التي نخلقها
لأنفسنا أو يخلقها لنا
الآخرون

(١)

إلى

الكلاب التى تبيض في صمت

وكذلك إلى الدول.. التي تنجب للعالم كل يوم وبلا أدنى تردد معتوها جديدا..

(٢)

(ثلاث عشرة، عشرون سنة، ثم يعود ذلك إلى البدء من جديد دائما)

من كتاب حضارة المايا المسمى "شيلام بالام"

مدينتي تغيرت..
وأنا تغيرت..
حتى حبيبتي التي كانت حبيبتي تزوجت من رجل آخر..
زحمة..
زحمة يا دنيا زحماااااه..
زحمة للملوك والأفاكين والأفاقين وباعة الأوهام..
زحمة يا كلاب مدينتي الحبيبة الملعونة..
زحمة لذاكرتي التي في مقعدتها الغليظة.. أطفئ سيجارتي
زحمة للعالم الذي يحدق في وجهي عبر شاشتي البللورية..
زحمة لاسمي الذي لا أعرفه، وحقيقتي المجهولة البغيضة..
زحمة لذلك العالم اللاحقيقي الذي دخلته ولم أخرج..
زحمة يا قطعة الشطرنج الوحيدة على الرقعة الخشبية الجافة..
زحمة يا فقاعات خيالاتي التي تنفجر بلا أثر يذكر..
ها ها ها ها ها ها ها.. زحماااااااااااه
ها ها ها ها ها ها .. زحمة يادنيا زحمة..
زحمة يا سمر واين.. زحماااااااة


الفصل الأول

وجوه متباينة لعواصم أربع ربما سقطت من سماء أخرى

"مالم يقله هيرودوت، أن التاريخ الحقيقي للعاصمة الجمهورية لم يكتب بعد، وكل أهل هذه العاصمة يسيرون وفي كتفهم تلك العلامة البيضاء، كدليل كامل على الانتماء الجمهوري، وهي فكرة بالية لكنها محل شك"

(١)

زحمة يادنيا زحمة..

اعتراف مبدئي بأنني من المتيمين بأحمد عدوية..

الفنان الحقيقي للجمهورية أو الملكية التي نعيش بها.. العَالِمْ ببواطن الأمور وخفايا الصدور.. أحد أبناء سنوحي العظام .. لم تأت أغنيته عن الزحمة إلا بناء على فحص أرسطي للحياة البعرورية .. حيث يتقاسم الناس هناك حقائق مبتسرة عن الحياة، حياة يختلط فيها الوهم بالحقيقة حتى غير المكتملة، وحين يصبح الحشيش هو مصدر الغناء الروحي وبلا مبالغات من أي نوع، يمكنك أن تدرك ببساطة، أن الوهم هو أساس الحياة في طيبة، حياة أهل طيبة ..

ها أنا في نفس المكان الذي وقفت فوقه منذ عشرين عاما،

استيقظت اليوم وأنا فوق الرصيف في الثانية ظهرا، أتخيل (إيزائيفتش) وأتخيل جرسونه الشهير (جمعة)، ألاحظ أرضية الرصيف، تغيرت هي الأخرى، كانت تحتلها غطيان زجاجات السيكولا والسيدر وأعقاب السجائر الكليوباترا[1] والبلمونت والبوسطن، وقصاصات الجرائد الحكومية التي كانت قبل قليل ممتلئة بساندوتشات الفول والطعمية، كان هناك خبر قد لفت نظري ولا أعرف السبب الحقيقي في تذكري له دائما، كان يتعلق بمطرب شعبي اسمه أحمد عدوية تعرض لحادث في الفندق الذي كان يقيم به، حادث تعلق بذكورته، لم يمت، لكن ظل الخبر كخيوط العنكبوت لايبارح ذاكرتي، كما كانت تتناثر على الأرض تذاكر الأتوبيسات واليانصيب، وخيالات للميني جيب والمايكرو تمرح في الميدان، الآن تراجعت كل هذه الأنواع واحتلت الأرضية مناديل الكلينيكس والفاي الورقية وتذاكر المترو، اختفت أعقاب سجائر البلمونت والبوسطن وأوسعت الطريق لسجائر أجنبية أخرى من نوع المارلبورو والميريت والروثمان الذهبية التي اختلطت بأعقاب الكليوباترا، وفوارغ البيبسي وحلقاتها المعدنية، وببطاقات منتهية لشركات المحمول موبينيل وفودافون واتصالات، والصفحات الأولى لجرائد الحكومة التي يلقي بها الناس بعد تصفح مانشيتاتها سريعا وغالبا مايستخدمونها كغطاء لموائد الطعام، وعلب الماكدونالدز والهارديز والنساء المحجبات

(١) حدث لهذه السجائر على وجه التحديد العديد من التغيرات البيولوجية فاستطالت وأصبحت أكثر بياضا.

والمنقبات، حتى "قطرات المطر" الواقفات متكئات على السور الحديدي في قلب الميدان تحجبن، كأنه فريضة أن لا تقابل الناس إلا بالحجاب، وتمارس الجنس بنفس الحجاب، ولاحظوا معي أن مصطلح ممارسة الجنس مصطلح محترم وبغيض فالطبيبون يستخدمون مصطلحا آخر لا أجرؤ على ذكره هنا، لكني سأفكر في الأمر، تغير قفا (قاف) كما تغير وجهها، وأنا تحملت بعض التجاعيد وآلام الرقبة، وذاكرة ممتلئة بالبقع السوداء، ووجهاً ينتمي انتماء لاشك فيه للكلاب البلدي التي كادت أن تنقرض هي الأخرى.

لكن.. من أنا؟؟؟...

هناك أمر في حياتي قد حدث، لكني لا أتذكر هذا الأمر، وحين يسألني أحدهم تتحول رءوسهم نحوي ببطء لايكاد يرى، أجيب بقلب مخلص وبعقل به نتوءات من مساحات بيضاء لاترى، "لا أتذكر!"

حينها يستقبلون إجابتي بنوع من الابتسام الذى يلفه شك له هوية تاريخية محددة. قال الجميع بأنني كما اختفيت فجأة، ظهرت فجأة، لا أحد يعلم لماذا؟ .. يتكلمون بيقين لم أستطع زعزعته يوما ما، بينما كان الشك يملؤهم نحو كل شيء يسمعونه. أعلم أنها واحدة من الطباع الأصيلة لأهل طيبة، فهم أيضًا يفقدون الذاكرة لسنين طويلة، أو هكذا يتقولون، قد يبدو أن الأمر لايعنيهم، وربما يضحكون، يدعون أنهم لايرون شيئا، ربما يتوارون سريعا في خجل أو غضب وبلا تعليق، أو يقفون يحاولون تفسير مالايراه

أحد بكلمات صادرة عن وعي يمكن تحضيره كعفريت من الجن ثم صرفه سريعا، يفسرون المرئي بما هو غير مرئي، أساتذة في الميتافيزيقا، يأخذونك بعيدا عن التفسير الحقيقي للحدث، لكنهم يكتمون الحقيقة كعاشق ماجن ينتظر لحظة الانقضاض، عيونهم التي ترى غير عيونهم التي تفسر، منذ آلاف السنين وهم يلبدون في حقول الذرة وقصب السكر، خلف الأبواب وتحت السلالم وفي نهايات العربات المزدحمة، مختفين في قلب الظلام وفي غابات الظلال، غبي من لا يراقب ملامحهم جيدا، غبي من لا يتفحص، يأتي بعض الأغبياء دائما يسبقهم إيمانهم الراسخ بأنهم يفعلون لهم الصواب، وبأن طيبة ستكون هي الأعظم بين الشعوب تحت قيادتهم، وهو مالم يحدث على الإطلاق، إلى أن يأتي يوم الحساب.. وهو عادة لايتأخر، ربما يتأخر.. يتلكأ في الطريق.. ربما يمر جيل وبعض من جيل.. لكنه قادم .. قادم لامحالة !.

أحاول جاهدًا أن أتذكر،

سأبدأ من تلك اللحظة التي ضرب فيها شهاب صغير سقف العواصم الأربع التي تمتد على مساحة ألفي كيلو متر مربع تقريبا، ولم يهتم أحد من قاطنيها لذلك، فقد كانوا جميعا مشغولين، وبشغف لايقل عن شغفهم التاريخي بالخلود، مشغولين بمتابعة مباراة كرة قدم في ستاد عظيم تحتله صورة ملونة بحجم هائل "للمسكوت عن اسمه" [٢] تشبه إلى حد بعيد التماثيل الهائلة التي

(٢) ذكره هيرودوت الأول بهذه الصفة، سأسميه "المسكوت عن اسمه"، كما كان يكتب هيرودوت أيضا، ولا أدري إن كنا هو وأنا نقصد نفس الشخصية، لكني لاأعتقد ذلك.

خلفها لهم أجدادهم في الصعيد، تماثيل ضخمة هائلة تبرز دائما سطوتهم القديمة على الحياة، سطوة ماقبل الموت وحتى ما بعد الموت، ترك لهم أجدادهم آلهة، أما تلك الصورة فتبدو كبدعة تمت استعارتها من أجدادهم، تمت محاكاتها في عصر النهضة، ثم سكنت بعض الوقت لتعود مع الحقبة البلشفية والشيوعية، أو حتى في المعسكر الرأسمالي في بداية العصر الصناعي، وبدورهم نقلها سادة الأمن نافخو أبواق محبة "المسكوت عن اسمه" مرة أخرى إلى طيبة، على أيديهم المخلصة تكررت عادة كانت قد اندثرت منذ آلاف السنين.

هذه المباراة بين فريقين من عاصمتين ينتميان لنفس الدولة، عاصمتين لايفصل بينهما أكثر من أربعمائة متر بشكل طولي، هذه الأمتار الأربعمائة يمتد فوقها معبر ينتمي لعصور ماقبل التاريخ، يشق العاصمتين من القلب وهو أحد العلامات الأسطورية لدولة طيبة القديمة، هذا المعبر يسمى الآن "كوبري قصر النيل".

ربما لايعلم أحد أيضًا أن هذا المعبر الذي يرقد هناك كملتقى للعواصم الأربع – وسآتي للحديث عنها – قد هبط أيضًا من السماء. لم يُذكر ذلك في مخطوط قديم أو على حجر الأهرامات، أو على سعف نخيل، أو رأس سهم متحجر في صحراء الفيوم، أو حتى على رق تعفّن فاحت رائحته يعود لأيام الجاحظ، ولم تعزف موسيقى حسب الله أو الموسيقى العسكرية لما ذكر، بل ربما لم يسمع به أحد، فقط ذكر ذلك – وهو أمر غريب– على جمجمة يعتقد بأنها لملك طيبي قديم، راح في ثورة من ثورات تلك الأيام

البعيدة. وإن كان هناك شك أيضًا في أن الجمجمة تنتمي لقرد إفريقي شبيهة في تكوينها بعبيد تلك الأيام، وهو تفسير تشريحي وأنثروبولوجي أكثر غرابة؛ إذ عادة لايقع هؤلاء العلماء في هذا التفسير القلق إلا إذا كانت الجمجمة تنتمي لإحدى حلقات التطور البشري، وهو مايلقي بظلال من الشك على الأمر برمته. ويقال أيضًا بأنها مؤامرة تتعرض لها طيبة، بهدف النيل من شرفها التاريخي الذي لاتضارعها فيه أمة من الأمم.

المثير أيضًا هي آثار مخالب حيوان ضار ضخم تظهر واضحة على مقدمة الجمجمة، بينما تركت خلفية الجمجمة سليمة تمامًا وعليها بعض الكلمات المحيرة بلغات ثلاث، هي اليونانية أو لغة الحكام في ذلك الوقت والهيروغليفية المقدسة والديموطيقية العامية، مما يضفي على الجمجمة نوعا من السخرية القارحة الجليلة التي لاسبيل لحل طلاسمها.

بمرور الوقت أغفل ذكر هذه القطعة من الجمجمة، وقيل إن سبب هذا الإغفال هو ذلك الصراع بين العواصم الأربع التي تحكم كل منها جزءًا من الدولة؛ وإن كان هذا غير منطقى أيضًا لأن هناك عاصمة لا تهتم بمثل هذا الهراء، لأن مسألة "الاهتمام" قضية لا تلائمها من الأساس، وهي ليست معنية بمثل هذه الخرافات التي لا طائل من ورائها، وإنما لديها خرافاتها البديلة المتعلقة بما يسكن الجسد من عفاريت تبريرا لمخزونها من القمع، وكذلك بطولاتها التي يهملها التاريخ كلما أنتجت لجنة تابعة للحاكم كتابا للتاريخ ينكر بطولاتها الحقيقية المسكوت عنها، وأيضا

تاريخها الطويل الذي أنتج "السح الدح"، وبدون شك هناك شواهد ممتازة لكنها متناثرة على انتمائهم الحقيقي للفراعنة بدليل "أمبو" الموجودة في الأغنية والتي تنتمي للمفردات الهيروغليفية، وصولا إلى أغاني الحشيش كبديل غير محرم عن أغاني ذات علاقة آثمة بثقافتهم، وهذه الأغاني لها روادها العظام خصوصًا في الألفية الجديدة كدليل واعتراف كامل منهم على أنهم لايبحثون عن الحياة على الإطلاق، وإنما عن الأوهام، وهم يعترفون بمحبة وتسامح أنه لولا هذه الأوهام ما كانت الحياة، خصوصًا في طيبة.

منذ قديم الأزل والوهم فيما يمكن تحقيقه هو مبعث وجودهم الحقيقي. في نظر البعض ممن يعيشون في بعض القارات الأخرى أنها أحط الأوهام في الحياة، وهو تجنٍ واضح تمامًا في ظل عدم معرفة هؤلاء الغرباء بالأسباب التي تقف خلف اختيار أهل طيبة لهذا النوع من الحياة المكتظ بخيالات وحرية لا تتحقق غالبا، خصوصا في ظل مداهمات رجال الأمن من العاصمة الجمهورية لأوكارهم المظلمة والمختبئة في أحراش مدينتهم العجيبة، أو خُطَب "المسكوت عن اسمه" الممتلئة بالحديث عن الإرهاب الذي سيأكل الأخضر واليابس – وهو مصطلح مفضل لديه – وتناسلهم الخرافي، ومدى تعبه وكده كل صباح في سبيل إطعامهم جميعا وهي مسألة شبه مستحيلة لكنه يقوم بذلك بمساعدة من الإله الذي يبدو أنه فقد اهتمامه بهم.

آه.. ما بالي أذهب في استطرادات لاطائل من ورائها، واعذروا ذاكرتي التي تشبه قطع "الفتة" الطيبية الشهيرة – هذه

الأكلة الساخنة التي لايمكنني مقاومتها على الرغم من أنها غالبا ما تمتلئ بالخبز المقلي والأرز والصلصة الممزوجة بالثوم والخل والمرق المثقل بالدهن وقطع اللحم، والتي توضع في طبقات فوق بعضها البعض في شكل رمزي لقدرة أهل طيبة على البناء، كأنه شيء يجري في خلاياهم الوراثية، ناهيك عن رائحتها التي تتخلل كامل شعيرات أنفي الدموية فأقبل عليها إقبال المشتاق، وبعد أن أنتهي منها تخور مقاومتي، فأسقط في نوم عميق أو أسترخي لخمول لايقاوم غير عابئ بالحياة نفسها، فيما تمثل لهم تلك الأكلة غاية المرام في دفع شكماناتهم الذكورية إلى أقصى درجة من الاحتقان الذي لايمكن الفصل فيه إلا على أسرة غرف النوم كما يدعون(٣).

على العموم حاولت العواصم الثلاث الأخرى الاستئثار بالاكتشاف، الذي يعود إلى القرن الثامن عشر حين كشف الضابط الفرنسي لشامبليون عن الحجر لكنه أخفى الجمجمة وأعطاها لامرأة طيبية كان قد تزوجها قبل أن يغادر قسرا إلى باريس،

---

(٣) استنبط الطيبيون من كلمة "الفتة" العديد من الأفعال اللغوية مثل "فت" بمعنى أكثر الكلام فيما لاطائل من ورائه، وفتت بمعنى كسر وربما تكون فتت هي مصدر الفتة نظرا لأهمية تكسير الخبز وتفتيته قبل قليه، وقد تأتي أحيانا بمعنى أفتى في الباطل، غير المعنى الأصلي للفعل "فت" الذى له معنى ظاهر هو تكسير الخبز أو وضع الخبز في المرق أو حتى بمعنى الأكل من الفتة، ومعنى باطن بمعنى الإفتاء أحيانا دون بينة أو بمعنى كثرة الكلام دون طائل، ويتميز أهل طيبة دونا عن خلق الله بأن كلماتهم يمكن التلاعب في معانيها وفقا لإيماءاتهم، أو وفقا للموقف الذى يفرض نفسه فيأتي للفظ معنى لم يكن مطروحا من قبل، وربما هذا واحد من أسرار عظمتهم، وشقائهم في نفس الوقت، والله أعلم.

وبدورها أخفتها المرأة تحت سريرها أجيالا متعاقبة – هذا السرير الذي اختبأ تحته عشرات العشاق الفرنسيين مع الأرانب التي يتم تربيتها وتناسلها في نفس المكان، سلو يمتد إلى آلاف السنين، هؤلاء العشاق الذين فضلوا البقاء في طيبة على العودة إلى باريس– حتى آلت أخيرا إلى المتحف الفرعوني وبقي الأمر طي الكتمان لأسباب تتعلق بالأمن القومي، إلى أن كشف عنها العميل الإنجليزي اللعين، لكن العاصمة الفضية الوهمية نالت السبق في النهاية بسبب هذا العميل، ظهر على الإنترنت ليعلن ذلك للعالم. هذا الصراع المضحك الخالي من الضغينة بين العواصم الثلاث لايختلف كثيرا عن الصراع القديم بين أثينا واسبرطة، وهو مايثبت أن نظريات هيجل حول جدلية التاريخ ودوراته الدرامية أمر لايقبل الشك، وما أضافه فوكوياما إلى النظرية بعد ذلك من كبرياء الدولة، لكن كل ذلك سيكون محلا للنظر حتى نهاية تاريخ الحضارة الإنسانية الفعلي. مايثير ريبتي بالفعل هو أن هيجل لم ير عواصم أربع لدولة واحدة في أي حضارة في التاريخ، فلم يحدث ذلك أبدا إلا في طيبة الحديثة، طيبة الشهيرة وعاصمتها الأشهر – اسما فقط – (قاف)[٤] .

---

(٤) ربما يثير اللفظ قاف بعض الأقاويل التي سمعتها والمتعلقة بالقفة، وهي شيء أشبه بالجوال الذي توضع فيه البضائع أو الأشياء الخاصة أو المأكولات ويتم صناعتها من جريد النخل والحبال، ويقال في لغتهم أي لغة أهل طيبة "رجل قفة" بمعنى أنه رجل عبيط لايعي شيئا، وبمعنى أيضًا أن رأسه فارغة، ولست أدري هل – يقصدون بذلك القفة قبل امتلائها بالبضائع، ويقولون أيضا" هاتشيلني قفة" بمعنى ستجعلني أحمل مصيبة، ولهم في ذلك كثير من الأقوال.

المهم ذكر على الجمجمة أمر هذه القطعة الكبيرة من البرونز والحديد التي تحاوطها الأسود الأربعة التي تم نحتها وأضيفت إليه طبقة من الدهان المطاطي، أما ماورد بشأن (قاف) على الجمجمة أيضا، أنها - أي قاف- من شدة الجور والظلم الذي سيقع فيها، ستستيقظ تلك الأسود ذات صباح لتفتك بالناس، سيفعل ذلك ثلاثة أسود منها فقط، أما الرابع فسيكون رمزا باقيا على الطغيان والفساد، وستظل تفعل ذلك وتكرره أبد الدهر، سيتوقف الزمن ولن تتوقف الأسود، سيكون نفس المكان، مشهد يتكرر كل صباح، حتى بعد أن يفنى الناس لن تفنى الأسود، سيعود المكان كما كان والزمان كما هو والناس كما هي وستقوم الأسود بنفس الفعل، كأنه عذاب مقيم. أليس ذلك مايحدث حين نكرر رؤية نفس المشهد بلذة غريبة على شريط فيديو أو سي دي مثلا أو على الإنترنت. لن تبقى الأسود في طيبة ظالما ولا مظلوما، كما أن النهر الذى تستقيم فوقه قطعة البرونز سيجف وسيعود ليصب في باطن الأرض وبالتحديد هناك في قلب الأهرامات، وقد أشار إلى ذلك أيضًا ابن الأثير والطبري في تاريخ كل منهما ولكن بتلميحات يمكن تأويلها، إنها أسطورة قديمة تناقلتها أجيال من المؤرخين العظام.

وجدت هذه المعلومات على شبكة الإنترنت في موقع العميل الإنجليزي الأريب، حين استطاع هذا الأخير رشوة أحد حراس المتحف وهو أمر سهل في ظل تدني رواتبهم وارتفاع قيمة الرشوة، حصل أخيرا على الجمجمة بشكل أو بآخر وهناك إشارة صغيرة قد تكون مدسوسة على النص بأنها عدة جماجم وليست جمجمة واحدة،

وقيل أيضًا – وهذا مثبت على الإنترنت – أنه أي العميل رشا أيضًا المسئول الأول عن الآثار في البلاد في العاصمة الجمهورية، وقيل أيضًا بأنه قد يكون وزير الفنون نفسه في العاصمة بعد ليلة صاخبة قضاها العميل مع الوزير في قصره، بل وصل الأمر لأبعد من ذلك بكثير؛ حيث قيل بأن المسكوت عن اسمه هو نفسه الذي باعها للعميل الأريب!.

كل تلك المعلومات حصلت عليها أثناء بحثي المضني على الشبكة عن تلك المرأة التي تركت قريني الصغير يوما ما منذ عدة سنوات على أحد الأرصفة القريبة من هذه الأسود المعدنية، ولم يَعثُر عليها منذ ذلك الحين.

أعود لكوبري قصر النيل هذه القطعة المقدسة التي هبطت من السماء، يقال بأنها ستكون مسرحا لحوادث شتى في تاريخ الجمهورية، كما كانت مسرحا لكثير من الحوادث في العصر الملكي، وكما كانت ملجئا لمواطني العاصمة السفلية التي غنى لها أحمد عدوية في السبعينيات "السح الدح أمبو"، والتي يغني لها الآن عماد بعرور "علي ياعلي والحشيش"، غنوا لهؤلاء الذين لاينتمون للجمهورية ولا للملكية وإنما ينتمون لأنفسهم فقط، هؤلاء الذين يعيشون بعيدا في العاصمة الثالثة المكونة من ألف واربعمائة وإثنين وستين ١٤٦٢ منطقة عشوائية تحيط بقاف إحاطة حبل المشنقة بالرقبة، وسأطلق عليها إلى حين العاصمة "المجهولة"، من يعيشون فيها – كما سبق وأشرت– غير معنيين بما يحدث على الإطلاق في العاصمة الجمهورية أو الملكية أو حتى عاصمة المعلومات،

عاصمتي أنا – التي سأدعي زورا وبهتانا أنها العاصمة الرابعة التي لم تذكر في تاريخ بعد – إنها عاصمة موجودة الآن في كل دولة بالعالم، يعيش فيها بعض الناس من نوعيتي التي لم تصنف بعد بيولوجيا، يعيشون فيها بعيدا عن كل شيء، مفضلين التحول لكائنات أخرى، لا بشر ولا حيوانات، مجرد كائنات تتبادل الكلمات التي لايمكن تبادلها مع كائنات من لحم ودم، كائنات ليس لها علاقة بما يحدث على تلك الجثة المسماة الكرة الأرضية!.

لأغني الآن لحني الذي أعرفه..

سمر واين..

سمر واين!..

سمر واين.. زحمة ..

زحمة.. زحمة..

زحمة يادنيا زحمة!

(٢)

حين استيقظت هذا الصباح، فتحت صندوق بريدي الإلكتروني، كأني كنت أنتظر رسالة من أحد الملائكة، غالبا ماكانت تأتيني رسائل من "قطرات المطر" المختفية في عالمي على الإنترنت، كانت الرسالة من "**ميغان**":

"**أهلا ياشباب، أنا ميغان، أتمنى أن ألتقي برجل ما لكي نقوم ببعض النشاط والإثارة في حجرتي بالفندق، عادة ما أسافر إلى كندا والولايات المتحدة في أغلب الأوقات، لكنني ولسبب مجهول**

قررت السفر هذا العام إلى (قاف)، سيكون ذلك بعد عدة أسابيع من الآن، وأريد أن أجرب شيئا بريا مثيرا معكم لم يرد في خيالكم من قبل، برجاء ترك رسالة على هاتفي المحمول الموجود أسفل الرسالة، أو الرد على هذا البريد الإلكتروني، هذا إذا كنت من المهتمين بالأمر"!

وحيث إنها قادمة لطيبة فقد ذيلت رسالتها بعدة صور لها في أوضاع عارية مختلفة، وهو أسلوب مختلف عن الذي مارسته مثلا "ياسمين" مع "حبظلم بظاظا" في "ألف ليلة وليلة" في طبعتها الطيبية، التي بعد موتها بعدة سنوات عادت مرة أخرى للحياة وقابلته في مدينة أخرى عبر البحر المتوسط، كررت ماحدث أو كرر هو ماحدث، كان هذا الأمر الأكثر إثارة في حياتي وقراءاتي كلها.

الأكثر إثارة، أن ميغان كانت صورة طبق الأصل من حبيبتي التي اختفت، كنت أتفحص صورتها، يملؤني يقين كهنوتي بأن ميغان هي حبيبتي، وليست أحدا آخر!

أرجو أن تجدوا لي العذر في الخروج على النص المكتوب أحيانا، أعود لميغان التي أنهت رسالتها ببعض الكلمات التي تحذر هؤلاء الشباب – ومن المفترض جدلا أني واحد منهم – من أن يكونوا مرضى بالإيدز أو بعض الأمراض الجنسية، أو أن يكونوا مدمني مخدرات.

ماعلينا من كل ذلك، أعود لميغان فقد حددت طلبها في الرسالة الإلكترونية بأنها ستتقاضى مبلغ ألف دولار من كل عميل

في مقابل كل ساعة ستقضيها معه في حجرتها بالفندق، أما إذا قضتها في بيته فستتقاضى ألفي دولار، وقد أمسكت بالكالكيليتور لحساب المبلغ الذي تتقاضاه في اليوم، كان مبلغا كبيرا أكبر مما يتقاضاه مجلس وزراء العاصمة الجمهورية عن بكرة أبيه، ناهيك - وهذه مسألة جدية تمامًا - أنها ستتقاضى هذا المبلغ نظير عرقها الفعلي، وحين أرسلت لها رسالة بأنني يمكن أن أستقبلها في الفندق الذي أعمل به، أجابتني برسالة أخرى بأنني إذا قمت بتسهيل مهمتها في العثور على الشباب اللازم فيمكنها أن تقدم لي ماتقدمه للآخرين لمدة نصف ساعة مجانا، وهو وقت كبير لا أظن أن أي رجل طيبي جمهوري يمكن أن يحلم به، وعلى الرغم من أنني هرشت رأسي طويلا حيث أدركت أخيرا بأنني يمكن أن أكون قوادا عالميا لايشق له غبار في عالم القوادين، لكني نفضت الفكرة، ولم يكن السبب في مراسلتها هو رغبتي فيها، فقد تعلمت قضاء رغبتي بشكل أو بآخر، لكني لم أتردد في مراسلتها، فقد كانت ملامحها - وبالغرابة الأمر - قريبة الشبه بملامح حبيبتي التي تركتني على ذلك الرصيف المواجه لكوبري قصر النيل وعلى بعد أمتار قليلة من ميدان التحرير الذى كنت أعتقد أن الله خلق آدم فيه، منذ عشرين عاما تركتني هنا، وكانت رومانسيتي المحبطة مبعث عذابي في مسألة حسمتها الحضارات المجاورة منذ عشرات السنين، كنت متأكدا بأن الآلهة المشوهة لم تعد تعبد في أرض بلاسماء، تبدو فيها الشهب كأنها كائنات عادية لاتسترعي الانتباه!.

زحمااااة ياسمر واين ..
زحمااااة ايتها الحياه!!!
زحمة لها ضجيج قاتل يؤكد لي مدى الوحدة التي أعيش فيها!
زحمة يادنيا زحمة!

الفصل الثاني

ليس من قبيل الصدفة أن أظهر هنا

ليوناردو دافنشي بالتأكيد سمع البعض عنه أو قرأ شيئا عنه، أو رأى بعض رسوماته العجيبة، أتي ليوناردو الذي كان معروفًا بحبه الشديد للغلمان، لم يختلف في ذلك عن أبي نواس، أو مايكل أنجلو أو غيرهم، أتى إلى "قاف" في عهد السلطان الغوري بدعوة منه ليتفقد قطعة الحديد العملاقة التي تم اخفاؤها بعد تقطيعها في أحد كهوف جبل المقطم، وقيل بأنه نفس الكهف الذي كان يلجأ إليه الحاكم بأمر الله الفاطمي، حيث كان يأوى إلى الكهف تاركًا بغلته على بابه، وأنه ربما كان الحاكم بأمر الله يدرس تلك القطعة إلى أن حلت عليه لعنتها، فاختفى في الكهف وعادت بغلته وحدها وبقيت القطعة العملاقة شاهدًا على موت واحد من أكثر الولاة إثارة للجدل في تاريخ قاف القديم؛ إذن فقد أتى ليوناردو دافنشي ليدلي برأيه فيها، ويقال بأنه حين شاهدها وضع توقيعه عليها بعد أن أخبر الغوري بكيفية استخدامها وترك للغوري رسما بذلك، كانت براعته في الميكانيكا والرسم لاتفوقها إلا براعته مع الغلمان، ويمكنكم البحث عن توقيعه على الكوبري بعناية ستجدون توقيعه هناك محفورا على الحديد، وأثناء بحثي عن التوقيع على الكوبري في ليلة قريبة، وكان حذائي قد انبعج من كثرة السير

على أرصفة الكوبري، وجدته هناك، رجلًا لم أره من قبل، يقف في اطمئنان مخيف، كان حديثه منخفضا ثابتا وهو يوجهه للكلب الصغير الواقف على الحافة، حافة الكوبري الحديد العريضة، أدركت وقتها بأن أسطورة الكوبري قد بدأت في الحركة، وأن ما قرأته على جمجمة الملك الطيبي القديم لم يكن محض خيال، وأن الرجل الواقف هناك يحادث الكلب الصغير لابد أن يكون على علاقة بهذا الملك بشكل أو بآخر، أحاسيس شتى انتابتني وأنا أستمع إليه يحادث كلبه الصغير.

"بيض.. عايزك تبيض..لا أطلب منك أكثر من ذلك صدقني .. الأسود لا تبيض.. لكنها على أية حال لم تحاول.. والمدهش يا صديقي الصغير أن هذه الأسود مثلا إن باضت (وأشار إلى الأسد القابع خلفه) ستكون بيضتها مدهشة ومتوحشة وضخمة، أما ما أطلبه منك للمرة الثانية فهو هذا الفعل الصغير، أن تهديني تلك البيضة الصغيرة.. أعلم جيدا أن الأسود لاتبيض الآن.. لكن الكلاب يمكنها أن تبيض على الأقل بحكم تحولها من حيوانات متوحشة لحيوانات أليفة وهو تاريخ طويل لن نخوض فيه الآن، وربما أيضًا بحكم احتكاك الكلاب بالدجاجات السمينة في العشش التي تمتلئ بالبيض.. عليك أن تفكر جيدا فيما أقول.. هل تعلم أنك لو كنت كلبا على شبكة الإنترنت كان من الممكن أن تبيض بسهولة، يمكنك أن تفعل ذلك على الإنترنت بكل سهولة وبساطة، ستجد هناك الآلاف من الكلاب التي تبيض، ليتنا كنا جزءا من الشبكة، لكانت تلك البيضة الآن في يدي.. لكني أريد منك الآن

تلك البيضة الحقيقية.. تطلع إلى عيني.. تطلع في عيني جيدا، ستفهم تمامًا ما أقول، أنا متأكد من ذلك، يمكنك حقا أن تبيض.. المسألة مسألة إرادة وإخلاص ليس أكثر.. أن تكون لك تلك الإرادة في أن تبيض، إنه شيء داخلك، شيء ما يجب أن يتحرك الآن، وإخلاصك بالتبعية لي على الأقل سيدفعك إلى أن تبيض، وليس صغر سنك باعثا حقيقيا على إحساسك بعدم اكتمال نموك، المسألة أهون من ذلك بكثير، إذا وضعت بيضة الآن، فيمكنك أن تصبح حديث العالم، ليس الآن فقط، صدقني وإنما الآن وغدا وكل الأوقات السعيدة القادمة، ستكون أوقاتا سعيدة لنا معا، سيتحدثون عنا، سينبهر العالم الذي يجلس في الخارج دون أن يدري بأنه بإمكانك أن تبيض، وأنك فعلتها، فعلتها أين؟ وهذا هو المهم في المسألة، خلف أسد قصر النيل الذي تراه في الخلف، تطلع إليه جيدا ياصديقي الصغير، إنه ليس بأفضل منك على الإطلاق في شيء، إنه تافه عديم الحركة، وعديم القدرة تمامًا على أن يمنحنا تلك البيضة، أو حتى يمنحنا أي شيء، إن وضعك لهذه البيضة لأمر مهم للغاية، إنه مهم أكثر من قيامك بوضع بيضة، أن تضع بيضة، بيضة صغيرة، صغيرة للغاية أمام هذه الأسود التي تقف بلا معنى مؤكد لشيء، أن تضع هذه البيضة الصغيرة أمام هذه الأسود هو أهم شيء على الإطلاق !"

ليس من قبيل الصدفة أبدًا أن يلاحظ أحد منا رجلا يحمل كلبا صغيرا لونه أسود تمامًا، ليس به بقع من أي ألوان أخرى، الرجل ذو المعطف الأخضر يبدو وقد قارب على مشارف

الخمسين عاما أو يزيد، نحيل إلى حد كبير، ذقنه النابتة ذات الشعيرات الرمادية والبيضاء التي تنتمي على نحو ما لحقول القمح، وعيناه الواسعتان يمنحان إحساسا بالأمان، ملامحه المبتسمة الهادئة، والواثقة والمتكلسة تضفي على الأمر جوا من المرح اللعين، يشبه تمامًا مدرسي المدارس الإبتدائية والإعدادية لا أدري لماذا؟، مما يدفعني للضحك دون أن أملك القدرة عليه بدافع التأثير الذي أحمله من نسختي الأصلية، وليست وقفتي بعيدا عنه بشيء مستغرب، فهو يعيش في مكانه الواقف فيه وحيدا تمامًا دون أن يشعر بأحد، ووقفتي هنا كممثل للروائي الذي يكتب هذه الرواية مسألة في غاية النطاعة، فهو يمثلني أو يمثل نفسه أو يقوم بتقمص دور الراوي وهي كلها مسائل تدعو للسخرية والضحك، والحقيقة أن الأكثر مأساوية هي محاولة هذا الرجل أن يدفع هذا الكلب الصغير بأن يبيض حقا، وربما كانت المشكلة الحقيقية ليست في الرجل وإنما في الكلب، فالمجانين كثر، ولكن القاسي في الأمر حقا هو الكلب الصغير الذي يقف على حافة السور الحديدى للكوبري، يتطلع في سكون وبراءة كأنه ملاك صغير أسود اللون، وهو ما يتنافى مع شكل الملائكة في العالم المعروف، وإن كنت لا أدري ماهو شكل الملائكة في العالم غير المعروف؟، لكنه كان ملاكا صغيرا على هيئة كلب أسود صغير يحاول أحيانا أن يصدر ذلك النباح الضعيف الذي يرد به على محاولات الرجل المستمرة والهادئة والواثقة تمامًا، الرجل ذو المعطف الأخضر، وربما الأزرق، إذ لايمكنني تبين اللون حقيقة في الظلام هناك، إنه

على أية حال لون غامق، والكلب الصغير - إن افترضنا أنه حقا كلب وليس حيوانا آخر- الذي يتمسك بالحافة بمخالب واهية لم تظهر بعد، الكلب الذي تنزلق مخالبه الواهية على الحافة الحديدية لسور الكوبري العتيد في كل لحظة، فيعود للتمسك بها لتنزلق من جديد، بينما تظهر في عينيه الصغيرتين حلقات من الرعب تدل على إدراكه ووعيه التام بأنه إن سقط سيسقط في الفراغ ثم النهر، لذلك يتشبث بالحافة الحديدية السميكة السوداء أيضا، الكلب الصغير الأسود يحاول أن يفهم ماذا يريد منه الرجل ذو المعطف الأخضر، يبدو ذلك في عينيه الدائريتين والمسألة ليست عبثية على الإطلاق، إنه يطلق على الكلب اسما ما لم أسمعه جيدا رغم الحديث الطويل الذي يصر الرجل على ترديده في نوبات متكررة، وحيث إنني مرة أخرى أمثل الراوي الحقيقي فإنه لايمكنني الحكم على المسألة بشكل نهائي وقاطع، فلنقل إنني النسخة الثانية غير الأصلية التي لا مناص من عدم وجود حقوق نشر لها في أي مكان إلا في ذهن الراوي الأصلي، هذه النسخة التي يعيد تمزيقها كل عدة ساعات، وعلى ذلك فإنني أحاول التدخل في العمل بصرامة غير حقيقية، لكنني يجب أن أسجل ملاحظاتي بشكل مكتوب وأمنحها له عن طيب خاطر، مثلما يمنحني هو إصبعه حين لا أستطيع أن أمنحه الفكرة التي يريدها، والمشكلة أنه كثيرا ما منحني إصبعه دون أن يهتز له جفن، وهي مسألة أيضًا غاية في القسوة، وكنت أشك منذ زمن طويل أنه يفعل ذلك لقنوط ما يصيبه كما يصيب الروائيين الآخرين كلما فشلوا في منح النقاد

تلك الرواية المذهلة، إلى أن لمحته ذات ليلة، يمنح إصبعه للهواء وهو نائم، وتكرر ذلك كثيرا في الفترة الماضية، وهو مايجعلني أنسى أحيانا الحكاية الرئيسية التي أنا الآن بصددها، وأغوص في أشياء أخرى ليست لها علاقة بالرواية الأصلية، الرواية التي تترنح كبقع ودوائر متفرقة في ذهن البطل الذي يروي، وهو ظن آثم من وجهة نظري، أعود إلى الرجل ذو المعطف الأخضر أو الأزرق وكلبه الصغير الأسود ذو المخالب الواهنة، يمسك الرجل في يده بقطعة صغيرة من الخبز وتحت إبطه عصا صغيرة سوداء أيضًا تشبه عصا ساحر الأطفال التي يخفي فيها مناديله السحرية، أحيانا مايحركها في هدوء وتَرَفُّعْ أمام عين الكلب الأسود، والغريب في الأمر، هو أنني أشعر دائما بأن الكلب على وشك أن يبيض، إنها تلك المعجزة التي أنتظرها منذ تلك اللحظة التي انفصل فيها طيف – أدعي أنه أنا– عن الراوي الأصلي وتوقف على الكوبري، كيف ترك الراوي الرئيسي هذه الحكاية خلفه ومضى وهو لايفكر إلا في الأسد الأسود المتسخ الذي يتعدانا ببضع خطوات، أنا إذن روح أو طيف انفصل عنه، فتركه خلفه دون أن يدري لكن الحق أنني انفصلت عن الكاتب الأصلي للرواية وليس عن الكاتب الافتراضي الذي يحكي الآن، إنها مسألة محيرة أليس كذلك؟ لكن هذا هو مايحدث غالبا الآن معه، إنه يتمزق هناك فيترك خلفه العديد من الأطياف، ولعل ذلك مبعثه ولعه الشديد بعالم المعلومات الذي ينتمي إليه، إنها مسألة غاية في التعقيد، لايسعني فك طلاسمها الآن.!

اقتربت أكثر خلف الرجل وهو لايكاد يشعر بي إلا أن الكلب تطلع لي، عيناه كانتا في عيني مباشرة، هذا الأسود الصغير المتشبث بالفراغ الذي ينزلق إلى أسفل، كأنه يريد مني أن أخبر الرجل بأمر ما لا أستطيع أن أفهمه، لكني حين تطلعت في وجه الرجل تمامًا وأنا خلفه، كنت أرى وجهه، إننا متداخلان الآن، كأننا كائن واحد أنا والكلب الأسود الصغير، إنه يملك يقينا لايتزعزع بمقدرة الكلب الصغير على أن يبيض، ولم أكن أدري حقيقة من أي أرض أتى بهذا اليقين الهائل، والكلب نفسه حين تطلع لي لم ينف أبدا قدرته على أن يقدم لنا تلك البيضة الخرافية النادرة حقا، إذ ربما يكون في الأمر خديعة ما، ربما بإمكان الكلب فعلا أن يبيض، وربما يملك الرجل ذو العصا الصغيرة التي تشبه العصا السحرية القدرة فعلا على جعل الكلب يبيض، لقد بدأت المسائل تخرج عن النطاق الصحيح، وربما المرسوم في اللوح المحفوظ، بظهور امرأة عجوز ترتدي عباءة صوفية سوداء قصيرة وتضع على رأسها إيشاربا بترولي اللون والرائحة أيضًا، وتحمل في يدها سلة بلاستيكية لايبدو منها شيء لكني يمكن أن ألاحظ عرجا خفيفا بقدمها ربما لثقل وزنها وربما لمرض ما، لايمكنني الحكم على السبب تمامًا، تسير على مهل فوق الكوبري، كانت تتطلع إلى الأمام، ربما إلى الأسد الرابض خلفنا، حين حانت منها التفاتة خافتة إلينا، حيث تجمدت حركتها وهي شبه مائلة من أثر هذا العرج، مما أثار حفيظتي، ثم عدلت من وقفتها وأخذت تتابع في اهتمام بالغ الكلب الذي يدفعه الرجل لأن يقوم بتقديم تلك

البيضة السحرية للعالم، هنا توقف الرجل لحظات يتطلع في وجه المرأة ثم سرعان مانفض صورة وجودها عن ذهنه، وربما أثارته كما أثارتني أيضًا فهي على مايبدو – ولا أدري إن كان ذلك حقيقيا أم لا– كأنها هاربة من ملجأ للعجزة، وربما لم تجد ملجأ من الأساس، وربما تنام على أرصفة (قاف) التي تستقبل الكثيرين مثلها حين يقبل المساء، ويؤكد ذلك تلك السلة البلاستيكية التي تتعلق بذراعها، وتلك المسبحة الطويلة المضيئة التي تهتز برفق تحت حركة أصابعها عليها، عاد الرجل لكلبه الصغير، الذي بدا لاحول له ولا قوة لكنه مافتأ – أي الرجل– يدفعه في هدوء وحنان بالغ للجلوس على قائمتيه الخلفيتين اللتين لايكادا يظهران، يدفعه إلى أن لايجلس تلك الجلسة المريحة وإنما ليوسع فقط بين قائمتيه الخلفيتين استعدادا لظهور البيضة، والكلب يحاول أن يجلس لكن انزلاق القائمتين يجعله لا يستطيع اتخاذ الوضعية الملائمة تمامًا للحدث المنتظر، فجأة قالت المرأة العجوز للرجل ذى المعطف الأخضر(ربما يكون أخضر على اعتبار أن هذا اللون هو الذي يظهر دائما في أحلام النساء في طيبة، وهو محبب إليهن بشكل لايصدق) " أنت يا.. عليك أن تخجل من نفسك.. لايمكن لهذا الكلب أن يبيض"، تطلع لها الرجل في هدوء قائلا " لقد باض قبل ذلك.. أؤكد لك ذلك.. باض من قبل .. باض .. ربما يكون خجولا منك .. أرجوكي ابتعدي عن هنا، حتى يستطيع صديقي الصغير أن يمنحني ماأريد" (وأشار إلى الكلب). قالت المرأة في انفعال" باض قبل ذلك..مستحيل.. مستحيل."

قال الرجل في هدوء وابتسامة الكهنة ترتسم على وجهه النحيل فتهتز الشعيرات البيضاء النابتة كأنها سافانا إفريقية مختلفة عن القمح الطيبي المعروف " نابليون وشركة أديداس والشيخ الشعراوي والأم تريزا قالوا جميعا بأنه ليس هناك مستحيل..أرجوكي ياسيدتي ".. سكتت المرأة للحظة، ثم وكأن أمرا ما قد خطر على بالها "اسمع.. لن يبيض بهذه الطريقة على الأقل إذا كنت متأكدا.. هل أنت متأكد من ذلك؟."

هز الرجل رأسه في تأكيد كامل بأن الكلب الصغير فعل ذلك من قبل، فعله عشرات المرات عبر آلاف السنين، منذ مينا موحد القطرين وحتى والينا الأخير، – ولاحظ صديقي القارئ هنا أن القطرين أيضًا لفظ بدأ بحرف القاف، فهل كان ذلك اختزالا لاسم المدينة كله؟ لا أعلم – ربما لم يبدو على المرأة أنها فهمت تمامًا مغزى العبارة الأخيرة لكنها استسلمت لتأكيد الرجل وقالت في هدوء "على الأقل يمكنني أن أحاول معه..(وعادت تتطلع إليه بشك مرة أخرى قائلة).. هل أنت متأكد؟، رد الرجل " أقسم لك بكل مقدسات العالم أنه فعل ذلك من قبل!.. اسمعي يمكنكِ أن تحاولي أنتي معه..أنا متأكد أن بإمكانه فعل ذلك أمامك لكن يجب أن تمتلكي هذا اليقين المؤكد داخلك بأنه يمكنه ذلك"!

أوسع الرجل للمرأة مكانا عن طيب خاطر، فتحركت في بطء ووقفت بجانبه لتواجه الكلب وتدعوه في نفس الوقت إلى أن يبيض، ثم مدت بيدها لتربت على ظهره في حنان بالغ لا يقل عن حنان الرجل ذى المعطف الأخضر، وكنت أنا أفكر في مدى

الثقافة التي يملكها الرجل حين تحدث عن الفاتح الخائب العظيم وشركة الأحذية والملابس الألمانية العملاقة، والداعية الكبير، والأم المسيحية المبجلة، ياله من عبقري، مما ولد داخلي شكًا في كل ما يقال، وبأنه فعلا يعي ما يفعل وأن المسألة ليست هذرا من أي نوع، ولم أهنأ بأفكاري كثيرًا، إذ بعد أن وضعت المرأة المسبحة الكهرمان التي تضيء في الليل على رأس الكلب سحبتها، ثم وضعتها في السلة وأخرجت علبة سجائر كيلوباترا، وتطلعت للكلب مليا قائلة " إن استطعت أن تفعل ذلك سأمنحك سيجارة كاملة وليس نفسًا واحدًا.. بل إسمع سأمنحك العلبة بأكملها، مادام صاحبك، وهو على مايبدو صادق، قال بأنك فعلتها من قبل، فمن المؤكد أنك تستطيع أن تفعلها ثانية.. هيا ياملاكي الصغير.. هيا"، ابتسم الرجل لها وقد اطمأن لتشجيعها المخلص للكلب الصغير، لكن سرعان ما تقدمت شابة صغيرة السن وشاب صغير السن أيضًا ليقفا على بعد مترين يحاولان فهم مايجري أو الأقل الوعي به، وربما ظنا بأن الرجل ذا المعطف الأخضر والمرأة العجوز هما امرأة وابنها وأن الاثنين خرجا للتو من مستشفى المجاذيب، وطرح المسألة بهذا الشكل قد يكون مناسبا للحدث ويتماشى منطقيا مع التسلسل الزمني، تطلعت البنت في وجه الشاب بدهشة، بادلها نفس التعبير، فيما كانت المرأة العجوز تدعو الكلب الصغير الذي يموء كقطة الآن لأن يقوم بتقديم هذه البيضة للعالم، قائلة في تودد غير مخيب "بيض ياحبيبي.. نريد منك هذه البيضة الصغيرة للغاية (ورفعت يدها بعد أن وضعت السلة البلاستيكية على

الأرض، ضمت إصبعيها لتوحي للكلب بهذه البيضة الصغيرة للغاية والجميلة في ذات الوقت، ثم انحنت على السلة لتخرج منها بيضة دجاجة وضعتها في عين الكلب بابتسامة رائعة توحي بتاريخها السري)" .. قال الولد "ما الذي تفعلانه.. لايمكن لكلب أن يبيض .. الذي بامكانه فعل ذلك فقط الطيور.. الحيوانات من هذا النوع تلد ولا تبيض ".. قالت العجوز وهي مازالت ممسكة ببيضة الدجاجة في وجه الكلب الصغير "لقد أكد لي أنه فعل ذلك من قبل (وأشارت إلى الرجل).. وأنا الآن لا أدري لماذا أنا متأكدة أنه يمكنه ذلك.. لكني لن أخسر شيئا (ثم قالت بحزم كأنها تذكرت شيئا فجائيا كان غائبا عنها) .. ولأن معلوماتكما من الكتب فقط فإن الله قادر على فعل كل شئ..أليس كذلك؟..هل أنتما ملحدان.. أليس الله قادرا على كل شيء، وعلى ذلك فإن بإمكان هذا الصغير الجميل الأسود أن يبيض..نعم ..نعم.. أنا متأكدة الآن أن بإمكانه أن يبيض، الله قادر على كل شيء، أليس كذلك أيها الصغير الجميل!" وكانت تلعب بأصابعها النحيلة المتغضنة في ذقن الكلب الصغير فيما كانت ابتسامة صاحبه ذى المعطف الغامق تتسع، لتصبح السافانا الإفريقية على ذقنه أكثر إشراقا وتختفي كل حقول القمح التي نبتت في البداية، فيما كان ضابط صغير له كرش لطيف صغير يحمل في يده جهازه اللاسلكي، وفي اليد الأخرى موبايل (نوكيا) وهو يحاول أن يتحدث في الجهازين في نفس الوقت، كان يخترق الزحام مقتربا من صاحب الكلب الصغير!

هنا قررت أن أترك هذا الأمر برمته وأنسحب، حيث بدأ

طيفي يرتجف ربما لبعد المسافة بيني وبين الراوي الحقيقي، فلا يمكن الاستمرار في ذلك، وحين انطلقت خلف مصيري الذي ارتبطت به منذ لحظة ميلادنا، خلف الراوي الحقيقي للرواية والذي تركني ومضى في طريقه للأمام، أدركت بأن الأمر لن ينتهي على ذلك، حيث بدأ أناس كثيرون يتجمعون حولنا فيما بدأت كاميرات التصوير الرقمية، وكاميرات الموبايلات تقوم بعملها السحري، كان التصوير والضحك واللغط العالي مستمرا، حين قررت الذهاب إلى مصيري غير عالم متى يمكنني أن أظهر مرة أخرى في الرواية، وحانت مني نفس الالتفاتة لتمثال الأسد الأخير، لم يكن يبدو عليه أنه يعير هذا الأمر أي اهتمام، فهو غير معني بالجنون، وغير معني بثقافة الرجل ذو المعطف الغامق والعصا السحرية ولاتدين المرأة العجوز ذات المعطف الصوفي، ولاتعليم الولد الصغير السن ولا البنت صغيرة السن أيضا، ولا بانفصالي عن مصيري المحتوم، كان يتطلع للأمام كجندي قديم تاه في الحرب فسار في الطريق الوحيد الذي أمامه لايفعل شيئا آخر، سار في الطريق الوحيد طريق التيه، الطريق الحقيقي للخلاص، وكان الكلب – وهو آخر ماسمعته– يصدر صوتًا ضعيفًا كأنه يطلق رصاصة قادمة تمامًا من حنجرته إلى الفراغ.. لاأدري اتجاهها الحقيقي.. وكنت أنا أركض بسرعة محاولا اللحاق بسيدي الحقيقي الذي تركني هناك بجوار الأسد المصون، لأشاهد لعبة الكلب الأسود الذي يجب أن يبيض.. ولم أكن أدري تمامًا إن كان يهز ذيله الصغير في مرح أم في انتظار الأمر التالي الذي لايثير

المرح على الإطلاق .!

زحمااة ياسمر واين..

زحمه ياكلاب المدينة..

زحمة يامدينتي العجوز..

زحمة يابعرور..

زحمة ياجمهورية.. ياملكية.. ياخلق هوووه..

الفصل الثالث

عودة لمسألة سمر واين وزحمة يادنيا زحمة

" مع كل نصر كنت أحرزه كنت أعرف أنني يجب أن أقاتل أكثر لأن نصري مازال ضئيلا، ضئيلا للغاية، على الأقل ليس بحجم الحياة ذاتها"

(١)

إن مسألة قيام أحد المهندسين الفرنسيين من شركة "ليل" ببناء كوبري قصر النيل وأسوده الأربعة مسألة مزيفة تمامًا، فدعوة الخديو إسماعيل له كانت دعوة لذر الرماد في عيون التاريخ، فقد وجد إسماعيل قطع حديد الكوبري في أحد كهوف ذلك الجبل الذي يحوط "قاف"، وكانت الأسود الأربعة هناك ملقاة غير بعيدة عنه، ولايمكن الظن بأن عكس ذلك هو ماحدث، ولعلي لا أكون مغاليا إذا قلت بأن إعادة كتابة التاريخ كانت دائما مسألة غير مقلقة لحكام طيبة منذ مينا على ما أتذكر إلى عهد قريب، إلى أن أتى مجموعة من أولياء النعم في نهاية حياتهم، حيث تمتاز "قاف" بأن لجانها التي أعادت كتابة تاريخهم الحديث كانت دائما لجان حكومية تصب بزادها التاريخي المزيف في صالح كل ولي نعمة أتى، فكلهم حققوا انتصارات مزيفة وكلهم انتصر على أعداء الأمة، وكلهم حرروا طيبة، وهذه ليست وجهة نظر تاريخية بقدر

ماهي حقائق تاريخية غير مؤكدة، لماذا؟ لأن تاريخ الشعوب تكتبه السلطة، لكن هذا الشعب ترك دائما خلفه مايمكن أن يتحاكى به من كبرياء يمكن للعين الخبيرة أن تدركه في ظل هذا الزحام والعشوائية والضجيج، وإذا اتهمني أحدهم بالتزييف فمن المؤكد أنني لست أكثر زيفا من مزوري تاريخ طيبة منذ الأزل، زحمة يا تاريخ طيبة زحمة، وتظل كتابات الحكام هي المسيطرة على المعابد وكتاب اللجان، لكن المؤرخين الحقيقيين لم يندثروا لقد عاشت حكاياتهم في وجدان أهل طيبة الحقيقيين، المؤسي أنه من كثرة الزيف لم تعد هناك حقيقة!.

كوبري قصر النيل إذن قطعة هبطت من السماء، وقيل إن طيبة نفسها لاتنتمي لهذه الأرض، ومن عظمة قدسيتها، فقد احتلها على مدار التاريخ كل أفاكين العالم، وأهل طيبة الحقيقيون اختاروا المنفى البعيد دائما عن المدينة، في العشوائيات الجاهزة دائما لاستقبالهم، في مستنقعات المدينة البعيدة كما حدث في الماضي، لكن هناك تلوثا جينيا حدث لبعضهم، أنتج منهم سلالة رديئة من أولي الأمر، فكانوا أشد وطأة على أهليهم حتى من حكام طيبة القدماء وهذا يحتاج إلى مجلدات لكتابته، ورغم كل ذلك فإن الشخصية الحقيقية لهم لم تتلاش، وهنا يجب أن أصمت حتى لايتضايق مني " المسكوت عن أسمائهم" وهم كثيرون الآن في ظل الانتقال للحكم الجمهوري، الذي يحاول الآن التملص من فكرة الجمهورية والعودة بشكل منظم للملكية حتى لو كان تحت اسم الجمهورية، الأمر يحتاج كما قلت لمجلدات طويلة، أعود للخديو

إسماعيل الذي نقل التجربة الأوروبية في باريس "لقاف"، بالمسطرة كما يقول أهل طيبة، فترك لهم عاصمة ملكية، أخرج كنوزها وعرضها أمام العالم، كما فعل بكوبري قصر النيل، الكوبري الذي تلتقي فيه حدود العواصم المقدسة التي تفتت مع الوقت والتاريخ والثورات والانقلابات إلى عواصم عدة ولتنتج هذه العواصم في النهاية شخص مثلي، يمتلك داخله عشرات من الأشخاص تمامًا مثلما يحدث على تلك الشبكة لديهم الآن، حيث يمكن للشخص الواحد أن تكون له عشرات السماوات التي يطلقون عليها (أكونتس) بالجمع، حيث يركض كل (أكونت) في طريق مخالف وعليه هو أن يجمع تلك الشخصيات (الأكونتس) في هذا الكتاب اللعين، كيف يمكن ذلك بالله عليكم؟، سأترك ذلك لفطنتكم!.

أعود لما أردت البدء به ولم يمكنني ذلك :

حين لاتمنحني السماء ذلك الطقس الذي يجعلني أتفاعل مع الحياة، تمنحني الإنترنت ذلك بسهولة شديدة، وحيث أنني سليل أصيل وبجدارة منقطعة النظير لأخلاقيات اللامبالاة والطناش والغيبوبة، وهو تراث جليل تنكره حضارتنا المزعومة، تراث الغنج والمجون المسجل على ألف ليلة وليلة في طبعتها المحلية الفاخرة لصاحبها الشيخ الجليل "محمد قطة العدوي" الذي لم يترك شاردة ولاواردة من المجون أتى بها أهل طيبة إلا وذكرها، وهاأنا أفعل مثله الآن، لكني أيضًا لم أحتمل الحياة دون تلك الأوهام التي أنسجها رويدا رويدا، وبلا أي فذلكة مصطنعة.

أهيئ الشاشة الفضية للجهاز المقدس الذي لم يسبق له وجود

في تاريخ العالم، أتحرك كقط عجوز فقد مخالبه وأسنانه حين أنهض من السرير في تثاقل، يكسر صوت خرخشة أقدامي على الحصير صمت الحجرة، واضعا تلك اللوحة على الشاشة لعالم خيالي بارد، يمتلئ بالجليد وبأشجار الغابات التي يضيع لونها في ضباب المطر، يكون ذلك تعويضا جيدا لي في تلك الحالة عن الحر القائظ الذي يلتهم قدرتي على غناء "زحمة يادنيا زحمة" أو "سمر واين"، ويكون ذلك إيذانا بتجوالي في العاصمة الرابعة التي يسكنها حوالي مليونين ممن ينتمون للجنسية الطيبية، أغلبهم من الذكور الضائعين أمثالي فيما أظن، وهم لايشعرون بأي انتماء لدولة ما أو عاصمة أخرى من العواصم الثلاث، إنهم يفضلون الإقامة أغلب الوقت في العاصمة التي لايعرفهم فيها أحد، وحتى عهد قريب لم يكن رجال الأمن يعرفون عنها شيئا، الآن أصبح أغلب سكانها مرصودين من جهاز الشرطة كله، وذلك بعد هوجة قامت بها أحد البنات من الذين ينتمون للعاصمة الرابعة في العام الثامن بعد ألفين من الميلاد، واستطاعت حشد آلاف الشباب للتعبير عن سخطهم من هؤلاء الذين يعيشون في العاصمة الجمهورية، وهو أمر غريب هنا، حيث أسمع بأنباء القبض على بعض من هؤلاء كل عدة أيام بدعوى إثارة الفتن، وقلقلة الحياة الوديعة لمواطني طيبة، هؤلاء الذين ليس لهم علاقة على الإطلاق بالإنترنت بحكم أنهم لايعرفون القراءة أو الكتابة من أصله، أو أن معرفتهم بالإنترنت كمعرفتهم بالعفاريت والجن، وهو مايمكن الرد به على جهاز شرطة العاصمة الجمهورية السعيد.

بدخولي عاصمتي العنكبوتية الاختيارية، أكون قد فعلت أجمل ما في أحلامي التي لا وقت لها، وربما من المهم أن أذكر أن تلك العاصمة يوجد مثلها الآن في كل دولة في العالم ولذلك هي ليست ميزة هنا، ربما ميزة لبعض الناس الذين يحاولون تنفس بعض الحرية بعيدا عن عيون الآخرين، هذه العواصم في العالم يسكنها الآن أكثر من مليار نسمة، يعيشون فيها كل يوم بين ٨ إلى ١٢ ساعة، كثير منهم متزوجون عبر الإنترنت، لايتقابلون إلا في هذا الوقت، تنتشر بينهم عقود الزواج النتية، والمنازل الخيالية، لديهم احتفالات زواج اخترعوها بأنفسهم، كل رجل متزوج من عدة نساء وكل امرأة متزوجة من عدة رجال، يمارسون طقوسهم الجنسية عبر الوب كام، يعيشون في أذهانهم بعيدا عن عالم أحمق لايدري شيئا عن رغباتهم الحقيقية، ولا بآرائهم، يطلقون عليهم أحيانا (الآفاتاريين الطيبيين)، يحملون جنسية مختلفة، جنسية ليس لها علاقة بأرض أو جهات أمنية، أو وزارات شرطة، ولا سلطات رئاسية، يفعلون مايشاءون وقتما يشاءون، يعيشون في جنتهم الخاصة بلا مؤرقات دينية أو جنسية أو سياسية، وبلا تخطيطات مسبقة من الأفاتار العالمي، مسيح الحضارة العنكبوتية الجديدة (جيل بيتس)!.

لست مستاء على أية حال، حيث أرفع عقيرتي بالغناء، لامبال تمامًا بما يحدث حولي، كأني أحد هؤلاء الحواة، ذو صوت خشن جاف، محاولا استمالة قلوب زبائنه، رافعًا ابنته الصغيره على كتفه ورافعا في نفس الوقت زوجته فوق رأسه، أو يجعل

ابنته تقف فوق رأس زوجته، عيناه تتكوران وتبرزان للأمام، كأنها تنتقم من حاملها، وعروقه تنطلق من تحت جلده الرقيق، فحيح أنفاسه يتصاعد، التصفيق اللامبالي، التصفيق الكريه للغاية كأنه اعتراف ضمني على أن البشر الواقفين للفرجة لن يدفعوا له جوندا ولا غيره لأن ما تم لم يستثيرهم بالقدر الكافي أو حتى غير الكاف، أو أن الجالسين يشيحون بوجوههم بعيدا لايعنيهم لاعب الأكروبات الشحاذ، وفي النهاية أنصت لصوت بعض العملات المعدنية الرخيصة الذليلة والتي تتباعد المسافات الزمنية بين لحظات سقوطها، هذه العملات القبيحة التي أصدرتها الدولة التي تحكم من عاصمتها الجمهورية.. عاصمة من المؤكد أنها لاتعرف سمر واين!.

لاأدري السر وراء احتفاظي بكل تسجيلات سمر واين منذ أول من غناها، نانسي سيناترا ولي هازلوود، ثم كل المطربات والمطربين الذين غنوها من بعدهما حتى ناتالي أفالون وفيل فالو، هذه الأغنية التي لاتمثل شيئا في نظر الكثيرين، والتي ربما لم يسمع أحد عنها من قبل في دولة طيبة، هذه الترنيمات والأصوات المتشابكة والموسيقى الداخلية التي تلعب في الخلفية، هي الشيء الوحيد الباقي الآن لي في العالم، بعد أن خسرت كل شيء تقريبا!

كان رهاني على الحياة مقبولا حين بدأت المراهنة، اكتشفت أن الحياة لم تمنحنى ما أراهن به، للأسف كنت على يقين من أن المسأله برمتها (لاأعني "برمتها" هنا "كلها" وإنما أعني "فجاجتها") رهان لم يكن لدي ما أبرره به، أتلذذ فقط بتلك الأغنية، تمنحني

طعما مختلفا للخسارة، فإن كنت قد خسرت حياتي فقد كسبت خمر الصيف، أغنية خمر الصيف، آه، سمر واين، مطعما إياها بتراثي الحضاري الذي اكتسبته منذ عدة سنوات من أحد هؤلاء المطربين الذين ليس لهم انتماء لأي من العواصم الرسمية وإنما ينتمي لتلك العاصمة التي يسكنها ملايين الشعب الطيبي، هؤلاء غير المعنيين بالخصخصة، أو عودة الملكية، أو تعويم الجونيه وتعليمه السباحة، ولا حتى بخطابات رؤساء الأحزاب أو قتالهم على الكراسي الحكومية، أو بإغلاق الصحف أو فتحها، ولا بشرم الشيخ أو الساحل الشمالي، وإجازات حاشية "المسكوت عنه"، ولا بالعلاوات السنوية، ولا بالتضخم، وربما بأي شيء عدا الكرة والنساء ومخدر شائع اسمه الحشيش!.

هذه الأغنية هي التعويض الوحيد المقبول على الأقل من جانبي عن خسارتي الكاملة، أما "زحمة" فهي تعكس انتمائي اللانهائي لهؤلاء غير المعنيين لا بالجمهورية ولا الملكية، بالإضافة طبعا لألف ليلة وليلة لصديقي القديم ابن قطة العدوي، وقصة أميرة الثلج اللتين تقعان بجانب سريري لاتبارحا مكانهما، كحالتي تمامًا، فأنا قابع أيضًا في حجرتي لا أغادرها إلا لماما، "أميرة الثلج" كانت حبيبتي قد طلبتها مني قبل أن يحدث ماحدث، و"ألف ليلة وليلة" التي ورثتها عن أبي، قبل أن أطلق رصاصة رحمة على مابيننا وعلى ذاكرتي وعلى (قاف)، سمر واين وأميرة الثلج بقايا حبيبتي، وألف ليلة وليلة و"زحمة" بقايا عاداتي ولا انتمائي المضني، ياله من ثمن دفعته مقابل حياتي، حياتي التي لم

يتبق منها سوى "سمر واين" وزحمة وألف ليلة وليلة وأميرة الثلج، بعض الأصوات وبعض الصور ثم حياة فارغة تمامًا، تمامًا، فارغة تمامًا، كل ماأعيشه الآن فقاعات وبالونات تنفجر دونما أثر، لكني لا أملك خاصية مميزة في شخصيتي للخروج من تلك الفقاعة، قد يتصور البعض أن هذا الفراغ مرعب، لكني على يقين الآن أنه ليس مرعبا على الإطلاق، الفراغ ليس مرعبا، رعبي الحقيقي – ولأعترف بذلك– يأتي من الضوضاء والزحام واللغط والظلال التي تتحرك كثيرا وصوت الأنفاس المتلاحقة، يأتي من وقع ملايين الخطوات على الأرض بأنواعها المختلفة، عادم السيارات وبقايا الأشياء التي نلقى بها في إهمال على الأرصفة، صوت قطع الشطرنج التي تلقى في علبتها بعد أن تكون قد أدت دورها المنوط بها، كل ذلك يسبب لي رعبا لأنه لايعني إلا شيئا واحدا، إنه يعني ببساطة بأنه في اللحظة التي ظننت فيها أني غير موجود، وأنني ربما قد مت وانتقلت لعالم آخر، اكتشفت أن ذلك لم يحدث، لم يحدث إطلاقا، وأن ذاكرتي التي اعتقدت بأنني فقدتها تعود إلي شيئا فشيئا كلما حدقت في وجه (قاف) الجميل والمتوحش، ليس هناك يقين في هذا العالم مادامت الحياة تسير، اكتشفت أن كل شيء محتمل الحدوث، وأن كل حديثي عن اليقين هو من قبيل المبالغة، المبالغة، نعم نعم المبالغة، لكني تيقنت أيضًا وهذا شيء عجيب أني حي، فقد كانت هناك بقية لم يمكنني تجاهلها، هذه البقية التي لايمكنني تجاهلها هي "أمونة" أختى وابنتها الصغيرة "نور!"

(٢)

"أمينة" أو "أمونة" تعيش بمفردها مع "نورهان" ابنتها بعد تجربة زواج فاشلة من طبيب قروي الأصل ينتمي لقرية اسمها لايختلف كثيرا عن أفعاله، ربما يكون اسمها قد تم نحته في الأصل من اسم مجموعة من الطحالب الطفيلية، هذه الطحالب التي تخرج من مكمنها الأصلي فتفقد الروح وتسلب الآخرين أرواحهم أيضًا بتفكه منقطع النظير، تقع تلك القرية بالقرب من شبين القناطر.

مصطفى دردير يشبه تمامًا أحد ممثلي السينما القديمة، أقنعها بحديثه الصارم ووسامته المقلدة بالزواج، نقطة ضعف أمينة هى الرجال ذوو الشنبات ممن يشبهون ممثل سينما قديم شهير كان معروفا عنه ولعه بالزواج من المطربات والراقصات لكنه كان معروفا أيضًا بالشذوذ، لم يختلف مصطفى دردير كثيرا عنه؛ إذ بعد شهرين من الزواج طالبها بمرتبها كاملا بحجة أنهم لا يصرفون شيئا ولا يدفعون إيجارا فهم يعيشون فى بيتهم وهي تمارس عملها فى البلدة، يعيشون مع أمه، وهى سيدة سمينة بيضاء أقرب لكائن برمائي يدعى سيد قشطة، كما أنها لا تخجل من تعرية جسدها كاملا لترى أمينة مؤخرتها السمينة ذات الطبقات المتعددة المترهلة والمنسكبة خارج محيطها، بادعاء دائم عن وجود ألم ما في تلك المنطقة لايبارحها، وكنت على يقين حين سمعت منها ذلك أن الابن لايختلف كثيرا عن الأم في ذلك

الإحساس، هاها سمر واين يا آل درديو الكرام.. آه نسيت أن أقول أن أمينة طبيبة أيضا، أعتصر ذاكرتي لكنها تهرب مني كثيرا، دائما ما أنسى أن أمينة طبيبة، تعبث أمينة فيها بأصابعها تبحث عن موضع الألم الوهمي الذي تشير إليه المرأة، كانت تفعل ذلك يوميا، تفعله بود في البداية تحول لقرف مزمن مع الوقت كأنها تريد التأكد من أن المرأة لم يطلع لها ذيل بعد، وحيث لايوجد ألم، وإنما هي تماحيك نساء، وحين طالبها ابنها الشاذ مثلها بأن يأتيها من الخلف فى الفراش مثل أفلام "البورنو" الزرقاء التى أدمنها بعد رحلته لأمريكا التي استغرقت سبع سنوات، ثم أخذ يأمرها بأن تمرر شفاهها الجميلة على أجزاء جسده (الحساسة وفقا لما قالته) مثل "قطرات المطر اللذيذة" اللائي نطلق عليهن زورا ساقطات (وكنت للأسف أعتقد خاطئا أن هذا الفعل خاص بهن فقط)، بالإضافة إلى رغبته في قيامه بنفس الفعل العكسي معها، كنت أضحك وأنا أستمع لذلك، فالمسألة خارج كل تصوراتي المقبولة وحتى غير المقبولة، وعندما تثور أمينة وترفض يسرد اللعين أمامها قائمة طويلة بالأحاديث الدينية التي تؤكد على سجود المرأة لزوجها، كان هذا هو مربط الفرس بالنسبة إليه في الدين، سمر واين يا درديو .. زحماااة يا درديو.. هذا هو المخرج الوحيد أمامه للسيطرة، الدين ريموت كونترول آلي يا أسيادنا في تلك الحالة، يستخدم لضبط القنوات التي ترفض الانصياع، إنه يفعل ذلك دون أن ينتبه إلى أن الولايات المتحدة منحته القدرة على الشذوذ فقط، أما الدين فقد منحه القدرة على التحكم والتسلط،

ياله من مخرج رائع للذكور جميعا؛ لهذا طلبت الطلاق من هذا الشاذ الغريب الأطوار، هى تحكى لنا، أو بالأحرى تحكي لي أنا فقط تلك الأمور" فأنا أقرب إخوتها الرجال إليها، ربما بحكم شواهد تاريخية لا تتعلق بشخصيتي فيما هو مؤكد لي على الأقل، مبررات لاأعلمها تدعي هي أنها موجودة تجعلها تحكي لي، ترطن أمينة أحيانا أمامي بلغات متعددة، فأستوقفها، لكنها لاتتوقف في خضم ثورتها، ترطن باللغات الأربع التي تجيدها، أتطلع لملامحها الجميلة، كأنها أيضًا لوحة رسمت لإحدى ممثلات السينما القديمة في العصر الكلاسيكي، إنها ترتدي كل شيء بعناية، فلا يمكن أن يكون هناك أي نوع من النشاز في ملبسها، لا أدري كيف وقعت في غرام هذا المأفون، زحمه ياسمر واين، نعاني كل امراض العيون حين نقع في الحب، لايستحقها هذا الحيوان، تعيش أمينة بمفردها في شقة بشبرا الخيمة بمنطقة أم بيومى .. أحقر مكان فى العالم الثالث .. تسكن في مستنقع من البرك، والدخان، واللغط الذي ينتمي لفصيلة الكلام البذئ، وربما هذا أهم ما يميزنا الآن، لا أدعي أنني أتندر على المكان، إذ لا تختلف حياتي هناك في تلك الدولة القديمة المتاخمة لجامعة (قاف) عن مربع منطقة أم بيومي لولا بعض العناية الإلهية، لم تتزوج إذن أمينة سوى عدة شهور من شاذ، وتركته طالبة الطلاق، الطلاق الذي لايأتي أبدا بسهولة مع رجل شرقي الطباع، غبي الغريزة، الطلاق الذي تعقد بين الشريعة والدولة المدنية (حلوة لفظة الدولة المدنية أليس كذلك؟) نحن مدنيون هاهاهاهاها، نحن مدنيون.. زحمة ياسمر واين

هه.. ! والدليل الصارخ هو "أم بيومي"، والطلاق.. نعم الطلاق ذو الدروب السحرية والكهوف المغلقة إلا على ديدان المحامين الطفيلية، حتى هؤلاء أسوأ فصائل البشر وأكثرهم لؤما في الحصول على الطلاق الذي لايأتي إلا بعد استنزاف الضحية، هاهي الضحية قد تركته دون أن تحصل على الطلاق وفي بطنها بذرته، تحولت بعد عدة شهور من الطلاق إلى مخلوق صغير جميل لايحتسي الشاي أو القهوة اسمه "نورهان" عمره الآن أربع سنوات بالتمام والكمال، نورهان تجيد التعامل معٓ الإنترنت، وتغيير لوحات الشاشات، وتجيد مثلي نقل قطع الشطرنج، قطع الشطرنج التي أنقلها في إهمال، ليكسب البرنامج كل مرة، وكل مرة أعاود الكرة، دون ملل، اكتشافي الذي ينتمي للألفية السابقة، اكتشافي النهائي، الذي يزيد إحساسي بالخسارة، الخسارة، الخسارة التي تتحقق لكلينا حين نجلس معا أمام الإنترنت لننتقل لعالم آخر تمامًا، أو حين أجلس وحيدا في الشقة الصغيرة الجرداء أمام رقعتي الملعونة، أنتقل لعالم آخر، عالم لم يذكره حتى نوستر أداموس في نبوءاته التي تحققت -للأسف- دون أن نراها!

زحمااة ياسمر واين .. زحماااة!.

(٣)

هناك حكمة لا ولن يدركها أمثالى محدودو العقل أصحاب التعليم المجاني.. نعم .. نعم.. أمثالى.. الذين ينامون ولا يستيقظون فجأة إلا بعد سنوات، حين ينتهي كل شيء، ويصبح

القدر متحكما تمامًا في كل شيء، حكمة خلق الحياة بهذا الشكل وبهؤلاء الناس وهذه الظروف .. إنها الكيمياء الربانية التي لايجب التوقف أمامها كثيرا ومع ذلك اصطدم بها كل صباح، كل صباح أتعثر بها حتى تلك المديرة في الشغل، مدام "منال" أحد أهم منتجات عصر السادات، تصر على أن أناديها (بمدام) بالفم الملآن، مدام.. هاهاها.. مدام.. جربوها في أفواهكم، لاتصلح لأن أطلق عليها هذا اللفظ الفرنسي (الإيليت)، إنه موجه للنساء، ومدام "منال" إمرأة ليس لها من الجمال حتى رائحته، دمي محروق، وأنا أقف أمامها لأناديها بمدام منال، (مدام حتة واحدة..!)، الكلاب الجربة تعاف الاقتراب منها، الشيطان نفسه تحول بصورتها على الأرض ليتجول بيننا سعيدا فاتحا فمه الضخم، صديقي الدكتور شاكر أوحى لنا بأن نضع يافطة على باب المؤسسة نكتب عليها (ممنوع دخول القطط والكلاب ومنال)، مايفتأ يردد ذلك إلا وننطلق خلفه في ضحك هيستيري، والحقيقة أنني لايمكنني وصف ملامحها بكل ماأملكه من موهبة في السرد، فهي ملامح عصية على الوصف، أبو العلاء ودانتي نفسيهما لن يستطيعا وصفها، يمكنني القول بأنها سليلة الشيطان الذي أتي من الجحيم مباشرة، وكما الشيطان مخلص لقضيته في إغواء البشر كذلك مدام منال مخلصة تمامًا لقبحها، حسنًا يبدو أنني مطالب أن أتحدث عنها بشيء من اللياقة بوصفي أنتمي للأدباء وهو موضوع مازال مثارا للشك، ولكن أي لياقة تصلح لمثل هذه المرأة، تخيلوا مثلا دبابة "بانزر" ألمانية تسير وهي تضع على رأسها قبعة مهراجا هندي،

وتجر خلفها عربة راكشا تتصل بمقعدتها مباشرة، كأنها تنتمي بالفعل لإحدى قاعات الجحيم العلوية، كان الأمر كله بشعا للغاية، لكن لم يكن يمكنني تجاهل هذا الحديث!، المسألة أنني لاأستطيع التركيز كثيرا، ليس سهلا أن أستعيد الأحداث العالقة بذاكرتي، أسير كالأعمى في الكتابة، لاأعلم إن كنت سأترك لكم جملا يمكنها أن تمنحكم المعنى الذي تبحثون عنه، لذا سامحوني على قفزي بين الأحداث كثيرا، فلاأملك من هذا الأمر فكاكا، أنا أكتب ماتلتقطه ذاكرتي، وليس ماتريدونه أنتم، يمكنكم احتمال المسألة بقليل من التركيز!

(٤)

كيف تغيرت (قاف) في عشرين عاما .. فيما كنت أنا كقطعة شطرنج آلية تتحرك على اللوحة ذات اللونين، في هذا الظهر اللعين، توقفت قطعة الشطرنج الخشبية الجافة لتحدق في وجه هذا العالم الذي تقف أمامه، وربما من الأفضل أن أقول قفاه، قفا العالم السميك الملتهب، أحدق فيه بيأس، آه صورة واحدة لاتتغير، أبدو كتلك القطعة الخشبية التي صنعت لتمثل دور بيدق صغير، لاتتذكر القطعة سوى رائحة الخشب الذي صنعت منه، كما أنها هي نفسها ليست أكثر من قطعة خشب لاتحوي أحاسيس من أي نوع، القدر الذي لاتعرفه هو الذي يقوم بتحريكها من مكان لآخر، ولكن لم تكن من مهمة هذا القدر يوما ما أن يعيد إليها بعض ذاكرتها، وهاهي تتذكر فجأة بعض ما تركته خلفها منذ سنوات!

تعود الذاكرة في حركة ليس لها قيمة تذكر على الرقعة الجامدة، كانت تلك الحركة هي القدر الذي تفتحت عليه عيني لأكتشف خلفي أنه مر علي عشرون عاما دون حركة ما، كان كل شيء ثابتا، مقعدة (قاف) العشوائية الغليظة كانت تمتص قدرتي على الحركة، لكنها قذفت بي فجأة إلى الساعة الثانية ظهرا وأنا أقف أمام إيزائيفتش، هاها إيزائيفتش الذي اختفى!

كيف تغيرت (قاف) دون أن ألحظ ذلك، كنت أقسمها – مدينتي التي حلت عليها لعنة ما– إلى مربعات لعبة الشطرنج، مربعات بيضاء وسوداء، كانت المربعات السوداء كثيرة للغاية أما المربعات البيضاء فقد كانت قليلة للغاية، ومع ذلك كان يخيل لي أن أصحاب المربعات البيضاء ينتصرون دائما، كان ذلك غريبا مني، لكنه ليس غريبا على لعبة الشطرنج، فالقطع البيضاء تتحرك أولا بحكم القانون، ثم تلوها القطع السوداء كأن القطع نفسها لديها هذا الحدس الباهت من الشوفينية، ومن الغريب كذلك أني لم أستطع تصنيف أم بيومي بكل ما لدي من مواهب على رقعة الشطرنج، فهي لا تنتمي لتلك المربعات، كانت مربعات عشوائية تتناثر على رقعتي المقدسة، مربعات من الدماء والتلوث والغواية والبانجو والكلة والتكاتك والميكروباصات الرذيلة ومصاصي الدماء والضحايا والدخان، حتى صديقي الصامت دكتور زين عبد الهادي لم يستطع بكل علمه في مجال المعلومات أن يضع لها تصنيفا من أي نوع، فشل هو أيضا، وحين ألححت عليه قال بأن العشوائية نظام إلهي لايمكن للبشر حل طلاسمه، لكنهم يقومون

بصناعته ببساطة متناهية، بساطة الشياطين أنفسهم حين يقومون بفعل الغواية، وقال أيضًا بأن أهل طيبة هم عبقرية العالم غير المرئية في صناعة العشوائية، إنها محاولاتهم الدائمة للتغلب على "المتحكم"، ففي كل مرة يظن فيها أنه قضى عليهم، يتحولون فيها إلى تلك اللعبة العشوائية المربحة، كانوا ينتصرون ببساطة!

كأنهم يخلقون للعالم كارثته الجديدة، العالم غير المعني بوجودهم، لكنه يوما ما سيشرب كأسهم الفيروسية المضمخة برحيق (قاف) الفاسد، ملوثة كل شيء في الحياة، لايريدون للعالم المتحضر في الضفة الأخرى من الحياة أن يهتم بما يفعلونه، فما يفعلونه سيأتيه حتى عقر داره هناك، سيدرك أن كل حديثه عن الإنسانية والديمقراطية، كان حديثا استعماريا جديدا، لينفض يديه منهم، ولكن هاها..هاها سمر واين بينكم وبينهم ياأوروبا..هاها وزحمااااة قبلها!

(٥)

العاصمة الخشبية - إذا اعترفت بوجودها- ليست موجودة على الخريطة، تلك العاصمة ليس لها انتماء جغرافي محدد، فهي تحوط العواصم الأربع من كل جهة، تفتح فاها كل دقيقة لاستقبال كتعاء وفقراء ولوطيين ومغامرين تعساء وأطفال لقطاء وبلطجية وعوانس ومطلقات وأرامل وريفيين وجنوبيين وشماليين وبدو وسلفيين وصوفيين وأقباط وبلا ملة وقطرات ماء صغيرة ملوثة وقتلة وعملاء وشيوخ وشابات سحاقيات وغير سحاقيات وعجائز

من الشحاذين والقوادين المحترفين وغير المحترفين، يمثلون مذاهب وملَلاً وطوائف مختلفة، معروفة وغير معروفة، وهذه العاصمة تمتلك حوالي مليون شخص ممن لهم أعضاء خشبية، وكنت أدعي أحيانا أنهم في الأصل أحجار شطرنج ضلت طريقها إلى الحياة الإنسانية الكاملة – وهذا التعبير تعبير أسطوري في ظني، حيث لم أعثر أبدا على تلك الحياة الانسانية في جميع أنحاء طيبة – بمعنى آخر فإن كل مايحوطني ليس له علاقة بالآلهة التي قرأت عنها، الجميع هنا قاتل أو مقتول، والاثنان يتمتعان بتلك الروح الإنسانية العظيمة، والصدفة وحدها هي التي جعلت القاتل قاتلا والقتيل قتيلا، وهي تتكرر بشكل لافت للنظر، لكني أيضًا لم أتوقف كثيرا كالعادة، لأتساءل عن طبيعة هذا التكرار اللعين، لكنى أرجعته للعنة ما تتعقبهم عبر الزمن!

ليس هناك كلاب في قطع الشطرنج، ولكني لاحظت أيضًا أنه حتى الكلاب الفقيرة اختفت من المدينة تاركة المكان لكلاب قليلة للغاية تجلس في التكييف تطل من خلف زجاج السيارات الألمانية واليابانية والكورية وحتى الصينية بالإضافة – وهو الداعي للدهشة المبرحة – السيارات الروسية من (اللادا) وهى سيارة كانت معشوقة للمصريين بعد فترة من الحقبة الاشتراكية التي لم يفهموا أبدا معناها في ظل تدينهم الشديد غير المعروفة أسبابه بدقة بعد اختلاف علمائهم وشيوخهم ورهبانهم لكنهم أجمعوا على شيء واحد أن أصل الحياة في طيبة هي وحدتهم الدينية، تلك الكلاب التي لاتنتمي أيضًا لنا، وإنما لمدن بعيدة أتت منها لتزيد من

جروحنا المكتوية بنار البؤس والضلال، الكلاب البلدية التي كانت تعطي رونقا لحياتنا التعسة اختفت من المدينة، هذه الكلاب لاتوجد سوى في أطراف المدينة، لقد اقتنعت هي الأخرى بأن المدينة لم تعد لنا، أدركت الكلاب ذلك ولم ندرك نحن بعد، بعض الكلاب الهرمة التي فقدت الذاكرة تتسكع أحيانا في الشوارع الضيقة وتلاصق الحارات المكتظة تستعيد سنوات شبابها الذي ولى حين كانت تنبح في شوارع المدينة، السؤال الذي يقفز كضفدع البرك في ذهني، هل اختفت الكلاب لانعدام اللصوص، أم اختفت الكلاب لأن كل من بالمدينة أصبحوا من اللصوص، أم أن اللصوص أصبحوا يقتنون كلابا باهظة الثمن لاتحتمل حياة الشوارع، وتخلوا عن هذه الكلاب البلدية التي لم يعد يحتفظ بها سوى العربان والغجر وبعض بيوت الفلاحين، وأصحاب العاصمة "المجهولة" .. زحمااااه ياسمر واين.. أبدو شبيها الآن بتلك الكلاب، لم يتركني الزمن ولم يتركها، ترك لنا تلك العلامات التي اكتشفتها صباحا اليوم حين تطلعت للمرآة، تلك التجاعيد التي لاحظتها على وجهي، بعض العلامات التي تغضن الجبهة وحول الشفتين خلف الشعيرات الدقيقة النابتة كأسهم موجهة للفراغ الذي يحوطني، وكنت قد انتهيت من عملية جنسية فاشلة مع أرق "قطرة ماء" في الوجود، صورة غلاف العدد الأخير من (البلاي بوي)، على الإنترنت، أرق "قطرة ماء" في الوجود أصبحت مجانية، علي أن أنسى هذه المسألة تمامًا حين تقبل "منال"، كأني أخاطب الشيطان بعد أن استرد صورته الحقيقية، طلباتها لاتنتهي، طلباتها متكررة،

وأسوأ طلباتها حكاية مدام، (قال مدام قال..)، كيف تكون فرنسية بالاسم، وهي لاتملك من تراث الفرنسيس شيئا!.

(٦)

علي الآن أن أنتبه للتفاصيل الصغيرة التي تهرب مني كل يوم، كنت أسير في الساعة الثانية ظهرا تمامًا فوق الرصيف الأغبر في ميدان التحرير سأعبر مبنى جامعة الدول البعرية حيث أعتقد جازما الآن أنه فقد معناه، إلا إذا كان إصرارنا على بقائه هو إصرار بغل لا يفهم التحولات التي جرت في العالم المحيط، العالم الذي سقطنا من ذاكرته في لحظة طال أمدها، سأعبر إذا هذا المبنى الذي يتبول فيه " المسكوت عن أسمائهم" على ذكريات قديمة لم يعد لها معنى، العالم البعري كله أصبح بلامعنى وبلا ذاكرة يمكن أن تفيد، على كل لم يكن الأمر يهمني في كثير أو قليل أن أذكر جامعة الدول البعرية أو لا أذكرها، فلم تعد رمزا يستوجب التذكر، فقد سقطت هي الأخرى من ذاكرة الشعوب البعرية التي فقدت أيضًا ذاكرة الثورة، الثورة، نعم الثورة، الضمير، الشجاعة، الشرف، هاها سمر واين.. سمر واين يا أمراء..زحمة يارؤساء..سمر واين ياشعوب يابعرية..زحمة يا نباح الكلاب..سمر واين ياكلاب المدينة المستوردة.

أعبر الطريق الصغيرة المكتظ بالحناطير السوداء والأحبة الصغار الفقراء وباعة الترمس والسوبيا والذرة المشوية والبطاطا والفول السوداني واللب وحمص الشام والشاي والقهوة، بتطور

الوقت انضم إلى هذه المواد أشهر المشروبات الغربية "الكوكاكولا والبيبس" وثالثهما المشروب الأشهر "النس كافيه" كرمز للقرن العشرين ومابعده، إضافة لكل تلك المواد الاستهلاكية التي تختلط بتاريخ تراثنا الفقري العريض، والمعروضة في شوارع (قاف) كأنها تحف فرعونية أصيلة، متجها لكوبري الخديو إسماعيل المسمى قصر النيل لأحتك بالأسدين الرابضين في نهايته، متعاميا عن الأسدين اللذين يقعان في مقدمة الكوبري من ناحية ميدان التحرير، وحين أصل إليهما أتعامى كذلك عن الأسد الذي يجلس إلى اليمين وأحدق في الأسد الرابع المرتكن إلى اليسار بجوار كازينو (قاف) الذي كان يؤمه حكامهم الأتراك والباشوات، وتحول الآن لملتقى بعض العربان وبعض هواة الحب، هذا الأسد الذي لايمكنني القول بأني اكرهه هذه الكراهية القاتمة، ظهره ولبدته العلوية ممتلآن ببراز الطيور، وبغبار لعين متماسك لاينتهي، وعيناه غبيتان منطفئتان، تتمسح به أقدام الرعاع والمتطفلين وأطفال المدارس الهاربين، وترتكن إليه "قطرات المطر" في الليالي الشتوية حين لايجدن مايفعلنه، سمعت إحداهن ذات ليله تخاطبه وهي تبكي، لم أفهم تمامًا ماتفعله، كانت تخاطبه كولي من أولياء الله الصالحين وهي عادة منتشرة لديهم أشار إليها العديد من المؤرخين وكتاب القصة لكنهم حتى الآن لم يتخلوا عنها وربما يسمع ذلك بعض أهل السلف فيقوموا بهدمهم، حتى "قطرات المطر" صنعن منه أسطورة دينية، لم يكن بهذا الشكل منذ مايزيد عن العشرين عاما، كان ملاذا للمتظاهرين، يقف فوقه كل من

وقف بجانب عبد الناصر، وكل من وقف مع السادات أو ضده، كان يتحمل ذلك، الآن أشعر بأن هذا الأسد قد فقد كرامته تمامًا، حتى من حاول دهانه لم يفلح، فشوهه أكثر، كان أسد قصر النيل الرابع قد تم تلويثه تمامًا منذ مايزيد عن العشرين عاما، أعرفه منذ ثلاثين عاما ربما، وأشك أحيانا بأنني عرفته من قبل كأني أراه لأول مرة أو كأنه لم يكن موجودا من قبل، حتى لو كنت قد قابلته من قبل فقد تغير كثيرًا، لكني لم أنتبه قبل الآن إلى أن أسد قصر النيل الرابع قد تلوث.. تلوث تمامًا، لبؤته وابناه معه لكن لا أحد يراهما وربما كان هذا ادعاء من أهل طيبة، كان الجميع فاسدين، حتى الجانب المختفي منه ناحية كازينو (قاف)، يمكن للأمهات أن يدفعن بأطفالهن للتبول بجانبه، وهو أمر عزيز لم يحدث من قبل في كل الحضارات السابقة، إلا إذا كان التبول نوعا من التطهر بالنسبة إليهن ويساعد على تطهر أطفالهن، أتطلع لخصيتي الأسد الرابع من الأسفل ربما يكون قد فقدهما - في الحقيقة تم نحت الأسود الأربع دون الخصيتين والقضيب لأسباب ربما لاعلاقة لها بالفن والجمال - وهذا الفعل أفقد الأسد أهم صفاته، وهي قدرته على الجماع التي تتجاوز مئات المرات في اليوم الواحد، إنه رقم مهول لايملكه ربما حيوان آخر في التاريخ، لقد حولوه لمملوك مخصي، ما الذي يفعله تمثال أسد مخصي فوق كوبري قصر النيل، وأي رمز الآن يمكن أن يكون له، تعبر الطريق من أمامي امرأة بترولية ترتدي تلك العباءة السوداء الكاملة، وخلفها خادمتها الفلبينية التي ترتدي هي الأخرى عباءة سوداء بحكم الانتماء

لربتها أو عمتها كما تناهى إلى سمعي ربما، وربما لو فتحت رأسها من الداخل لوجدت رفضا باتا لهذه العباءة التي تعود بها لعصر الحريم، يبدو من أسفلها البنطلون الجينز الأزرق والكوتشي الصغير الأبيض الذي ينتمي لأهم شركة غربية في العالم لصناعة المنتجات الرياضية وهو دليل قوي ومؤكد على مدى التعاون البعري الغربي في تشجيع الصناعة الغربية والاستهلاك البعري، أصابعها الصغيرة تلتف قابضة على بعضها بينما يلتف المعصمان الصغيران حول الطفلة السمينة للمرأة البترولية متابعا في تثاقل حبات العرق الخفيفة المتجمعة على جبهتها، لا يظهر من المرأة البترولية سوى عينيها الكحيلتين الواسعتين بلا سبب إلهي لذلك، لايمكنني تبين تضاريسها، أحاول لاأستطيع، في النهاية لايمكنني التحقق مما إذا كانت رجلا متخفيا أم امرأة بلا هدف، العدسات اللاصقة الزرقاء يمكن رؤيتها بسهولة، مؤكد أنهما يخفيان خلفهما بؤبؤان صغيران يعبران عن قبح خفي لا يلين لقانون الوراثة، أستكين لفكرة أنها امرأة بلا هدف في النهاية، وإن كان ذلك غير مريح أيضًا وأحاول أن استكمل الفكرة ببعض الخيالات غير المريحة، امرأة بترولية تسير فوق كوبري قصر النيل بلا هدف سوى التمتع بمرأى نهر النيل، ربما، وربما لا، ربما تستمتع برؤية قدميها تغوصان في قلب (قاف) الإسفنجي الممزق، تغوص بقدميها في طول وعرض (قاف)، وربما تستمتع بمرأى الفندقين المضيئين الكبيرين في الأمام، وهذا في ظني أيضًا خطأ، إذ أكاد أجزم بأنها لاتستمتع إلا بالمساحة التي تتحرك فيها، فيما يبدو

قميص النوم الأحمر الذي تسقط عليه أضواء خفيفة أثناء الحركة فيبدو من بين ثنيات العباءة من الأمام كأنه لسان فأر، الأمر كله كان مزعجا وأنا أتخيل أحد هؤلاء الأمراء والشيوخ يحاول أن يجامع مثل هذه المرأة، وحسبما تصل بعض الحقائق المشوهة إلى فلا أحد منهم يتزوج مثل هؤلاء إلا مدفوعا دفع الذاهب للمشنقة، إنه زواج رسمي على أية حال من أجل البحث عن وريث، أما الأبناء غير الشرعيين فهم مليونيرات العالم الجديد، بمعنى أن زواجه الحقيقي يتم من نساء أخريات ينتمين لأعراق بيضاء آسيوية أو أوروبية أو لبنانية، والعرق اللبناني مختلف عن كل الأعراق الباقية فهو ينتمي للعالم كله، تاريخ الفينيقيين الجميل يشهد بذلك وأبناؤه لم يكفروا أبدا بما تركه الآباء لهم، إنهم يسيحون في العالم، إنها نزعة غريبة، لكنها تستحق الدراسة أيضا، تمامًا كما ندعي في لعبة الشطرنج بأن بيدق في الصف الخامس يستحق الدراسة، ولكن هل ستؤثر نتيجة هذه الدراسة على مستقبل هذه المرأة، لاأعتقد، فإنهن لايتغيرن أبدا كما أعلم، وربما يكون علمي خطأ، لكنى أكاد أجزم بأن هؤلاء القادمات من الجزيرة لايمكن تغييرهن، فمنذ أيام أبي جهل لم يتغيرن، فما الذي يغيرهن الآن، لا شيء!. إلا أنني ومن ناحية أخرى كنت أراقب هؤلاء البتروليين بهوس مشكوك فيه، أتابعهم في الميادين وعلى الأرصفة، أخاف الاقتراب منهم كثيرا، كنت أفعل ذلك لسبب غامض وغير مفهوم؟!

من الناحية الأخرى تأتي تلك المرأة الغربية – وهي أمريكية

جنوبية على الأرجح-، يهتز نهداها في عنف ثوري ليس له علاقة بكاسترو أو جيفارا يحدثني بذلك يقيني الفرعوني ودون مبالغات حسية مستوردة خصيصا للقراء، يمكنني بسهولة فقط أن أشعر بمذاق الثورة الجهنمي مع نهدين ينتميان للجنسية الأمريكية الجنوبية قادمين من كولومبيا أوالبرازيل أو فنزويلا، هذا ماتعلمته من بعض مواقع الإنترنت، ترتدي شورتا كاكيا لما بعد الركبة بقليل وحذاء جلديًا سميكًا بني اللون ونظارة (ريبان)، بشرتها الحمراء الصافية تجعلني أصيغ السمع داخلي لاهتزازات قلبي بشكل ذكورى فاضح، أتوقف لاهث الأنفاس، سارا متقاطعين، أتطلع إليهما في صمت خائب تمامًا، كأنني أستمع لفتح زجاجة شمبانيا ابتهاجا برحيلنا نحن أهل طيبة، أردد بيني وبين نفسي "صحيح طيبة أم الدنيا.. والآخرة أيضا.!"

زحمة ياأمريكا الجنوبية..

سمر واين ياعم كاسترو..

زحمة ياجاز زحمة..

(٧)

هاأنا الآن فوق الرصيف أسير أمام (كنتاكي فرايد تشيكن)، لم يوجد كنتاكي ولا ماكدونالدز منذ عشرين عاما، إن وجودهما دليل تطور عميق في الفكر البشري، الفكر الاشتراكي تغير كثيرا وسينتهي عما قريب بعد التعديلات الدستورية الجديدة، حينها سيتم دفن ثورة يوليو وللأبد، وربما يأتي مع التعديلات ما يدفن

الجمهورية نفسها، لن يبقى منها سوى اسمها بعد التوريث الذي يجري لإعداده على قدم وساق، مع مباركة من الولايات المتحدة ورجالها الديمقراطيين والجمهوريين في تلك الحقبة من التاريخ المظلم للبشرية، وفي ظل توريث السلطة في بعض الدول المجاورة، كأنه كان عملا بالمثل، عملا أصيلا من أعمال الشعوذة المعترف بها، وتحت مسميات كثيرة مثل الخوف من المعسكر الإسلامي الأصولي، أو للحفاظ على المكاسب الديمقراطية التي تحققت، أو لاستمرار النهج الجمهوري، أو لمزيد من دعم العلاقة مع إسرائيل والولايات المتحدة، أو حتى باسم المقاومة والثورة [٥].

إمرح إذن أيها الميدان الجديد، تغيرت أنت الآخر، وفقدت معالمك، مطعم ومقهى (إيزائيفتش)، اختفيا واختفت معهما بقية من ذكرياتي، أربعون عاما، هل عشت أربعين عاما، هل قلت أربعين عاما، كيف عشت أربعين عاما، كيف عبرت هذا الطريق آلاف المرات لأكتشف أنني خلال العشرين عاما الماضية كنت أعبره كل يوم، حتى يوم الجمعة كنت أتوجه إليه لأعبره قادما من داير الناحية المشهورة ببين السرايات، بين السرايات التي أجدها دولة قائمة بذاتها دون أي نوع من الحفلطة السياسية الزائدة، ثم (الدقي) تاركا خلفي الجميع، أتلذذ بالمسير مغنيا (سمر واين)، أدمنتها يوم

(٥) كان لكل دولة الحق في اختيار "اللوجو" المناسب لها، وغالبا مايستبدل أهل طيبة من الطبقة المتوسطة كلمة "شعار" بكلمة "لوجو"، وهو تطور لغوي يؤكد على قرب انتهاء عمر لغتهم المعروفة لصالح تلك اللغة اللاتينية.

تركت حبيبتي، أو ربما تركتني هي، لاأتذكر الآن جيدا أينا ترك الآخر، ظللت أشرب حتى الصباح وأنا أغني حتى طردني الجرسون من مقهى (أسترا) أمام الجامعة الأمريكية، ها أنا في نفس المكان الذي وقفت فوقه منذ عشرين عاما.

(٨)

غيرت النوع الشائع الذي كنت أستخدمه طويلا من "قطرات المطر" لأن تكلفتهن أصبحت أغلى خصوصا في ظل توافر نوع أفضل وبشكل لايقاوم قادم من مجتمع المعلومات العالمي، أغلقة "البلاي بوي" على الإنترنت، أصبحت كل رغبة مكلفة، تكفل مجتمع المعلومات العالمي بتعويض تلك الرغبات بشكل راق قادم من عوالم أخرى، عالم ينتمي لقارة بعيدة، قارة تصر على تصدير مجتمع المعلومات للعالم في مقابل مليارات الدولارات، ولاتريد التخلي عن مسألة استثماره، فيما نحن مستهلكيه نريد أن نشارك في تملكه بلا شيء نملكه، الرأسمالية تكشر عن أنيابها البلاتينية، هاهي أعطتنا أمريكا إصبعها عن سبق إصرار، سمر واين يا أمريكا، أصبح عالم المعلومات بالنسبة لي تلك الجنة التي لا أعلم إن كنت سأدخلها أم لا، استخدمت الإنترنت لمراسلة بعض "قطرات المطر" الأجنبيات، قد أروق لإحداهن، فترسل لي الجرين كارد، أو أي كارد في أي بلد، طالما أن فرصتي هي واحد على سبعين وفقا لمروجي إعلانات الهجرة للجنة الموعودة، إلى الولايات المتحدة، ملكة مجتمع المعلومات المتوجة، التي غنت فيها

سيناترا سمر واين، لا أريد أن أتخلى عن (قاف)، لكنني أريد التخلي عن ذكرياتي اللعينة التي يخيل لي أحيانا أنني فقدتها تمامًا، وإن كنت قد أرجأت ذلك إلى وقت آخر، إذ لم يكتمل ميزان حسناتي بعد، مازال أمامه بعض الوقت ليكتمل، كما أن "قطرات المطر" الحقيقية سواء القاهريات، أو القادمات من الأرياف اللائي لم تكتمل ثقافتهن الجنسية بعد، وأولئك القادمات من الحوامدية بعد صفقات فاشلة لبيعهن لمدة شهر أو أقل مع أحد البترولين كزواج متفق عليه، كله تغير، حتى هؤلاء أيضًا تغيرن، أصبحن يتحدثن بالدولار واليورو والاسترليني والمارك والريال والدرهم، نسوا الجوند تمامًا، الجوند صاحب تعظيم السلام في العصر الملكي، جعلته الجمهورية لايساوي نكلة، شيء عظيم جدا، تراجع مع الوقت وتحول اسمه إلى "جوند" ليس أكثر، بلا قيمة، كأنه عسكري جيش لايساوي قيمته، يمكنني أن أتعثر في بعض"قطرات المطر اللذيذة" في الشتاء، في الليالي القارسة، أعلم أين أجدهن في بعض بارات وسط البلد بسهولة، إنهن أشبه بقطرات المطر، قطرات المطر المحرمة علينا في صيف (قاف)، القطرات التي تسير وتسقط سريعة وحاسمة على أرض مواسيرنا الحديدية المنتصبة دائما، شهر واحد تقريبا في السنة، هو الشتاء، قلب الشتاء، حين أجد بعضهن بسهولة أما في الصيف فلا شيء متاح لنا، كله للأخوة القادمين من الجهتين الشرقية والغربية، تضيق المسافات الزمنية كل يوم، حتى أنه يخيل لي أحيانا أن فرصة العثور على قطرة مطر تقلصت أخيرا إلى أن أصبحت أسبوعين

فقط، البتروليون يحتلون كل شيء الآن، لست غاضبا، لكن فرصة الحياة تتقلص أمامي مثل تلك المساحة الزمنية التي كان يمكن أن أجد فيها هؤلاء القطرات، أفكر أحيانا بالاكتفاء الذاتي، مازال أمامي وقت على اتخاذ هذا القرار الكبير.. هاها سمر واين ياوقت.. زحماااااة!

(٩)

هكذا إذا ودون مقدمات وأنا أقف فوق الرصيف في هذا الحر القائظ وقبل أن أصل إلى مبتغاي اليومي، هذا الذي لا أصل إليه أبدا، أكتشف بأنني عسكري شطرنج أخبره قدره فجأة أنه له قيمة ما على رقعة الشطرنج فأعاد له بعض من ذاكرته، أصبح له هدف ما غير واضح، كان يؤهله له مع الوقت، فنفض عنه بعض الأتربة التي علقت بذاكرته، أكتشف أنه مضى عليَّ عشرون عاما وأنا أقتفي أثر هذه الأرصفة، أطالع صورة "المسكوت عن اسمه" التي لم تتغير، كان كل شيء قد تغير عداه، كل شيء تغير في (قاف)، كل شيء، أنا تغيرت، اكتشفت اليوم كم أنا تغيرت، وحبيبتي أيضًا تغيرت ولم تعد تلك التي تركتها في "أسترا" أو تركتني، تركتني هناك في "أسترا" ليقذفني الجرسون إلى الرصيف، فأخرج وقد تقدم الزمن عشرين عاما..عشرين عاما ليس إلا...عشرين عاما ليس إلا.. لمي تيغر فيها "المسكوت عن اسمه الجالس على الكرسي"!

آه..

(قاف) تغيرت..
وأنا تغيرت..
وحبيبتي التي كانت حبيبتي تزوجت من رجل آخر..
تبًا لخمر الصيف وعبد الناصر والسادات..
تبًا لذاكرتي اللعينة..
سماااار وااااين!
زحمااااة.. زحمااااة ياسمر!

الفصل الرابع

لاتصالح .... ذاتك.. أبدًا

(١)

ربما من المهم الآن أن ألقي إليكم بحديث الجمجمة، وأعني ذلك النص الذي ترك على جمجمة الملك الطيبي القديم، وهو نص استغرق كثيرا حتى تمت ترجمته وإعلانه على الإنترنت، ويقال إن الجمجمة ليست جمجمة وحيدة بل هي جمجمة الملك وثلاثة من أبنائه وزوجته وبعض أحفاده، أي أن الأسرة كلها خضعت لعملية الكتابة بعد أن تم قتلهم جميعا، وهو شرح لابد منه كي تكتمل الصورة الكلية لمستقبل طيبة القادم، كما أن الحوادث التي تمت الإشارة إليها يجب أن تظل في مخيلة كل قارئ وقارئة للرسالة، لأن تتالي الحوادث وتشابهها في كل عصر يعني أن هناك ظلما قد وقع، وأن الأسود هي المنتقمة من الجور والظلم، لكن الغريب أنها تأتي أيضًا على المظلومين، ولعل ماحدث في قرطاجنة القديمة، قريب الشبه تمامًا بما يدعيه هذا النص الغريب.

بعد أن قام المحققونِ في لندن بترتيب الجماجم بدأوا بنص جمجمة الملك الأب الذي كُتِبَ أنه الملك الإله، وبعدها الملكة الأم الإلهة، ثم الأبناء فالأحفاد فالحاشية والبطانة وصولا لرؤساء مجامع الشعب حتى طاهي الملك وماسح أحذيته ومقلم أظافره

ومرتب ملابسه، وقواده، وحالق شعره، ومنظم اجتماعاته، وواضع طيبه، ومحنى لحيته، ونافخ بوقه، ومغسل وجهه، ومحسن شاربه، وداهن ظهره من الآلام، ومروض خيوله، وكواء ملابسه، وطبيبه، وسكرتيره، وحامي صدره، وحامي ظهره، وكاتم أسراره، وترزي قوانينه، وقارئ كتابه وكاتب كتابه، وناشر كتابه وبائع كتابه، وجامع مجلسه، وقائد حرسه، وقائد مركبته، ونافخ كيره، وحراسه وجلسائه وتجاره ومخبئو ماله وصبيانه وعبيده وهو أمر غريب، فقد تحمل كل هؤلاء وزرهم معه، وهو ماتنص عليه الكتابة على خلفية الرأس، تقول اللعنة:

أنا إله العذاب..

ملك الموت والأرواح السوداء والملونة..

ناثر الأشواك والثعابين والضفادع والقمل..

فاتح الشهية للقتل والمجون..

مستورد الفساد وقابض روح العباد والزنادقة..

أنا الإله الذي ليس بعده إله وليس قبل إله..

تحل لعنتي على الآتي والراحل، على المعوج والمستقيم، على البيض والسود، والرجل والمرأة، الطفل والشيخ، على النطفة والعظام، على الأتقياء واللئام، على الفسدة والركع السجود..

على الكهنة في المعابد وعلى ربات المحارم والملاجئ والسدود..

على النساء اللائي يحضن تحت أقدام العناكب..

وعلى الرجال الذين يرتمين في أحضان الرجال..

على الشموس والأقمار والأرض والجبال
أنا إله العذاب أترك لكم اليوم لعنتي،،
لعنتي التي تتكرر ولا تتكرر..
حين يعم الفساد.. وتزور الكتب..
وحين تمتلئ الصحف بما تنوء به..
وحين تختلط الصور والرموز..
وحين ترتجف الجبال وتسوى بالأرض..
وحين تمتلئ الريح بالسموم..
وحين تكون المياة بلا معنى..
وحين يضيق صدر النهر ويبدأ في الزوال..
ستحل لعنتي..
لعنتي التي تركتها لكل مايحيطون بي..
لكل منهم نصيب..

إلى هنا ينتهي الجزء الأول من الكتابة، وقد قيل بأن هناك جزءًا آخر سيتم نشره بعد أن يتم فك رموز مازالت مستعصية.

(٢)

أهم قطعة في نظر الضعفاء في لعبة الشطرنج هي الوزير على الرغم من أن اللعبة لاتنتهي إلا بسقوط الملك، إنهم لايتطلعون أبدًا لأهمية البنادق الصغيرة، إنها صاحبة الانقلاب الحقيقي على الرقعة.!

لست أدري إن كنتم تعلمون أن الإخوة "لوميير" أصحاب

السينما في العالم، قاموا بتصوير ثاني فيلم لهم على كوبري قصر النيل، يمكنكم بقليل من البحث على شبكة الإنترنت أن تجدوا هذا الفيلم، في عام ١٨٩٨ قاموا بتصوير كوبري قصر النيل بعد الانتهاء من إعادة تركيبه بقليل، صوروه كما هو فى الحقيقة، وتركوا هذا الفيلم لنا، لنشاهد فلاحي طيبة، أثناء عبورهم عليه بغزلانهم ونعامهم – كان هذا الوقت وقت ريش النعام الذي تحول الآن لألياف بترولية– وبجواميسهم وأبقارهم وخرافهم وكلابهم وعصيانهم ووجوههم السمراء المشدودة، وعيونهم الواسعة التي تزداد دهشة أمام عدسات لوميير السحرية، وحتى الأسود كانت موجودة تتطلع إلى السماء منذ ذلك الحين في انتظار الإشارة، لا أدري ماذا حدث لهم بعد مائة عام من تاريخ امتلأ بالدماء والقتلى على الكوبري لكن الظلم كان محتملا على ما أعتقد ولم يكن قد وصل إلى حده الأقصى بعد.

أتت بعثة الأخوة لوميير للحصول على بعض الأرباح من جراء عرض أفلامهم في الإسكندرية والقاهرة، وتم تصوير الفيلم، لم يسأل أحد منا من قبل عن سبب تصوير كوبري قصر النيل على وجه التحديد، وبعض الأماكن الأخرى الأقل أهمية؟ ما الدافع الحقيقي لقيامهم بذلك إلا إذا كان الكوبري له معنى هائلًا أو وراءه لغزًا كبيرًا لم يحله أحد حتى الآن؟ هل دفعني القدر للانتظار أكثر من مائة عام حتى أستطيع أن أتقدم إليكم بحل لهذا اللغز الخيالي ولماذا الآن؟ لماذا لم يعلن الحاكم بأمر الله ذلك، سأجد له عذرا ربما لجنونه المطبق، لكن السؤال لماذا لم يعلن الغوري عن كشفه

للكوبري أو لماذا لم يعلن ذلك سليم الأول بعد أن اكتشف سر الغوري؟ ولماذا لم يقم سليم الأول بنقل الكوبري إلى القسطنطينية كما نقل كثير من الأشياء حتى الشغيلة في صناعات الأرابيسك والتذهيب وغير ذلك؟ هل خاف من الأسطورة أن تتحقق هناك في مدينة حرف القاف هو الحرف الأول من اسمها وأعني بها القسطنطينية، كما يمثل حرف القاف كل اسم المدينة التي نعيش فيها الآن؟ أسئلة كثيرة كان يجب الإجابة عنها؟ إذن كنت أكتب عن لغز"قاف" ولم أستطع أن أنفصل عما يحدث لها ويحدث لي في تلك اللحظة فاختلطت الروايات ببعضها البعض..

هاهاها سمر واين وزحماااة كمان..

(٣)

على ذلك فإن أكبر تاني شخصية في الرواية ممكن أن أبدأ بها - بعدي طبعا بحكم أنني أنا الذي يكتب هذه الرواية، على الرغم من أنني ابتدأت ذلك بالفعل - هي خليل الحارس ربنا يعزه يارب، وطبعا كل واحد فينا لديه انسان مهم جدا في حياته.. خصوصًا أنه لايختلف عني كثيرا فهو عسكري شطرنج أصيل، لم يتمرد يوما على أقداره، وإن كان يحاول أن يدفع نفسه لمربع أكثر تقدما للحصول على مكاسب ما، لكنه كان جنديا يتميز بأصالة مدهشة، على الرغم من عجينة الخشب الداخلية التي تجمعنا معًا، كما أن قدره قد اختار له أن يكون لديه نوع من الدراية مثلي بعالم المعلومات العجيب، لكنه كان أكثر استقرارا، وكان قدره الذي

يمسك برأسه يدفعه دائما للترقي، ولكن على الرقعة فقط دون أن يكون ذلك هما أصيلا في الحياة، لكنه – أي خليل – كان جنديا من النوع السمين الذي يملأ مركزه، لايمكن للعين أن تعبره بسهولة برأسه الصلعاء وبنظارته التي لايمكنني أن أحدد هل يرى من خلالها بالفعل نظرا لسماكتها والدوائر التي تملؤها، تتسع الدوائر في نظارته، تتسع أحيانا للدرجة التي أشك فيها بأن خليل يراني فعلا، خصوصًا وأنه يشتغل في مجال حيوي يعتمد على النظر، على أية حال كان يرى بوضوح حين يريد أن يرى بوضوح، وكان لايرى بوضوح حين لايرغب أن يرى بوضوح، وهذه المسألة كانت مثار جدل في علاقتي به لكنه جدل مرح، لايترك في النفوس شيئا، أما ملابسه فهي بالطبع تنتمي لعاصمتنا التي تركت لنا حرية ارتداء مانشاء، فلا قوانين مكارثية، ولا قوانين لايمكن النط فوقها، لكنه كان يحب القمصان الضيقة فكانت تبرز أثداءه بشكل لافت للنظر وهو ماكان يجعلني لا أتحرج في أن أنكشه[٦] حتى يفقد أعصابه، لكنه أيضًا لم يكن يفقدها، كان يعرف متى يجعلني أتوقف فيخلع نظارته كبرجوازي عظيم،

(٦) فعل ينكش من أهم الأفعال التي يعتمد عليها أهل طيبة اعتمادا كليا في حياتهم، فنكش تعني الكتابة على الأرض دون أن يكون لهذه الكتابة معنى، وينكش وراءه تعني البحث خلفه وهم دائمو البحث خلف كل مايثير ريبتهم، ونكاش هو من يقوم بالنكش، وهم بطبيعتهم لايكفون عن النكش حتى وان ادعوا عكس ذلك، كما أن النكش يعني لديهم أيضًا عدم اتساق الأمور، ويعودون بالنكش إلى صاحبه الأصلي وهي الفراخ البلدية التي تترك خلفها على الأرض أشكالا لامعنى لها ويضرب بها المثل فيمن يفسد أداء الأشياء فيقولون "نكش فراخ"، وهم يقولون عما يفعله "المسكوت عن اسمه" بأن جميع أفعاله "نكش فراخ"، والله أعلم!

ويتطلع لي في نظرة موحية لايمكنني أيضًا تحديد معالمها، وجهه السمين لايمنحني تلك الحرية، أكون متأكدا أنه في تلك اللحظة لايراني لكنه يرغب في أن أرى نظرة العبوس تلك، وهي في ذات الوقت نظرة صارمة تفيض بالجدية، فأتوقف، فيعيد نظارته مرة أخرى لعينيه!

المهم كل يومين ثلاثة يعزمنى على أكلة سمك فى باب اللوق، وساعات على سندوتش همبورجر ضخم "المنكبين" فى ماكدونالدز أو هارديز أو على دجاج كنتاكى الذي يقترب حجمه من حجم ديناصور صغير يمكنني أن أشك في مكوناته العضوية وغير العضوية، لا أملك في النهاية سوى التهامه بشهية لاتقل عن شهية ضبع إفريقي، لكني لا أقبل الشك في الطعام كالعادة، كما أنني لم أكن أمانع في الذهاب إلى تلك المحلات - لسبب غريب يتعلق بي - لأنه لابد لي أن ألقي ببقايا ورق سندوتش الماكدونالدز على الأرض أمام مطعم إيزائيفتش القديم الذي يحتل مكانه الآن مقهى وادي النيل ومعه "كي إف سي"، مزاج وسخ أنا عارف، لكنه داء مستحكم منذ الأزل، لابد أن أستمتع بالعالم الجديد، فالعالم القديم ينسحب تمامًا وينتهي، يتلاشى، لكن لازم ولابد وحتما من المشاركة في إعادة رسم وجه (قاف) الجديد، (قاف) التي لاتريدنا ونحن نتمسح بها، (قاف) التي تطردنا ونحن نمسك بتلابيبها كالأطفال، (قاف) التي تبصق علينا ونحن نرد ذلك إليها بعشرات القبل، (قاف) التي تلقي بحذاء قديم فوق رؤوسنا ونحن نغسل لها قدميها وركبتيها، (قاف) التي ترمينا بعشرات

القلل فنزداد تعلقا بها، نحن الذين لم نستطع الخروج منها ولا حتى بالطبل البلدي، نحن الملاعين أولاد الكلب الذين لايريدون غير (قاف) معشوقة دائمة، "م الآخر احنا ولاد كلب لزقه لقاف"، تمامًا كنا نمارس دورنا المقدر لنا، إذ أعتقد جازما أنه لايمكن لأي قطعة شطرنج أن تترك رقعة الشطرنج، وعادة آخر من يتركها الملك، وهذا اللعين يموت على أرضيتها لايريد أن يبارحها أبدا، فما بالك بالعساكر أمثالنا، ليس لهم مأوى آخر، لابد من المشاركة في وساخة (قاف) بنصيب، للفقراء نصيب حتى من وساخة (قاف)، ساعات خليل ينضرب في نافوخه ويعزمني على حمام عند (شلبي) في باب اللوق - الحقيقة أنني لم أر الحمام من قبل إلا وهو طائر بالذات في ميدان التحرير ساعة المغارب - يحل علي ساعتها هطل هبلى من حلاوة الحمام والشوربة، خصوصًا لأن الحمام يملك أسرارا جنسية مقدسة لدى أهل طيبة، وأكل الحمام يعني ليلة حافلة بالصخب والحب النادر، صحيح أنني عادة ماأقضي الليلة بعد أكل الحمام مع صور قطرات المطر، لكن أحيانا أتعثر في قطرة مطر عجوز، أو قطرة مطر خرساء، أو حتى عرجاء أو ماشابهها، فأحمد الله على مامنحني إياه، وأقبل يدي ظاهرها وباطنها على تلك النعمة، وتمر الليلة عادة على خير، خليل صديقى من صغرنا، اشتغل فى مجال الطباعة منذ خمس عشرة سنة وبيحاول يعمل مطبعة كبيرة، مشروعه، شخصيا باحترم أفكاره جدا، نختلف أحيانا نتفق أحيانا لكن لابد من الصداقة، هذه هي حكمة الحياة في "قاف" المجهولة، رغم أننى

متأكد أنه لم تعد هناك حكمة على الإطلاق من أي شيء! لم نندفع كثيرا للأمام سواء هو أو أنا في سبيل تحقيق أحلامنا، وهو لم يتقدم عني سوى ببضع ملليمترات، لكنه كان يفكر دائما في اللجوء للبنوك إذا لم يستطع توفير الأموال اللازمة لشراء المطبعة التي يريدها، "خليل" يريد أن يترقى إلى درجة "وزير"، في ظني أن ذلك مستحيل، ليس لعيب في خليل، ولكن كأنني كنت أقرأ ماكتب في اللوح المحفوظ، لم يرد فيه على الإطلاق أن خليل سيصبح وزيرا، سيعيش بيدقا ويموت بيدقا، صعلوك آخر صغير، كأن القدر يدخر لنا ذلك، ربما للتضحية بنا، إنها اللعبة التي ارتضيناها دون إرادة حقيقية، ولذلك لم يكن هناك مفر من أن نلعب، على الرغم من توقفي كثيرا لمشاهدة ماحدث في اللعبة خلال السنوات الماضية، لكن قوانين اللعب كانت تتغير عاما بعد آخر، واقتنعت أيضًا في نهاية الأمر، بأنني ألعب بأثر رجعي ومعي خليل، وبأننا يجب أن ننظر للاستراتيجية ولا نتطلع كثيرا للتكتيك، والمخجل الذي تأكدت منه أننا لم ننظر يوما لا للاستراتيجية ناهيك عن التكتيك، كنا بعارير حقيقيين غير متكلفين، ننتمي بقسوة لهؤلاء الذين لا يعنيهم الغد بقدر ما تعنيهم اللحظة، وعادة مايكون ذلك هو مقياس الحياة للبعاررة!، الغد وهم، واللحظة هي الحياة، كان هذا هو المهم في الأمر، والبعارير أو الطيبيون في العاصمة الثالثة حتى حين يصيبون أموالا أو ثراء من أي نوع، فإنهم يحفرون تحت الأرض ويخبئونها، ويموتون وهي تحت رءوسهم، لم يتعلموا أبدا معنى الغد، المسألة كلها خوف معقد متراكم، لذلك

لم نفكر يوما في الانتحار، لأن الحياة كانت تمنحنا قطرات قليلة من الماء، يعاني خليل من كبسات رجال الأمن والرقابة والمصنفات ورجال الدين وحتى من اليساريين القدامى، دائما مايحدث معه هذا الأمر، مصادرة بعض مطبوعاته، أو عمل بعض البيزنس كارد كإتاوة لايتم الاعتراف بها لبعض الضباط أو كبار الموظفين، لايكاد يحقق مكسبا حقيقيا إلا وأتى من يسرقه منه، ومع ذلك كان راضيا، حتى لو على مضض، كنا مدفوعين بأحلامنا بأنه سيأتي ذلك اليوم الذي ستفتح فيه الحياة الحنفية على آخرها..

هه ياحنفية!

زحمااااة ياسمر..

زحمااااة يابعارير..!

(٤)

بمناسبة القطرات، كانت ميغان قد بعثت لي برسالة ثانية، اختطفت قلبيَ معها حين شاهدتها على البريد الإلكتروني لي في "ياهوو"، كانت تؤكد على مجيئها في الصيف، والصيف يعني "سمر واين"، أي بعد شهر تقريبا، لم تنس ميغان أن تُرفق بخطابها بعض الصور الملتهبة لها و"كليب" قصير لايزيد عن أربعين ثانية، مما جعل رأسي تدور بسرعة الضوء، كان علي أن أنتظرها في المطار، مطار ڤاف الحديث المتطور، هناك على ممر الطائرة القادمة من كندا، كنت أعلم أنني سأعد الساعات حتى

مجيئها، لكن كان هناك مايقلقني في الأمر خصوصًا أن ملامحها الجديدة تكاد تتطابق مع ملامح حبيبتي التي فارقتني هناك في أسترا، توقفت كثيرا قبل أن أرد عليها، لكني في النهاية وعدتها أنني سأكون بالانتظار!

صديقي البعرور العجوز المثقف - مثلاً- الروائي الكبير الذي لم يسمع عنه أحد، لاخيرا ولا سوءا أعني، علي الفضالي يحاول كتابة الحكمة في كل سطر، ويتحدث كثيرا عن وعي الكاتب ولا وعيه، وحين أراه في حالة انهيار نفسي كامل لأسباب أجدها تتعلق غالبا بكتابته لرواية جديدة، فلايأكل ولا يشرب فقط يدخن السجائر ويعتزل الحياة والكلام والناس، كأنه يموت، حين أراه على هذه الحال ألعن اليوم الذي كتبت فيه رواية - وهي حركتي الأولى السرية التي مارستها على الرقعة الخفية - وألعن أيضًا اليوم الذي قابلته فيه، وأتأكد أن باب الحكمة مفتوح فقط لمن بالغت الحياة في القسوة عليهم، أؤكد لنفسي أن هذه الحياة ليس بها أي حكمة على الإطلاق، والمجنون حمدي أبو جليل بوجهه الطباشيري الذي يذكرني دائما بالطلاء الجيري حالة وهمية أخرى من الإنجذاب لقاف، يمكنك أن تراه واقفا على عربة الفول في المساء ثم بعد أن ينتهي يأخذ ورقة جرائد يتطلع إليها في براءة ثم يمسح بها يديه وفمه ويلقيها على الرصيف، مازال يحتفظ بسلوك قديم يعود لعشرين عاما، لم يتطور بيولوجيا، كما تطورت كل كائنات (قاف) العادية والخرافية، لكنه يعرف كيف يتحرك على الرقعة على أية حال، وهو لايختلف عن البعارير الآخرين ولا

حتى على الفضالي، ورغم كل مهارتهم في الكتابة، لكنهم أسيرو اللحظة وأنا أيضًا معهم، ليس لنا غد يمكن أن نحلم به، فقد أغلقت كل طرق الحلم، وكل ما يتحقق وهم من نوع جديد..

جديد ياسمر..ياسمر واين..!

جديد في الزحمة .. جديد..!

(٥)

كيف خرجت من "أسترا" في ذلك اليوم صباحا بعد أن طردني الجرسون، لأستيقظ بعد عشرين عاما فأجد "قاف" قد فقدت سحرها الذي تركتها عليه وتحولت لكرة من المطاط، جديدة تمامًا لا أعرفها، تغيرت معالمها، تخلت عن كل شيء إلا شيئا واحدا، فقط لم تتخل عن ميدان التحرير، كان دائريا وتحول لمربع، وأحيانا لمثلث، وأحيانا لكرة قدم، وأحيانا لقنبلة، وأحيانا لحفلة إعلانات لكاتب الشهير اسمه عبد الرزاق المحامي الذي لم أقرأ له يوما حرفًا، ولم أقابله على الإطلاق، حاولت كثيرا تخيل هيئته، كنت أفشل كالعادة، عبد الرزاق لم يخرج أبدا من مخيلتي ككتلة من الشعر المنكوش مع إدمان للسجائر المحلية ومعطف يعود للخمسينيات مع بنطلون أسود أو بني لأنهما الأكثر انتشارا في طيبة منذ أربعين عاما، غامق دائما مع صوت عال، ونبرة متعالية فكيهة، وحين تنتهي سجائره سيطلب من أي مار أمامه سيجارة وربما سندوتش فول إذا لزم الأمر، لكنه كان يفضل وضع إعلاناته الضخمة المكتوبة بفرشاة جيرية في ميدان التحرير

بالذات، كاتب الشباب الذي مات دون أن يترك لي شخصيا كلمة واحدة مكتوبة غير إعلاناته المبهجة التي كانت تجعلني أستلقي على الأرض من الضحك كل صباح، كانت لذته معاندة الرئيس الراحل، وكان يجعل جهاز الأمن كله يركض في شوارع قاف بحثا عن هذا الكتاب المجهول الذي كتبه المحامي اليساري، كاتب الشباب والبعارير عبد الرزاق المحامي، أسطورة أخرى لابد لي من أن أذكرها عن بعارير العاصمة الثالثة.

ممتلئ الميدان عن آخره بالعسكر، كثير منهم لايتورع عن قبول رشوة سريعة من سائقي السيارات الملاكي نظير كلامهم في التليفون المحمول، ولامانع من غض النظر والطناش بسيجارة حشيش، نتشارك نحن والعسكر في هذه المسألة، أبو جليل كتب عنها في (الفاعل)، بس لايضر أن نكتب طرفا آخر عن المسألة، سطوحي راشد صاحب (دار نشر مينا)، كان يحلو لنا أحيانا أن نطلق عليه "ابن رشد" تيمنا بالفيلسوف العربي التي حرقت كتبه أمام عينيه، تاريخ طويل من الإلهام القاتل الحنجوري اللعين، كان راشد لايتورع عن تدخين الحشيش في أي مكان، يعني بيشاور على نفسه لكل أمن (قاف) المتين، الغريبة أنه متروك لسبب أو آخر شخصيا أتمنى القبض عليه في قضية سياسية وليس قضية تحشيش أو دعارة أو أي قضية ملفقة مثل قضاياهم المشهود لهم بالتمكن فيها، الدولة تعلم جيدا أنه لا يمكن الكتابة دون قطعة الحشيش، وكتابة الرواية على الأخص تحتاج إلى قطعة حشيش، وإلا لن نستطيع التخيل وسنفقد القدرة على الكتابة، هل هناك

علاقة بين الحشيش والكتابة، مؤكد هناك علاقة ميكروبيولوجية لايدركها سوانا، هل من المهم لكل كاتب للرواية أن يتذوق دخان الحشيش حتى ينفصل عن العالم، حمدي أبو جليل أشار يوما إلى أن ذلك مهم للغاية وكان معه حمدي الجزار وأكد على ذلك سعيد نوح وانضم لهم راشد وسعد عابد قبل أن ينتقل للرفيق الأعلى، وهذا أيضًا غير متأكد منه أنا - لكنه قيل على أية حال -حتى لو كنت أدعي عليهم زورا، حين تدخن في سلاسة تدرك في تلك اللحظة أنه لايوجد سواك في العالم، ليست هناك مشكلة أخرى في الحياة يمكن البحث فيها إلا المشكلة التي تراها أنت فقط، سوف تجد مشكلتك الوحيدة طريقها للحل دائما عقب تناول الحشيش، بمعنى ياسيدي الفاضل أن الحشيش يجعلك شخصا واحدا يواجه مشكلة واحدة، هذا إذا أردت فعلا أن تواجه تلك المشكلة، بمعنى آخر يمكنك بسهولة أن تتحلل من كل مشاكلك وتفكر مثلا في صوتك، فيمكنك أن تغني، أو تفكر في أنك قادر على أن تكون أكبر ماسورة حديدية في طيبة. (فتنطلق منك كل عوادم الدخان القابعة فيك)، وأن جوز حمام وهو من أهم الأكلات الجنسية في طيبة منذ بداية التاريخ حتى الآن، ويتفنن أهل طيبة في صنعه، واضعين فيه خبرات مئات السنين، وليس هناك في العالم ألذ منه على مائدة الطعام، وهم يقولون إنه يمكنك "بجوزين حمام أن تأتي بأورطة عيال" وهو مايشير إلى الطاقة الهائلة الكامنة فيه، لكن تجربتي لم تصل فيه إلى ذلك الحد، إذن جوزين حمام مع تلك السيجارة الجهنمية يمكناك من أن تصرع هرقل مثلا وأن تتزوج

من أميرة ما، وسيكون لك هذا، أو تشعر بأنك لاتريد أن تتحدث وتريد أن تسمع صوت الصمت، الصمت فقط فيكون لك هذا، وإذا أردت التفكير في مشكلة فأنت وحدك الذي يحدد ماهيتها وجوهرها وطرق حلها، وعدا ذلك فأنت في حياتك اليومية الدونية التي تعيشها قسرا ستكتشف أنك مكون من عدة أشخاص يواجهون عدة مشاكل، ومن أجل أن تكتب الرواية عليك أن تلتزم بأن تكون شخصا واحدا، وكما نعلم جميعا فإننا في "قاف" مصابون جميعا بشيزوفرينيا هائلة تجعل الفرد الواحد منا ينقسم إلى آلاف الأفراد كل يوم، خصوصًا أفراد من النوع العاجز الذي تواجهه مشاكل تتعلق بالحياة الأساسية وليست مشاكل الرفاهية، فأنت تواجه عشرات المشاكل كل ساعة مما يولد أيضًا نوعا من الزحمة والتشتيت، والرواية عدوها الأول أن تكون مشتتا، الحشيش كالمغناطيس يلم كل ذواتك المنقسمة ويحصر مشكلتك في مشكلة واحدة تحددها بنفسك، وعلى ذلك كان يجب على الدولة أن تترك الحشيش للناس يدخنوه كما يشاءون فيرتاح الناس وترتاح الدولة، ولكن الدولة هنا غاوية مشاكل دائما! أليست هذه حاجة تنقط! ولكن في هذه المسألة هناك حقيقة- لايمكن لك تجاهلها فإن تكون جنديا على رقعة الشطرنج يشرب الحشيش، فأنت أمام أمرين إما أنك لن تلعب على الإطلاق، أو ستتحول لرقص الباليه مثلا بدلا من لعب الشطرنج، وعليك أن تتخيل نفسك بتلك "الجوللة" البيضاء تطير على الأرض بحثا عن حلول لمشاكلك التي لاتنتهي، لكنك على أية حال ستتخلص من القدر الذي يحركك على الرقعة –

(٦)

هذا المساء حين انتهيت من ورديتي، وبعد مجموعة من المماحكات اللاسلمية مع مدام (منال)، تشبه مماحكات الفيل الذي يقف خلف بيدق على الرقعة، هذه المماحكات التي انتهت كلها بقولي لها (يامدام) وبخضوع ليس له مثيل حتى في الغابات الإفريقية كخضوع الحيوانات الرخوة المنكسرة للحيوانات المخلبية الكاسرة، مر اليوم بسلام، كان علي أن أتعلق في مجموعة من الأتوبيسات، ثم المترو، ثم ميكروباص من نوع انقرض حتى في مجاهل المعمورة كافة، لايصلح للتعامل الآدمي بالمرة، وأعتقد أن الدولة نفسها فقدت الثقة في أهل طيبة أن يكونوا بني آدمين، قطع الحديد فيه المنطلقة منه بأشكال عشوائية سريالية التكوين لايمكن لبيكاسو مثلا أن يأتي بمثلها، حين رأي أحد أهل طيبة البسطاء لوحات بيكاسو ظن أنه كان يعمل سائقا لميكروباص قبل أن يعمل رساما، وعبثا كنت أحاول إقناعه أن بيكاسو كان حمارا كبيرا لأنه لم يستطع أن يعيش لوقت إضافي كان يمكنه على الأقل من إخراج لوحة أشد عنفا من لوحته التكعيبية "جورنيكا" وليس رسما بناء على سماع للمذابح أو مشاهدة لصور بعض المذابح، وإنما بمشاهدته على الأقل لعدة ميكروباصات وتكاتك وتعلق الطيبيين بها، كان سيرى المذابح الحقيقية لأناس تسيل دماؤهم ومع ذلك يستمرون في الحياة وهم يسعلون ضحكا وهبابا، كان ذلك سيمكنه

من رسم حقيقي، كان سيجد مثلا باب الميكروباص مثبتا بقطعة حبل، دوبارة، سلك كهرباء، ويتحرك الباب بمزاج السائق فهو يندفع فجأة بالسيارة ثم يتوقف فيرتد الباب منغلقا، وهو اكتشاف رائع لأحد قوانين الفيزياء التي لم يمكن حتى لإسحق نيوتين أن يتخيل أنه يوما ما سيأتي من يستخدم قوانين الجاذبية وردود الأفعال بهذا الشكل الحصري، ومن الممكن أيضًا أن يكون مفتوحا دائما، بمعنى أنه ليس هناك باب من الأصل، وليس لأحد خيار في المقعد الذي سيجلس عليه والمقعد المخصص لشخصين سيجلس عليه أربعة، كما أن المقعد مكون من قطعة حديد صاج مستطيلة تم تثبيتها بقوائم حديدية صدئة إلى أرضية السيارة المفروش عليها قطعة إسفنج، فوق المقاعد تم فرش "كليم" مهترئ، هذا المقعد التفصيل بالطبع لايخلو من بعض الحشرات أو من روائح زيوت المواتير أو رائحة كُلّة، أو آثار ليلة الأمس من رقدة السائق عليه، أو ممارسته للحب مع "قطرة مطر" عابرة أو كامنة، وقد أكتشفت أن العجلة الاستبن تم اخفاؤها أسفل الركاب مباشرة لتقوم مقام القوائم التي تسند المقعد، سيجد الراكب نفسه في حالة القصور الذاتي يرقص داخل العربة، وهو نوع من الرقص لم يتواجد في كتب التاريخ القديمة حتى، هل يمكن إخراج لوحة حية بهذه البراعة لاهتمام الانسان في طيبة بأخيه الإنسان، وهو لايفعل ذلك عن عمد، لقد حبسهم الفقر واللامبالاة والنظام "المبهوء" عن عمد في منطقة عمياء لايمكنهم معها أن يروا مايحدث ولا يشعروا به، الأنكى – فيما يتعلق بي– أنه يمكنني أيضًا أن أنزل لأزق، ويمكن

للميكروباص أيضًا أن يتوقف في أي مكان معلنا انتهاء الخط، وعلي أن أتقبل ذلك بنفس راضية، فليس بين الفقراء ضغينة، هبطت أخيرًا في تلك المنطقة المسماة (أم بيومي) في شبرا الخيمة بعد مجموعة من حركات بهلوانية تنتمي للاعب موهوب في مباريات كرة القدم اسمه (أبو تريكه)، إنه يوم زيارة أمينة وإبنتها، أمينة الجميلة "المقدسة" – وعلي أن أسب شتاينبك المكروه وماركيز المحبوب لأنهما من كثرة استخدامهما لهذا المصطلح أصبح من المستحيل الآن الفكاك منه– تعمل هناك، أمينة تعمل فى مركز طبى حكومى حقير لبضع ساعات، حين أقول حقير فأنا لا أقلل من شأنه، إذ إنه لا شأن له على الإطلاق، لاشأن له بالصفة على الإطلاق، ثم تنتقل للعمل ساعتين في عيادة تابعة لإحدى الجمعيات الخيرية الإسلامية، منها جامع ومنها مستشفى، حيث تتعرض لانتهاكات مدير العيادة الذي ينتمي لأحد الفصائل الاسلامية ذو الذقن الكبيرة السوداء الذي يحاول ضمها لمجموع حريمه، وهو لاييأس على الإطلاق كما أسرت لي، ثم تخرج منها لتعمل في عيادة قبطية على الرصيف الآخر، لتتعرض لتحرشات غير مقصودة بالطبع من القس الذي يرى فيها نوعا نسائيا جديدا لم يقابله من قبل ينتمي في نظره لقبيلة سيدة الغناء الطيبي القديم "ليلى مراد"، هكذا كانت أمينة، كيف كانت تفعل ذلك؟، الحقيقة أنني لاأدري تمامًا كيف تفعله، لكنها تفعله على أية حال، فالدور الذي تلعبه على الرقعة غير مذكور في أي من كتب الشطرنج منذ بداية التاريخ، حتى "أليخين" أشهر لاعبي الشطرنج، بكل عبقريته

التي مات على أثرها بانفجار في المخ لم يلعب هذا الدور من قبل، عيادات هناك لا تصلح حتى مراحيض عمومية، وبالمناسبة هي غير متوافرة، وبالمناسبة أيضًا لا توجد مراحيض في رقعة الشطرنج، فغير مسموح بالتبول على الرقعة، لكن مسموح ببعض العرق الناتج عن الرطوبة الشديدة والحرارة، هذا العرق يمكن "للمتحكم" في الرقعة أن يمسحه من على رءوسنا، أو يتركه ليجف بفعل زخات من الهواء قلما تتوافر في هذه الأماكن، إنه يوم زيارتها الأسبوعي، بقية إخوتنا غير معنيين بالأمر.

(٧)

رجب أخي الكبير طبيب عنده كورولا - والمسيح الحي أنا كنت فاكره اسم دواء حين قال لي في التليفون إنه جاب كورولا- وعنده أيضا عيادة، ليس معنى أنني ذكرت ماركة السيارة أولا أنني أحقد عليه - لاسمح الله فهو أخي- لكنها ميزة لاتتوافر للكثيرين، أخي الثاني شعبان - بالمناسبة إسم الدلع له شريف..هاهاها - مدير إدارة فى ضرائب المبيعات " وطبعا شريف " ..هاهاها..شريف للغاية"، وقد منحه الله على غير رغبة منا إدراكا ووعيا هائلا بالقيمة العظمى للعقل الذي يملكه، وبعد إدراكه لوضعه الاجتماعي بيننا، فضل أن يعيش في عزلة اختيارية، نحن من المؤكد لن ندفعه للأمام، بل سندفعه للخلف، والحياة لاتعترف الآن بمن يملكون قوة الدفع للخلف، ولأن أغلبيتنا لايملكون سوى هذه الميزة فلايرغب أحد فينا، على الأقل أدرك

إخوتنا في دول العالم المتقدم المتحدثين عن الانسانية والديمقراطية أننا نصلح فقط كحقل تجارب للتليفزيون والسينما والإنترنت، أو حقل تجارب لأدوية العالم المتقدم، أو حقل تجارب لدفن النفايات، أو حقل تجارب للجنس وأدويته قبل اطلاقها، أو حقل تجارب لطرق تهليب أراضي قاف دون اعتراض من أهل طيبة، أو حقل تجارب للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي لبيع ديون الدولة وبيع القطاع العام على أن يقول أهل طيبة المعنيون بالأمر "آمين"، أي أننا لسنا أكثر من حقل، وهي نظرة تشاؤمية تحتوي كثيرًا من صفات الشك التي لانملك سواها الآن، فسقوطنا المزري في الطبقة الاجتماعية البروليتارية الهابطة دائمًا وصعوده السريع إنما هو إدراك مبكر منه بأنه أحق بهذه الطبقه مننا، طبقة أرستقراطية كانتونية لاأفهم أبدا كيفية التسلل إليها، كأنه ابن عرس يتسلل من عقب باب بعد تلصص دقيق على الطريق الذي سيسلكه جيدا ودون مخاطر تذكر، فجأة وجدته هناك، كأنه درس بشكل ممنهج شخصيات مثل حسنين "المتطلع المتسلق اللاإنساني" في بداية ونهاية، ورؤوف علوان " الداهية القاتل الورقي والكاذب" في اللص والكلاب وشخصيات عدد من أعضاء مجالس الشعب منذ بداية البرلمان في العهد اليوناني ومرورا بكل أشكال الديمقراطية التي جلبت لنا مثل هؤلاء، وشخصيات عدد كبير من رجال الأعمال خصوصا الذين يحملون أصولا كلبية، أو أصولا تنتمي للطبالين في الملاهي الليلية، ووزراء نصفهم لم يستكمل تعليمه ويمتاز بقدرته على تقبيل أيادي حرم "المسكوت عن اسمه" بقبلات

لم تتوافر حتى لكلارك جيبل في سينما هوليوود، إنه جيش طويل من المتنطعين والمتحذلقين النطاطين، اللعين قام بدراستهم بشكل أنثروبولوجي وسيكولوجي وبيولوجي واع ومتفهم، بحيث أصبح احتكاكه بهم احتكاكا ايجابيا يولد له الثروة ويولد لنا بشكل غير مباشر الأمراض المتعلقة بالمعدة والأمعاء وربما ماهو أخطر ومنها بالطبع الضغط والسكر وضيق الشرايين وضيق ذات اليد، دراسة الأحياء مهمة للغاية للتعرف على سلوك الكائنات الطفيلية، فحينما تقرر أن تكون واحدا منهم، عليك أن تتسم بصفات محددة، وهدفك يجب أن يبدو نبيلا للغاية في نظرهم، ربما أعلم ذلك من بعض القراءات والمراقبات، وهو اختيار في الحياة صعب للغاية، لكن يمكنك أن تتخذه بسهولة، بسهولة ماقام به مصطفى دردير حين يمنح نفسه لأي عابر سبيل، وبسهولة مايقوم به أخي شريف، لايمكن أن يكون الله منحه ذلك بناء على كياسته وأمانته، وبشكل عام معروف عن من ينتمي لطبقتنا بأنه يتهم جميع خلق الله من الأثرياء بأنهم حرامية أو باعة مخدرات، إنها صفة أصيلة لدى طبقتنا الاجتماعية التي تمثل أكثر من تسعين بالمائة من الشعب البعاريري العظيم وهو رقم شبه مؤكد، طالما أن الحكومة نفسها لاتعلن مثل هذه الأرقام، وهذه الصفات هي صفات غير واقعية بالمرة، فاللصوص لايمنحهم الله المكانة، وباعة المخدرات لايمكنهم أن يكونوا جزءا طبيعيا من نسيج المجتمع بسهولة، يمكن للمجتمع أن يغفر لهم بناء على أموالهم، لكنه لن يغفر لهم أنهم تناسوه في المواسم ولم يمنحوه من الهدايا الملوثة مايسد به

أفواههم، والهدايا أمر معترف به على رقعة الشطرنج، والهدايا الوحيدة المسموح بها حين يصل جندي للصف السادس في الرقعة ويتم ترقيته ليكون وزيرا، وهذا يحدث كثيرا في الحياة أيضا، فكثير من الجنود أصبحوا رؤساء، وهو أمر طبيعي، وهم ينسون تمامًا ماكانوا عليه فيصبحون ذوي قدرات خارقة في الحركة على الرقعة لم تكن موجودة من قبل، إنهم يتوغلون في قدراتهم الجديدة وتسقط من ذاكرتهم تمامًا كل عقائدهم وانتماءاتهم السابقة، ولعل نابليون وهتلر وموسوليني وعبد الناصر والسادات ومبارك خير نموذج على هذا الأمر، لقد اخترقت عقيدة الشطرنج بصرامتها التاريخية وجليديتها المعروفة عنها كل مارسخ في عقيدة البشر مزيحة لكل شيء وملوثة كل شئ.!

(٨)

أعود لأخي شريف فقد منحه الله وسامة وجمالا وجسدا رياضيا، وعيونا زرقاء وشعرا جميلا دائما مايقوم بتلميعه بدهانات محددة أفهم منه أنه يشتريها من الخارج بالشئ الفلاني، وهو لايتورع عن ارتداء الملابس اللامعة، التي تجذب العين مباشرة، وهو لايتحدث كثيرا، إنه يفكر طويلا وبعناية في كل كلمة سيخرجها من فمه، مثلما يفعل تمامًا قبل أن يخرج أي جونـد من جيبه الشريفة، وهو يسير بسيارته دائما في يمين الطريق، هادئ تمامًا، هدوء اكتسبه من اللصوص والدجالين، لايمكن أن يعير أحد أذنه أو عينيه إلا إذا كان متأكدا من مصير تلك النظره أو الكلمة

التي سيسمعها، بخيل في الكلمات كما هو بخيل في الحياة، وربما لذلك هو مأمور ضرائب ناجح بشهادة أصدقاءه من اللصوص، وهو يعتقد أنني أيضا لص لأني لاأدفع ضرائبي للدولة، وقد تفكرت مليا في الأمر وتساءلت مرارًا عن ماهية هذه الضرائب التي يجب أن أدفعها لكنه لم يلقي بالا أبدا لسؤالي، وهو بذلك يدافع عن وجوده في نظري، فهو جابي حقيقي لأموال الدولة لكنها غالبا ماتستقر في قاع جيبه الطويل، الطويل للغاية كسرداب سحري لاينتهي، أعتقد أن هذه المواصفات كافية لنفهم كيف تسلل لمجتمع كانتوني متحوصل في داخل (قاف) وأصبح جزءا منه هو الآخر إذ لا أراه في بين السرايات إلا لماما، غالبا مايأتي من الزمالك أو المهندسين أو طيبة الجديدة، أو تلك المدن الجديدة التي تم بناؤها على أطراف (قاف)، أما أخي الأخير رمضان فهو سائق تاكسي لايمتلكه، سائق تاكسي.. نعم.. أو هكذا كان يعمل، أو هكذا يدعي، أو أدعي أنا، ولأني مصاب ببعض داء العظمة المختلطة بنرجسية مفرطة أحيانا والتي تصيب الأدباء حين يكتبون روايات، بحكم أن حركتي الأولى كانت على الرقعة بدافع قدري هو كتابة رواية، فإنني يجب أن أكون أكثر صراحة، إنه يعمل على ميكروباص قديم، وأحيانا.. لاداعي، لابد من الصراحة أليس كذلك، فليكن.. ديك أم الصراحة.. م الآخر يعمل على "توك توك"، ها ها قلتها أخيرا، وحين أراه غالبا ماكنت أتخيل فيلا يركب ذبابة، ها ها، فليكن، دماغه كبيرة – يمكنك القول بأنها لحمة

رأس، وهي دماغ "ساقعة"[٧] فعلا وليس تمثيلا، وأعتقد أنه لايفكر على الإطلاق، وهو تكوين بيولوجي قديم بعض الشئ لأصل البعارير، كأنني أقف أمام ذاتي أحيانا ولكن منذ مئة ألف عام تقريبا، وهو بكرش ولا يفهم (خلقة ربنا)، حواجب ثقيلة ورأس كبيرة صلعاء وحمراء في ذات الوقت، يأكل كثيرا وينام كثيرا وليس معنيا بأشياء أخرى في الحياة كأن الله خلق الهم لأناس دون أناس، لم يهتم رمضان بالدراسة منذ صغره (قال يعني أنا الذي اهتميت)، عمل في أشياء كثيرة وتركها جميعا بعد شهور أو أسابيع، أحيانا مارأيته تاركا لحيته ويرتدي جلبابا قصيرا مدعيا أنه ينتمي الآن "للسلفيين"، وأحيانا ما أراه تاركا لحية خفيفة وشاربا خفيفا على وجهه مدعيا أنه انضم "للاخوان"، وأحيانا تاركا حالقا للحيته ومرتديا لجلباب طويل مدعيا أنه أصبح مريدا في أحد الطرق الصوفية، وهو لايكف عن ذلك على اعتبار أن الحياة أحيانا لاتمنحه مايمكنه من الحياه ذاتها، فيذهب إلى هذه الطوائف ليجد لديها مايسد به رمقه، وربما مايمكنه من النوم، والزواج، تزوج أخي رمضان عدة مرات دون أن ينجب أطفالا، تزوج مرة بكلمة دون أن يدفع شيئا لزوجته، وتزوج بعقد غير مكتوب عدة

(٧) يستخدم لفظ "ساقع" في عامية أهل طيبة بمعنى بارد، ويقال راجل ساقع بمعنى رجل بارد يتدخل فيما لايعنيه، أو لايهتم بالأمر قدر كفايته، وكل هذا كلام قديم، أما الجديد فهو استخدام اللفظ بربطه بالرأس فيقال "دماغ ساقعه" مما يعني أن صاحبها غير مهتم، وهناك بديل لها يقال له "مكبر الجمجمة" بنفس المعنى أيضا، وتقول المرأة لرجل "بلاش سقاعة" يعني بلاش خفة دم ورذالة، وإن كانت تقصد أحيانا عكس ذلك.. والله أعلم!

مرات، وأخيرا تزوج زوجة أحد رفاقه في أحد الجماعات التي كان ينضم إليها بعد أن طلقها الأخير، كانت تشبهه كثيرا، يعيش معها، ترتدي النقاب دون سبب محدد، لكنها كانت قد ورثت تلك العادة بعد زواجها من صديقه، أراهما أحيانا وهما يسيران في الطريق، أسمع ضحكته تأتيني من بعيد فأعرف أنه سعيد، سعيد للغاية، أما حين يكون تعيسا فهو لايبارح المقهى، ورغم الضحكات التي كنت أسمعها على المقهى، كنت أرى تلك التعاسة لاتغادر العيون الفرعونية القديمة، يدعي أخي أحيانا أنه سائق، لكني متأكد أنه لايمكنه قيادة دراجة بثلاث عجلات، ومع ذلك كثيرا مارأيته يقود تاكسيات مختلفة، لكن حين أدرك أصحاب التاكسيات والعربات الميكروباص مهاراته الخفية وتحققوا من إمكاناته الضخمة في النهاية، هاها الإمكانات الخلفية والعلوية، سمحوا له بقيادة سيارة ميكروباص قديمة في الشوارع الخلفية في بولاق وفيصل، ثم نتيجة للتطور التاريخي العظيم في طيبة، اصبح الآن يقود "توك توك" صيني معتبر، بعيدا عن أعين رجال الشرطة، والشرطة لا وجود لها على رقعة الشطرنج، السر الذي حاولت اكتشافه مرات ومرات، من الذي اخترع هذه الفصيلة من البيادق في الحياة الحقيقية، ربما بالفعل تكون موجودة، إذ أنني ألمح أحيانا بعض الحشرات الصغيرة التي تسير أو تطير بين صفوف البيادق، ربما تكون هي، وأن الذي اخترعها أراد رقابة من نوع ما، لكن قدراتها في واقع الأمر أكبر بكثير من حجمها، لقد بحثت كثيرًا على الشبكة العنكبوتية، لكني لم أهتد لواقعة

محددة، سوى أنها فصيل ارتبط به حفظ الأمن والنظام، على الرقعة تحدد شروط اللعب الأمن والنظام، الشروط هي التزام صارم، من قبل الأقدار التي تحكم الرقعة، إذا سقطت هذه الشروط تتحول الرقعة إلى فوضى، مثل تلك الفوضى في هذه الأزقة، حيث تكثر الحوادث التي لارقيب عليها، ويمكن التخلص منها دون تكاليف وببعض الصياح والمهادنة ودعوات النساء العجائز والمطيباتيه من سائقي الميكروباصات الآخرين، إنه جانب آخر للحياة في المدينة، المدينة التي نتمسح في أذيالها الآن بفعل الزحمة..

زحمة..

زحمة ياقاف زحماة..

(٩)

عندها حق الثورة حين قامت، ليتنا أبقينا على الاشتراكية والإصلاح الزراعى ومجانية التعليم، لاتصلح الرأسمالية للدول الكبيرة، أو لاتصلح للموظفين الحكوميين الجدد الذين دفعت بهم الثورة للأمام بعد أن تباطأت هي كثيرا في الخلف، ترك هؤلاء الثورة خلفهم بملايين السنوات الضوئية، أصبحت الاشتراكية سبة، الغريب أن الصين هي الدولة الوحيدة التي مازالت مصرة عليها، أعتقد أنها على حق، لكنها وهو الغريب أطلقت الصينيين والصينيات في شوارع (قاف) وحواريها، يبدو أن الاشتراكية الآن ان تشاركنا الصين في كل شيء، أقابلهم دائما هناك، لا أفهم كيف

دخلوا (قاف) من خلف ظهري، كل شيء تم من خلف ظهري، كأنني لم أكن موجودا، شبح أو كلب بلا لون محدد يسير في هذه الشوارع دون أن يدرك ما يحدث، هناك من قال بأن الاشتراكية لاتصلح لنا.. من الآخر، لاتصلح.. تباً لعبد الناصر، ما الذي دفعه للقيام بالثورة، أدركت الآن بأن كل الدوافع كانت واهية حتى حينما اختارت حبيبتي أن تتركني كانت دوافعها واهية، لم يكن هناك سبب محدد، ربما أدركت أنني سأنفصل عن العالم بعد أن تتركني، أنفصل لعشرين عاما ويزيد، أنفصل لأجد نفسي مقطوعا تمامًا، الحبلان اللذان يربطاني بعالم الملائكة هما "أمونة" وابنتها "نور" شريكتي الصغيرة على شبكة الإنترنت من جانب، وخليل الحارس من جانب آخر الذي كان ينام ويقوم على فكرة مشروع المطبعة الكبيرة ولايريد "الكسكسة " على الإطلاق، لم يعرف خليل التراجع؛ أما الحبال التي تربطني بعالم الشياطين فكثيرة، أرى أمونة وابنتها وخليل بالتحديد يقفون على أرض ميدان التحرير الممتلئ بفضلات العالم الجديد وأفكاره، على السور الحديدي في الميدان يقفون هناك يتسكعون، يتطلعون إلى بعضهم البعض ويمضغون الريح وحرارة الشمس والأصوات المختلطة والظلال الكثيفة المتقاطعة وموسيقى."سمر واين" بإبرتها الساقطة دوما على مخي و"زحمة" التي تركض معي في شوارع "قاف" بلا رحمة أو أمل في سكينة، يتمزق صدري ولا أصرخ، عقلي يشت، ولا أسقط، أعوي كذئب عجوز فقد أسنانه ومخالبه حين يجوع ولايجد ضحيته فيذهب ليموت، تسقط مني الذكريات، تسقط وتمسح في

طريقها فضلات ميدان التحرير، الميدان الذي امتلأ يوما ما بالبهجة والموسيقى، يوما ما، كيف دفع بي قانون القصور الذاتي إلى هذا المأزق، هاهاهاها (سمر واين)..

(سمر واااااااااااااااااااااين ياكلاب!)

سمر واين..

سمر واين

زحمة يابعارير

زحمة !!!!

(١٠)

يطاردني ظلي على أرصفة ميدان التحرير، لم يترك بلاطة أو قطعة صغيرة مشمسة على الأرض إلا وطاردني في بلاهة وترصد، يقلد حركاتي كطفل صغير، وحين أصل تمامًا إلى نقطة محددة أمام الأسد الرابع يختفي ظلي تمامًا، حين أشرب سيجارتي الشهيرة يشربها معي ونختفي معاً، يطلع لي من تحت الأرض حين أفوق، لكنه يختفي ويتلاشي حين أهم بإلقائه في حوض سياناید الفولاسيوم، أليس هذا ما يحدث معنا يوميا، نأكل نحن سياناید الفولاسيوم كل صباح ليختفي الظل رويدا رويدا، وحين نمتلئ بالضجر الصباحي، ضجر كائن لايمتلئ، ضجر كائن مثقوب الرأس، نلقي بظلالنا في هذا الحمض المركز لينتهي هو الآخر، لكنه سرعان مايعود أشد إيلامًا، ظل لا يسقط منه عرق ولايشعر بالحرارة ولا يتنفس، ولا حتى يصرخ "ياخلق هووووه"،

ظل بارد ينتمي للعصور الوسطى اللعينة البغي، ظل قاتل انتهازي لايمثل على الإطلاق الشخصية التي أحملها في شراييني، أردت مرات عديدة طعنه وقتله، لكنه كان يعود، ظل لواطي لايتورع عن الدخول في الظلال الأخرى، لايشبع من الجنس، لكنه لايبحث مثلي عن قطرات مطر، فهو عدمي لايهتم بالبيئة ولا المقدسات ولا حتى التافه من الكلام، إنه يدنس كل الأشياء، ظلي هو تاريخي الأسود اللعين، خلقت به وبه أموت، أعود وأتذكر ما أنا ذاهب إليه، آه..أمينة، أمينة ونورهان، يجب أن تكون حركتي على الرقعة منضبطة، دائما ما أشتت نفسي، أحاول لملمة هدفي الذي يضيع في تفاصيل شتى، هذه التفاصيل تطاردني، على الرقعة أركز في شيء واحد، الملك، الملك الذي أريد حمايته، والملك الذي أسعى لتدميره، الأمر ليس سهلا على الإطلاق أن يكون لك هدفان، كل هدف منهما أشد وطأة من الثاني، وعلي أن أختار دائما، أصعد السلالم سريعا، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساء ولم يكن هناك مايكدر صفوي سوى تلك الرائحة الثقيلة التي علي أن أتشممها رغما عني – رائحة الكلّة أفضل منها – وذلك الضوء الخفيف الأصفر الذي يشبه البقع المتناثرة في جوف السلم الضيق، حين توقفت ليعبر رجل وامرأة، هكذا كنت أظن، إلى أن اكتشفت أنهما امرأتان، إحداهما متبرجة – هل هناك لفظ آخر لوصف ما هو سائد في المجتمع العجيب الذي سقطت فيه فجأة قادما من ثقب دودي أسود بعد أن عبرت العشرين عاما الماضية خلاله فلا أتذكر ما الذي حدث؟ – من المهم أن أشير إلى

أن لعبة الشطرنج لعبة ذكورية تمامًا، لا وجود فيها لأنثى، وتحررا من ذلك قامت بعض المجتمعات الغربية، في تطوير للعبة بتحويل أشكال البيادق لأشكال أنثوية، ومسألة اللعب في الجينات مسألة في غاية الخطورة، ياسادة الشطرنج لعبة ذكورية محضة!

هل قلت متبرجة، هل استخدم الطيبيون هذا اللفظ من قبل، أم أن ذلك نتاج حركة التطهير العرقي القادمة من غابات البترول المتحجرة على الشاطئ الآخر للبحر، ليته لم يكن موجودا!. ترتدي بنطلونا من الجينز وبلوزة بيضاء مفتوحة من الصدر، حاولت التحقق من منبت الصدر لم يسعفني الضوء الأصفر القبيح المتقيح، لقد بدأت إذن أغش في اللعبة، فمحاولتى للتلصص، ستطلب مني أن أبدأ اللعب من جديد، الشرف أول مبادئ لعبة الشطرنج وآخرها، الشرف!. المهم كان الصدر مختفيًا تمامًا كأنها تملك طاقيتين داخليتين للإخفاء، شعرها القصير المعقوص ذو اللون الأصفر النحاسي، وهو اللون الشائع الآن لشعر نساء العاصمة الرابعة، خلفها إمرأة منقبة سوداء تمامًا لاأكاد أتبين ملامحها، فقط كفيها السمينتين المخضبتين بالحناء، خصوصًا أصابع اليد التي تتحرك في الهواء كثعابين آسيوية، رائحتها الشرقية التي تزكم أنفي، كنت أسمع الضحكات، اللهجة البترولية المتصنعة لم يعد يمكن إدراكها بسهولة، لكن الملامح، تلك الملامح لا يمكن أن تغيب عني، أدركت فجأة أن أهل طيبة ذوي ملامح متشابهة، لانختلف في ذلك عن الصينيين ولا البتروليين ولا الجنوبيين ولا الإيرلنديين، هناك تشابهات عضوية وتشوهات

تاريخية تركتنا ذوي خلقة واحدة، السؤال الذي قفز في عقلي كضفدعة، ما الذي تفعله امرأة بترولية هنا، والاجابة الوحيدة المحتملة كانت نوعا من الجحود بالطبع! كنت قد وصلت أمام باب شقة أختي حين توقفت أسئلتي وتوقفت خطواتي ليطل رأسي من أعلاه، نظراتي المعلقة عبر السلم تتفرس في المرأتين علني أشاهد شيئا من صدر المرأة الصغيرة، وانتبهت في النهاية إلى أن صدر البنت كان ضامرا بما فيه الكفاية، ابتسمت في خبث وأنا أتذكر أن آخر صورة في البلاي بوي كانت لامرأة ذات صدر صغير أيضًا، مهتم أنا بمسألة الصدور هذه، كاهتمامي بالفراخ تمامًا، كلها أنواع نادرة لايمكن اللقاء معها بسهولة الآن لمن يعيش مثلي!.

سمر واين.. سمر واين حقيقي!

(١١)

حين فتحت الدكتورة أمينة الباب كانت ترتدي البالطو الأبيض لاحظت فورا عينيها الحمراوين، لم يكن مكتوب أبدا في أي لعبة للشطرنج أن تكون عينا أي بيدق حمراوين، فهو بلا عينين أصلا، لأن الأساس فيها أن يقوم القدر بالتحريك، والبيدق خال تمامًا من الأحاسيس، كانت البيادق في العصر المعلوماتي قد تم منحها مجموعة من الأحاسيس لم يكن معترفا بها من قبل صاحب اللعبة الأصلي، أدركت أن شبيه ممثل السينما القديم قد مارس معها إحدى ألاعيبه الجديدة، ابن الوسخة لن نتخلص منه أبدا، قفزت نورهان نحوي ابتسمت لها، وحملتها من على الأرض، وأخذت

أمينة تحت كتفي، وقمنا بالمسير نحو الداخل، نحو ظلام الحجرة الداخلية، كان صوت نحيب أمينة الخافت مختلطا بضحك نورهان وهي تركض نحوي تهتز معهما ضفيرتيها الصغيريتان المجعدتان اللتان تحددان ملامحها الطيبية الأصيلة، أمينة ونورهان هما الأثران الباقيان من الحضارة الإنسانية التي أعرفها جيدا من الحياة، واجهتهما في الصالة، فيما كانت تنقشع من نافوخي صور ما حدث على السلم الضيق، وبرزت صورة المدعي الشاذ سليل "ممثل السينما القديم"..

سمر واين..

سمااااار واين..

سمار واين ياشواذ العالم الجديد! ..

الفصل الخامس

فصل المقال في طيبة

إن طلب ميغان هو طلب مشروع بالطبع في ظل أنها قادمة لدولة لايعرف العالم المتحضر شيئا تقريبا عنها الآن، إلا من خلال باعة الآثار ولاعبى الكرة ورجال أعمال يقومون بتهريب الحبوب الزرقاء السحرية أو بيع الأراضي وبناء المدن الجديدة والملاهي أو شراء وبيع شركات القطاع العام دون اعتراض من أهل طيبة، وإن اعترض بعضهم فإن هذا الاعتراض يقابل ببعض الكلمات التي لا معنى لها مثل " دعهم يتسلون"، أو باستيراد التكاتك التي تمثل حلا سحريا للشعب الطيبي المتلهف للتنقل بين الأزقة والحواري راكبا تلك الأعجوبة الهندية والتي نافستها أيضًا تكاتك الأعجوبة الصينية، ليتحول الطيبيون من ركوب الحمير والبغال إلى التكاتك الصفراء التي تأخذ شكل السلحفاة وتركض فى الشوارع مثل ابن عرس، ذات عجلات ثلاث مفرحة خصوصًا للأطفال، وقد اشتق الطيبيون من "التُكتُك" الفعل "تَكْتَك" بمعنى ركب "التكتك"، وأيضا بمعنى خطط اشتقاقا من "التكتيك"، ويقال "رجل متكتك" أي ذكي وحويط وهو أيضًا يحتمل العديد من التأويلات وفقا لحال المتكلم، فإذا كان يضحك فهو يعني أن الذي

يقوم بالتكتكة هو كذاب ومريض بالخيال، وإذا كان جادا فهو يعني الحويط، إن أفعالهم اللغوية الملساء لايمكن البحث عن معناها في القواميس والمعاجم التي أخرجها العرب للعالم، بل لديهم قاموس غير معلن، دائما مايضيفون إليه جديدا، إذا جاز لي أن أدعي ذلك، وبالطبع فقد قرأت أيضًا كل التقارير الدولية التي تضع طيبة في قاع جداولها المتعلقة بالتنمية، كما أنها تقع أيضًا – وهو رأي مغاير – على قمة جداول التقارير المتعلقة بالفساد، هذه التقارير التي أدمنت قراءتها على الإنترنت في لحظات استيقاظي النادرة، الغريب أن تلك التقارير أيضًا اتهمت طيبة بأن عواصمها الفعلية الثلاث تعوم على بحيرة الفساد وأن كل المواطنين بشكل أو بآخر يمكنهم السباحة في هذه البحيرة، وهو أمر عجيب، وأن تلك العواصم تكتظ بالمخنثين والعبيد والأشباح وأصحاب اللحى التي تتحرك ولا ترى، وكذلك تمتلئ بتلك القطع الخشبية التي تتحرك في أرجاء العواصم الثلاث دون أدنى خوف، وهو دليل على مدى ما يتمتع به هؤلاء من حرية استثنائية عكسا لكل التقارير المربكة والمفبركة والمحيرة التي تتكلم عن الديكتاتورية المطلقة في طيبة، والغريب أن طيبة أشهر من النار على العلم في معرفة العالم بتاريخها القديم، أما الآن فهي دولة منسية، ولايكاد يتذكر أحد أنها تمتلك ثلاث عواصم وفي قول آخر أربع، ويصر البعض الآن على أن لها من العواصم خمس، وكل هذه العواصم تسمى (قاف)، ولايمكنني هنا التأكيد على ذلك، في اعتقادي – القريب من اعتقاد أخناتون قبل أن تأتيه البشارة – فإن أشهر تلك العواصم هي

العاصمة الجمهورية ولا أدري من أين لها هذا الاسم هل هو بديل مثلا لجبل "قاف"، هل هو حرف أول لثروة "قارون"، أم هو تصغير "للقسطنطينية"، أم لمدينة قديمة سميت "القاهرة" واندثرت مع الأيام مثلها مثل "قرطاجنة"، أم أنه ينتمي "لقابيل" على وجه التخصيص وليس لأحد آخر، أم أن هناك علاقة ما تربطه "بالقدس"، أم هو يمت بصلة "لقفة" التابع الشهير لعلي الزيبق، وما الداعي مثلا لأن يسمي فرانشيسكو هرنانديز دي كوردوبا أول مدينة يقابلها في المكسيك - إبان الفتوحات الأسبانية لأمريكا الجنوبية- باسم "القاهرة الكبرى"، ويسمي كل المعابد التي يقابلها بالمساجد، هل كان الأمر له علاقة ما "بقاف"؟، وربما لذلك أيضًا علاقة بالاسم السري لتلك الكنيسة التي تقع في قلب (قاف) والتي تسمى أيضًا (قاف) بين الذين يرتادونها سواء من الأقباط أو المسلمين، لايمكن الجزم بشيء من ذلك، ما أعلمه أن العاصمتين الباقيتين تركتا لها حرية القيادة، وهو شأن أغلب جمهوريات عالمنا السعيد، ما وصل لعلمي أيضًا أن العاصمة الجمهورية تمثل الدولة رسميا في المنظمات الدولية، كما أنها مقر الحكم، وإن كان يلاحظ أن القصور الملكية القديمة هي مقر الحكم وليس أماكن أخرى، وهو تناقض عجيب، إذ تعيش العاصمة الجمهورية على أنقاض وأرائك العاصمة الملكية القديمة التي انزوت إلى بعض الأحياء التي حافظت على طابعها الملكي في "قاف"، لكن لا أظن أن ذلك يلفت انتباه أحد، ولا أريد أن أستطرد أكثر من ذلك حتى لا تحدث مصيبة قد تأتي بما لايحمد عقباه من "المسكوت عن

اسمه"، وهو يسمى أيضًا في بعض الحضارات القديمة "الذي يملي" وأيضا باسم " الذي يتفوه"، ويمكن أن يتسمى أيضًا بأسماء حديثة "كالرئيس المؤمن" أو "السيد المطاع"، وذراع الله في الأرض، أو "المبارك" وأحيانا "المبروك"، أو "ولي النعم"، أو "كلكم الرئيس" أو "نافح المجد أو نافخه" " أو "البقرة المقدسة" سيان الأمر، وهي كلها مسميات واعدة تكشف عن تاريخ طويل متكرر، كما تحتاج إلى شروحات طويلة تعبر عن مدى احترامهم "للمسكوت عن اسمه" أو عن مدى مايسبغه عليهم من نعم، ومن ناحية أخرى تعبر عن مدى الجحود الذي يتمتعون به نحو "المسكوت عن اسمه المفوه".

أشك أحيانا في أنهم بالفعل يعيشون في جمهورية، بسبب القلاقل والنزاعات المستمرة سواء المتعلق منها بإثبات الملكية الفردية، أو تناثر أسماء الشوارع والمباني التي تعود للعصور الملكية، أو بسبب ظهور نزعات استقلالية لإنشاء جمهوريات مستقلة أشهرها جمهورية فرحات، وجمهورية سمير، وجمهورية والي، وهي جمهوريات متباينة الملامح، لم يكن لها أن تعيش طويلا، أو تنامي أحداث شغب ديني غير معلن، أو تهجمات على شخص "المسكوت عن اسمه" من قبل من تطلق عليهم أجهزة الأمن "الإخوان" أو "السلفيين" أو "الجهاد" أو "القاعدة" بعد حلول اسم أسامة بن لادن على لائحة الإعلام العالمي في بداية الألفية الثالثة، وهي كلها أسماء ظهرت على ساحة الحروب الطائفية الصغيرة التي نهشت عظم البلاد ونخاعها، ويقال أيضًا فيما يقال بأن العاصمة الجمهورية تستخدم سياسة القبضة الحديدية مع

هؤلاء المنشقين، كما تتناثر همسات بأن أغلب تلك الحروب أتت من بين فخذى ذلك الجهاز اللعين المسمى "أمن الدولة" والعياذ بالله، وعلى أن أستعذ بالله بمجرد ذكر اسمه، فالكثير من أبناء طيبة لايجرءون حتى على التلفظ به، وإنما لا يشيرون إليه على الإطلاق في أحاديثهم بأي شكل من الأشكال ولا أدري حقيقة ما وراء هذا الاسم، ربما تكشف لي الأيام عمن ورائه أو ماذا يفعل! ويتناولون في أحاديثهم أيضًا نزعة "المسكوت عن اسمه" في توريث الحكم لأحد أبنائه، ومسألة التوريث سمة شائعة أيضًا بين قيادات الشعب الطيبي، تبدأ من "المسكوت عن اسمه" ولاتنتهي حتى بين الأطباء من الأكاديميين أو القيادات الحكومية، ويسعى الشعب نفسه نحوها بشكل أو بآخر، وقلما يكون هناك مثيل لذلك لدى أي شعب في العالم، ويقول البعض بأن رغبة الشعب في تعيين أبنائهم في نفس أماكن عملهم هو من قبيل التمسح والتبرك بالعمل الحكومي، أو من قبيل الخوف من الفقر، على عكس مايقوم به "المسكوت عن اسمه المفوه" الذي امتلأت خزائنه بأموال أهل طيبة، يقال بأنه يلجأ للتوريث حتى يطمئن إلى استمرار الشعب على هذا النهج النادر، وربما في هذا السرد التاريخي على أن أقف على الحياد، منبها إلى أنني ككاتب لهذه الأحداث لايمكنني أن أرجح رأيا على آخر تاركا لكم أمر الحكم على المسألة!.

بقي أن أذكر أن العملة الرئيسية في طيبة هي (الجوند)، ويقال بأنه اسم مشتق من العملة الملكية الإنجليزية، ويقال أيضًا بأن الجوند كان ذا قيمة فيما مضى، إذ كان حميم الصلة بالبيض،

بيض الدجاج نعم، إذ كان يقاس بقدرته الشرائية لعدد كبير من بيضات الفراخ البلدي التي انقرضت الآن، ومع انقراض البيض انقرض الجوند، فهو لايساوي الآن أكثر من بيضة الدجاج الأبيض المسرطنة، بينما ارتفعت قيمة البيضة البلدى عظيمة التاريخ والنسب والمحتسب لتتعدى قيمة الجوند، هممم.. أصبح الجوند لايساوي شيئا من الآخر.

العاصمة الجمهورية لاتضم سوى موظفي الدولة الرسميين والمنتمين لها، وهؤلاء لايتجاوزون الثمانية ملايين موزعين على مقاعد ومكاتب على اتساع الدولة ويتركز في "قاف" منهم مليونان موظف، أما العاصمة الملكية فهي لاتضم أكثر من مليونين من السكان لايحبذون التعبير عن أنفسهم، وغالبا هم يعيشون بعيدا في أماكن منعزلة، أو يعيشون في أماكن انتماءاتهم القديمة في "قاف"، أو في أوروبا أغلب الأوقات، وهي قارة تهب الآن بعض البسكويت والأفكار الديمقراطية الحمقاء للقارات الفقيرة كتلك القارة التي يعيش فيها الطيبيون وغيرهم من العبيد القدامى بعد أن استعمرت أوروبا تلك القارات مئات السنين، وهو إحساس تاريخي مملح بالذنب، مما يدفعها لأن تهب بعض هذه الدول البسكويت الحلو على أساس أنه منتج رقيق يمكن أن يزيح بعض ألم سنوات الاستعمار، أما العاصمة الثالثة وأعني بها العاصمة "المجهولة" فهي الأكثر تعدادا بالسكان، حيث تتميز بتعدادين أحدهما صباحي والآخر مسائي، وتزيد عن الثلاثين مليونا تقريبا، ومع ذلك فليس لهم وجود يذكر، ولايعتقد بأن المستقبل يحمل لهم أي أخبار سعيدة

منذ ما قبل هيرودوت الأول وحتى وقتنا هذا، ربما لصفة وراثية كامنة فيهم، تدفعهم لهذه الحياة التي يعيشونها عن استمتاع، وهم في نفس الوقت سبب سعادة جميع سكان العواصم الأخرى بما يقدمونه من فن خاص بهم، أو لأنهم يصدرون المتعة للآخرين، ودعوني أقول يصدرون الحياة للآخرين ويستقبلون هم الموت عن طيب خاطر، وهذه مسألة تحتاج للتمحيص، ما أريد قوله أن هناك تعدادات أخرى لم يأت ذكرها في الأدلة التي تصدرها أجهزة التعداد الكائنة في العاصمة الجمهورية، منها مثلا عدد صور "المسكوت عنه المفوه"، فتبلغ ٤ أربعة ملايين صورة تمثله في وضع واحد ببدلته المخططة التي تحمل خطوطها اسم اسرته التي ينتمي إليها، ومليونان صورة تمثله بالقميص الأبيض الملائكي كدليل على شفافيته الكاملة غير المنقوصة، ومليونان أخرى تمثله بالقميص الأخضر تيمنا بالشيوخ وتوابعهم وتقربا من سكان العواصم الثلاث وهو بالطبع لزوم الشيء، ومليونان أخرى بالتي شيرت لزوم الشيء أيضا، وهذا الشيء هو الارتفاع بقيمة الرياضة المهمة جدا لحياة الشعب الذي يتمتع كثيرا بكرة القدم وهو جالس يدخن ويلقي بالنكات البذيئة التي يتناول بعضها "المسكوت عنه" شخصيا لكن كما أشرت في البدء لا أحد يفعل ذلك جهارا، والبعض ممن يفعل ذلك هم من أتباع الشرطة للتعرف على وجهة نظر الشارع في "المسكوت عن اسمه المفوه" إذن التي شيرت أيضًا لزوم الشيء، وبعض الصور بالأبيض والأسود لتاريخه القديم الذي تتناوله الصحافة كل شهر فى

مناسبات يتم اختراعها خصيصا لهذا الغرض، والكثير من الصحفيين القوميين في قاف مخترعون عظام للأفكار النبيهة جدا التي يقدمونها للشعب، والمتعلقة بكبرياء وفخر "المسكوت عن اسمه المفوه"، والحزب العظيم الذي يترأسه، وأعتقد جازما أنهم يستحقون الآن أن توضع أسماؤهم في موسوعة عظيمة تسمى موسوعة جينيس، على أساس أنهم يمكنهم الكلام أكثر من أي صحافيين آخرين في العالم، كما أن "المسكوت عن اسمه المفوه" يمتلك إحصاءات فلكية أشرت إليها ولا يعتقد بأن التاريخ قد سجل مثلها من قبل، والطيبيون على مختلف انتماءاتهم بارعون في هذه المسألة، ويبدو أنهم ورثوا كل شيء عن أجدادهم حتى أكل الكوارع، وهي أكلة محببة لهم تصنع من حوافر الجاموس والبقر- حيث تباع برخص التراب، أو يلقى بها القصابون- لكنها تحتاج لكثير من التنظيف، لايكاد يخلو بيت طيبي من هذه الأكلة الشهيرة لادعاءات جنسية تتعلق بالقدرة التي تمنحها الكوارع لهم، وهو أمر مشكوك فيه برمته، حيث لاحظت أن كثيرا منهم ينام بعد أكل الكوارع، ومع ذلك فنساؤهم بارعات للغاية في إعدادها، وأكثر براعة من رجال طيبة نفسها في أكلها، لا أدري إن كان للجينات دخل في المسألة، وهي تشبه طبقا من المرق تظهر منه قطع من الهلام الأبيض الذي يستثير شهيتهم، وقد تؤكل أيضًا بجانب الفتة، وقد اشتكى أمام ناظري كثير من الرجال بأن نساءهن يهاجمنهن بعد أن يأكلن الكوارع، وهو أمر قد يتطلب مني بحثا مستقلا حين أخلو لنفسي بعض الوقت، الأغرب أن هناك

بعض الإحصائيات التي لا يشار إليها من قريب أو بعيد لكن يعرفها سائقو التاكسي والحلاقون وأصحاب الحوانيت والصيدليات يمكنك أن تسمعها وهم يتناوبون على حكيها بضحكات نابعة من قلوبهم لكنها معبأة بسعالهم الضاحك من أثر تدخين السجائر المحلية المغشوشة والتبغ الجاف، منها مثلا أن عدد الواقيات الذكرية بها يتجاوز ١٨٠ مليون واقي ذكري كمخزون استراتيجي للعاصمة الجمهورية، وهي بدورها تطالب العاصمة الثانية "العاصمة المجهولة" بالحد من التكاثر، والغريب أن السكان لايعترفون باستخدامها غالبا، حيث يتهامس بعض الحمقى بأن أغلب الطيبيين مصابون بسرعة قذف -ويفسر الأطباء ذلك بأن أهل طيبة غالبا مايمتهنون أكثر من مهنة بسبب رغباتهم في حياة أفضل لاتتحقق غالبا، بينما يقول الأطباء المقربون "للمسكوت عن اسمه المفوه" بأن سبب ذلك هو تسرعهم في الفعل وبأن عليهم الذهاب إلى جزر هاواي ليقوموا بذلك هناك، وتشجع بعض الصحف الحكومية ذلك من خلال إعلانات المدن الجديدة في شرم الشيخ وبورتو السخنة والساحل الشمالي أو "مارينا" تحديدا، وتأتي التساؤلات من تلك الصحف نفسها من خلال أسئلة من نوع لماذا لايذهب الطيبيون إلى هناك، بينما صحف المعارضة التي تملكها الحكومة أيضا تقول بأن الطيبيين يحاولون التسلل لتلك الأماكن للعمل فيها لكن الأمن يقف لهم بالمرصاد، حتى يمكن للسياح الحياة في هدوء، وحتى لاتؤذى عيونهم الزرقاء الجميلة بمرأى هؤلاء الرعاع، إذن سرعة القذف لم تنفع معها حتى الحبات

الزرقاء السحرية التي تملك منها العاصمة الجمهورية ٥٠ مليار حبة، وفي قول آخر ٥٥ مليار حبة، وهو ما لا يتوافر لأي دولة عضو في الأمم المتحدة، منها ما لايقل عن ٤٠ مليار حبة أتت عن طريق التهريب في الحاويات والكونتينيرات الضخمة في موانئ طيبة المعروفة، ويتم تهريبها تحت أسماء وهمية، ولصالح أعضاء في مجالس التجمع الوطني للشيوخ والشباب، أو لرجال أعمال وهو اللفظ الرقيق الذي يعد تجديدا رائعا للفظ القديم "التجار"، حيث امتنع عن استخدامه الآن لما فيه من إهانة بالغة على اعتبار أن أغلب هؤلاء يعملون الآن بإدارة البيزنس وبالسياسة، وحتى بالجنس، أي حسبما يقول البريطانيون" السياسة هي كل شيء عن الجنس "، وعلى ذكر السياسة، يلاحظ أن بعض رجال وقادة الحكومة الجمهورية تتملكهم رغبة هائلة في العودة إلى الملكية دون إعلان صريح عن ذلك فعلى سبيل المثال انتقل لفظ الباشا من العاصمة الملكية لأبناء العاصمة الجمهورية من رجال السلطة، ومن الشائع أن ينادى العاملون أو صغار الموظفين أو بعض أبناء الفقراء من هو أعلى منهم مقاما بهذا اللفظ الذي يعود للعصر الملكي الذي كان يحكم فيه أحفاد الأتراك طيبة، وهو أمر غريب آخر لايعني بالنسبة لي سوى أن هناك رغبة كامنة داخل نفوس الجمهوريين في التحول للملكية، أعود للحبوب الزرقاء فقد استطاعت بعض الشركات المحلية استنساخ الحبة الزرقاء المسماة "فياجرا" تحت أسماء شبيهة ولكني بعد تجربة بنفسي لها اكتشفت أنها رديئة وتصلح للمواطن المتوسط، أو

ماتحت المتوسط، مثلها مثل امتحانات الثانوية العامة، وهي مسألة يمكنها أن تطيح بوزير التعليم كل عام، فلم أر بلدا في حياتي لديه مثل هذه الأزمة في التعليم كما في طيبة، حيث تعاني كافة الأسر الطيبية كل عام من كابوس تعليمي ليس له حل على مدى أكثر من أربعين عاما، وبالذات بعد قيام الجمهورية بسنوات قليلة، وصدور صيحات متعلقة بالمساواة في التعليم، مما يؤدى إلى شلل كامل للدولة في مثل هذا الوقت من كل سنة، ولايمكنني القول بالسبب الحقيقي للمشكلة، لأن سلوك أهل طيبة غامض في هذه المسألة، وإن كنت أعزى ذلك لجينات قديمة ارتبطت لديهم بالخوف من المستقبل، ربما منحها لهم أجدادهم القدماء بسبب صراعهم المريض مع حكامهم، أعود لمسألة التكاثر، فعلى الرغم من أن القانون في طيبة يحدد الإنجاب لكل زوجين بطفلين فإن ذلك قلما يحدث تحت دعاوي دينية لايمكن للقانون أن يصمد أمامها، وهناك أسباب أخرى متعلقة بصراعات قائمة وداخلية بين جماعات سياسية مختلفة تحاول استمالة أصوات الناخبين من خلال دعوتهم لمزيد من الإنجاب، وقد أعلنت العاصمة الجمهورية فشلها في مكافحة الأمر ضمنيا، حيث أشارت أحد الصحف ذات يوم إلى أن عدد لقطاء الشوارع يتعدى المليونين من الأطفال، يمكنك أن تقابل بعضهم من خلف زجاج سيارتك كل صباح ومساء، وقد حاولت كثيرا التودد إليهم لمعرفة أسباب وجودهم في الشوارع، لكنهم كانوا يختفون سريعا بعد أن ألقي بجوند مسكين في أيدي أحدهم وسط الأيادي الصغيرة المتلاحقة الممتدة نحوي كباقة ورود قادمة من جهنم!.

بيوت أهل طيبة في العاصمة "المجهولة" وفي بعض أجزاء العاصمة الجمهورية لاتختلف كثيرا عن مظهرهم، فبيوتهم بنيت من الآجر الأحمر الكالح، وهو شيء غريب، إذ يجرفون الطين الأسود للأراضي الزراعية ويقومون بحرقه لبناء منازل فقيرة متربة، لم أجد لها شبيها في العالم، وهم ربما يعشقون البناء بها لأن اسم بلدهم - طيبة- قد يكون اشتق منها وهو قول مثار، في الستينيات ومابعدها غالبا ما كانوا يرسمون بألوان جيرية على الجدران وحول الأبواب من الخارج صورا لإبل ثم في السبعينيات بدأت تظهر صور سفن وبواخر وفي نهاية السبعينيات وحتى الآن يتفنن النقاشون في رسم صور طائرات وهي تلك الركوبات التي استخدموها للحج مما يعني أن صاحب المنزل أو صاحبته تستحق لقب حاج أو حاجه وهو تراث أصيل لديهم لايعني سوى أنهم يتقربون إلى الله بكل الوسائل كما كان يفعل أجدادهم على نفس الجدران منذ بداية التاريخ، يتوقع في الألفية القادمة أن يذهبوا للحج بالصواريخ النفاثة ولكنهم لن يتخلوا عن ارتداء تلك الجلابيب كدليل على انتمائهم الشديد للعصر الزراعي الرحيب المعبود بلا هواده، ولا بد من بعض العبارات على تلك البيوت التي تهنئ كل حاج بالسلامة، كأنها إعلان مدفوع الأجر للحاج أو الحاجة، وهو تشدد ديني مظهري يعبر عن سعادتهم بالحج، ولكنه لايعبر على الإطلاق عن شخصياتهم الحقيقية الكامنة وراء الحج، وهذه طرفة أخرى تحتاج لشرح طويل، أما عن مظهرهم فلايمكنك تحديد ملبس محدد لهم الآن، لكن إذا كنت صاحب عين مدربة على انتزاع التفاصيل

الطيبية الدقيقة، ستجد نساءهم يرتدين الحجاب، وهو مظهر ليس له علاقة بالدين، وإنما هي موضة أتتهم من بعض الدول النفطية الثرية القريبة منهم، ولبعض أهل طيبة تفسير غريب في ذلك، إن تحجيبهم سيجعل الله يرضى عنهم، وبالتالي فإنهم سيحصلون على نفس الجاز الذي تحصل عليه تلك الدول البترولية ومن ثم سيصبحون أغنياء مثلهم، ورغم مرور أكثر من سبعين عاما على تلك الفكرة، فإنها لم تتحقق، ويفسر بعض رجال الدين ذلك بأن أهل طيبة غير مخلصين في إيمانهم، وبالتالي فإن الله لايمنح عطيته سوى للمخلصين، لكنهم لم يفكروا في الأمر بشكل آخر، لم يسألوا أنفسهم أبدا عن مدى إخلاص سكان دول الجاز، وبجانب الحجاب ستجد البنات يرتدين الجينز والملابس العلوية القصيرة المزركشة، وهي غالبا ضيقة، تبرز نصفهم الأعلى بشكل غير جيد، ويبدو أنهم لايتمتعون الآن بنفس الأثداء الجميلة التي كانت تتمتع بها جداتهن لذلك يسعين لإخفاء عيوبها بكل الطرق مع ارتداء حمالات صدر ضيقة تبرز الأثداء ولكن غالبا على نحو قبيح، أما النساء فيرتدين جلابيب من قماش له رائحة النفط، ونسوا أنهم ينتمون لأهم دولة في العالم تصدر القطن، وأن جداتهن كن يرتدين الكتان لمجابهة حر الصيف الطويل، ولايرتدين غالبا حمالات صدر، فتبدو أثدائهن ضخمة على نحو هائل، وهم سمان بوجه عام، وجوههن مكتئبة غالبا لايضحكن سوى على أنفسهن، حين تسير امرأة منهم وبجانبها ابنتها فإنها تبحث لها عن عريس، ومن ثم تمارس قدرتها الغريبة على فرز هؤلاء المتنطعين من الشباب، وحين تسير بجانب ابنها فهي تواجه

العالم برجولته التي تلتحم مع أمومتها لتشكل مجموعة من المناضلين أمام جموع المتمردين من ضعفاء العقول، أما رجالهم فهم يرتدون تلك البزات الصيفية النصف كم ذات اللون الواحد المقبض غالبا، ويرتدون ساعات غالبا مايحوطها صدأ زرنيخي اللون ناتج عن العرق والزحام وأتربة الشوارع، لكن من سماتهم الواضحة عدم اهتمامهم المطلق بالوقت، فهو في نظرهم لايعني شيئا، ولاطائل من ورائه، حيث إنهم لايفعلون به شيئا غالبا، لافائدة من الوقت إن ولد ميتا، إياك أيضًا أن تعطي موعدا محددا لطيبي، فغالبا لن يأتي في موعده وسيختلق لك مئات الأعذار إن أتى، لاتلومن إلا نفسك في تلك الحالة، وهم يفضلون أن يقضوا الصباح على المقاهي، والمساء أمام شاشات التليفزيون يشاهدون مباريات كرة القدم، وهم بارعون في تحليلاتهم الرياضية والسياسية، بارعون في الكلام أيضًا عن النساء شأنهم شأننا كمؤرخين، وعلى ذكر النساء فيعيش بين أهل طيبة أكثر من ثمانية ٨ ملايين امرأة بين مطلقة وأرملة، وبالتالي فهناك مساحة كبيرة للحب والمجون لاتتيحها الزوجات غير المحرومات، وسآتي على ذكرهن في مكان آخر.

الفصل السادس

بعض الروايات التي لابد منها لتجنب المعصية

(١)

لايمكنك أن تكسب معركة شطرنج دون شعب من البيادق، ومع ذلك فيمكنك التخلص من الشعب بسهولة إذا كنت تملك مفتاحا محددا للانتصار، المشكلة أن الأغبياء يتصورون أنهم يمكنهم التخلص من الشعب بسهولة دون أن يملكوا يقينا واحدا على الانتصار .

كيف يمكن التعامل مع هذا المجتمع الجديد، تراودني أحيانا بعض النزهات التي تأثرت بأفكار تقدمية راديكالية، على سبيل المثال يمكنني تعاطي بعض الكلّة صباحا، حيث يمكنني أن أنسى مايحدث، أو (حجرين حشيش عالصبح هايبقى كويس) المشكلة أنه لاتتوافر لدي سيولة – بما معناه أنني لا أملك سيولة أصلاء ربما أملك سيولة جنسية (وهي لاتعد سيولة هنا بمعنى أن الكلاب حتى لاتنقصها تلك السيولة) لكني أملك في ذات الوقت فقر ذكر – لاتتوافر لدي سيولة كافية لذلك، وعلى هذا الأساس يمكن للكلة أن تكون حلا جاهزا ورخيصا، مما يدفعني للقول بأن الشعب أصبح يمتلك مشروبين وطنيين في غاية القوة والرسوخ، الكلة التي يتعاطاها مجموع البعارير من شباب الشغيلة في المهن التي لا

قيمة ولامبرر لوجودها والذين لايتحلون بوهم الحياة المنتظرة، والحشيش للنصف الآخر من البعارير الذين يتحلون بوهم الحياة المنتظرة، ويتساوى في ذلك فقراؤهم وأغنياؤهم، المشكلة الأكبر أنني لابد أن أكون صاحيا تمامًا لما يحدث في الشغل، فمدام منال تترصدني لله في لله، لقد راودت نفسي عدة مرات بأنه يمكنني أن أسد أنفي أو أستنشق بعض الكلة بالفعل وأغمض عيني وأنام معها، وأخلص المسألة، خصوصًا وقد لاحظت أنه ليس لديها مانع، وذلك من خلال أحد الأسئلة الخبيثة التي طرحتها عليها يوما أثناء جلسة صفاء، وهي جلسة نادرا ما تحدث لكنها في هذا اليوم وعلى غير العادة كانت تريد الكلام معي بأي شكل، أدركت وقتها أن كل خيالاتي السابقة السقيمة عنها لاتمت للحقيقة بصلة، لكن الأمر سيحتاج مجموعة من المناورات والمحاولات خصوصًا في ظل الحجاب المضروب على رأسها، ولاأدري أين شاهدته، فلم أر حجابا بهذا الشكل من قبل، كأنني أتطلع لقفة مصنوعة من الخيش وقد وضعت عليها بعض شرائح الخس والجرجير والكرنب وكل أنواع فصيلة النباتات ذات الأوراق العريضة وقد التفت حول رأس كان يمكنه التحول لرأس رجل ببعض التعديلات البسيطة، لكنها إرادة الله في اللحظات الأخيرة، كنت متأكدا تمامًا من أنها لن تمانع، فرائحة البارفان المتوهجة على غير العادة والقادمة منها، وابتساماتها المتكررة، وبعض الماكياج الذي حاولت به تجميل الصورة والذي أتى معي بنتيجة عكسية تمامًا، حتى حين تغمض عينيها وتتكئ بمرفقها الضخم على طاولة المكتب في

محاولة منها لاستمالتي دون جدوى، أو حين ترفع ذلك الحجاب قليلا للخلف لتؤكد على مدى نعومة شعرها وأنها قامت بتلوينه باللون النحاسي الجديد، حاولت، والمسيح الحي حاولت، لكن كان هناك ما يضغط على صدري فلم يترك لدي أملا في أي شيء، حتى حين تخيلت أنه يمكن لبيدقين من بيادق الشطرنج ممارسة الجنس وجدت أن ذلك مستحيل خصوصًا إذا كنت أنا البيدق الآخر، كانت صورة حبيبتي القديمة وصور فاتنات "البلاي بوي"، وصور حركات البيادق الأنثوية الأوروبية القادمة من عالم المعلومات، كان كل ذلك حائلا أسمنتيا أمام كل محاولاتها، حتى الرغبة في المحاولة أخذت تتراجع وتكش وتفش وتنكمش وتتضاءل حتى اختفت، كنت كمن يريد أن يفطر على بصلة فتوقفت البصلة في زوره، ونفضت الأمر أخيرا من دماغي، لقد أدركت أنني لايمكن أن أتحمل فكرة أن أكون أنا وهي في سرير واحد، أمتلئ بشفقة هائلة نحوها، ونحو عشرات الآلاف مثلها، لكني مدرك تمامًا بأن هناك آلافًا من الذكور ينتظرون في الظلام اللحظة التي سينقضون عليهن فيها، وبتكافؤ مذهل سيتم حل معضلة القبح!.

هذا الصباح، استدعتني لمرافقة السيدة الخبيرة الصينية التي أتت لإجراء بعض الفحوصات الجيولوجية على التربة الطينية في جبال (قاف) في إطار برنامج مساعدات مشبوه كالعادة وليس له علاقة مؤكدة بعملنا، فليس لدينا ما هو غير مشبوه ولم أكن أنا المنوط بالمسألة فهذه وظيفة الدكتور شاكر، وصديقي الدكتور

"شاكر" غائب دائما في مؤتمرات وهمية كالعادة، لم يثبت على مدار تاريخ طويل من حضوره لها أنها أثمرت شيئًا في تغيير واقع عملنا، ولكنه كان يستطيع دائما أن يقنع رؤساءنا بأن نتائج هذه المؤتمرات في غاية الأهمية لتغيير واقع الصناعة في طيبة كلها، خصوصًا صناعة الإسكان، وصناعة السيراميك التي هجرتها إيطاليا وأغلقت بسببها عشرات المصانع، وتمسكنا بها نحن بهدف أن يكون لكل مواطن في طيبة حظه من السرطان، ولأن لا أحد يدري ماذا يمكن أن يحدث، ولأنه كان من حقه الذهاب كان يذهب، وعادة كان يعود ببعض المخترعات الجنسية لنا من هناك، وبعض الهدايا التافهة كالعادة، فكانت ترضينا فلا نتأفف، بالعكس ننتظر سفرته ليحكي لنا على ما لايمكن أن نشاهده، كان إذن مطلوبا مني أن أحل محله في تلك الجولات كحشرة "حرامي حلة" لايعرف أين يذهب بمصيبته التي يحملها معه، فكنت أدور حول نفسي وأستسلم، ستضيع سيجارة الحشيش التي حصلت عليها بعد إلحاح من الحاج كمال إسطفانوس، أنا مجرد موظف متواضع، لكنها أمسكت بي كفأر منزل صغير وألقت بي إليها، لم أستطع الرفض أو حتى إصدار أي صوت ينم عن تأففي، كانت الخبيرة الصينية تتكلم بسرعة بالإنجليزية بلهجة صينية لم أفهم منها الكثير وأشك أحيانا معها أني أفهم حرفا واحدا من الإنجليزية فقد قتلنا التعليم الحكومي، أو الباقي منه، ركبنا السيارة وانطلقنا إلى جبال المعادي، حيث محاجر الرخام، كان الجو داخل السيارة مكيفا، نظر لي السائق في المرآة ومصمص

شفتيه، كنت أعلم تمامًا أنني لست على هواه، إنه يركب سيارة دبلوماسية حتى لو كان سائقا، وأنا مجرد موظف، موظف ياغجر، سمر واين ياحبيبي، زحمة ياروحي.. اهدأ ياصديقي السائق فلن أسرقها منك.. سمر واين ياصديقي سمر واين.. لايمكن لعسكري شطرنج أن يأكل عسكري آخر من نفس اللون، الشرط الوحيد أن تواجه عسكريا من اللون الآخر في ثاني حركة لك وأول حركة له فتأكله بالمرور، وحيث إنه لايمكنني أن آكل امرأة صينية، فقد كانت عقيدتي الراسخة أن المرأة الصينية كالبضائع الصينية تمامًا، لاتصلح إلا لمرة واحدة، ولم أكن فيما أعلم أن القدر يدخر لي مثل هذه التجربة.!

(٢)

في المساء عند راشد، أجده جالسا يحدق في الفراغ وهو منهمك في لف سيجارة الحشيش، فيما تتصاعد روائح الدخان الأزرق في أركان وسقف الغرفة التي يحاول شباكها التملص من وجوده فيها ككائن وحيد دائما مغلق، يرتدي راشد بنطلونه الجينز المتقيح، وسترة من القطيفة البني تحته قميص قطني أزرق اللون فكان يبدو في الضوء الخفيف الجالس فيه مثل أحد تماثيل بوذا، بوجهه الشاحب الذي ينعكس عليه اللون الأصفر للمصباح المعلق ككائن تم شنقه ولا أحد يهتم بوجوده، يبتسم حين يراني، تلك الابتسامة التي ينهل منها الجميع حين يريد الاعتذار عن خطأ ما، يشاور لي بيديه مرحبا، ليس هناك أحد سوانا، أجلس بجانبه،

منتظرا أن يفرغ من حديثه السريع الذي يتوجه به إلى أحد الأحياء المجهرية، حديث لا أفهم نصفه غالبا، قال له ذلك الدناصوري قبل أن يموت منذ عدة أعوام بعد فشل كلوي مزمن وعدم اهتمام من السلطة كالعادة، لكني كنت أقول مدعيا أن فهم نصف كلام راشد معجزة من معجزات العالم، "النشر يحتاج لكثير من النقود والسيولة، وليس لدي حلول جاهزة، روايتك في الدور ماتقلقش"، لم أشعر يوما ما بالقلق فسواء نشرت الرواية أم لم تنشر وسواء حققت منها ما أردته أم لا، وسواء كانت تعج بالموسيقى أم لا، فذلك ليس مهما، يدعي أحيانا أن روايتي حزينة، وأحيانا أخرى يقول بإنه سينشرها بسبب الأصدقاء المتخيلين الذين سيشترونها، وأحيانا بسبب شفقته من أن أطق وأموت دون أن تنشر لي كلمة، وأحيانا يقول أنه سينشرها وكفى، ودون سبب مفهوم، وأحيانا حين أختفي من أمامه أسمع سبابه وأنا على السلم بسبب وجع الدماغ الذي سببته له، لكنه لايكف عن الابتسام، هذه الابتسامات على وجه التحديد تجعلني أنسى كل الشتائم التي ودعني بها في المرة الأخيرة، ليس مهما السبب على أية حال، لقد حاولت قدر طاقتي أن أعبر عن عشرين عاما اختفت، اختفت فجأة دون منطق يجبرني على الرضوخ له، ودون حتى أن أدري أن هناك ماتم سرقته بسبب الفقر ربما، وربما لسبب آخر أحاول أن أدركه وسط صعوبة مفرطة من كثرة مايحوطنا جميعا من ظلام وأسلاك شائكة وقرارات دولة وسرقات وفساد رجال أعمال ولعنات دينية وصراخ قبطي وشبق كانتونات أرستقراطية في أماكن لايعلم أحد

عنها شيئا، أو في بعض الأماكن الفقيرة التي يعد دخولها سببا للهلاك فلا أطؤها إلا والخوف يعتصرني، إنه سبب لم أحاول اكتشافه طول الرواية، كنت أتحدث عن العشرين عاما، كأني الوحيد الذي حدث له ذلك وهو شيء غير حقيقي بالمرة، إنها معجزة من معجزات الشياطين في زمن تركته الآلهة خلفها، لن يضيف ذلك شيئا للقراء، كان علي أن أبحث عن حدث أكثر سخونة، لكني كنت أتعثر في كل صفحة، إنها مشكلة كل روائي حين يفرغ الهواء في صدره فيستلقي لايستطيع التنفس، إنها نفس حالة صديقنا الروائي العجوز علي الفضالي في هذه الليالي إنه يأتي فاقدا للهواء، ذكرنا القط، كان داخلا بعينيه المبتسمتين خلف نظارته البيضاء، يصرخ راشد عليه كأنه قابل ملاكا خرج من الجنة،

يافضالي!

يبتسم إذن الفضالي - ربما من كثرة البلابيع التي يزدردها كمسكنات أو منبهات- يجلس بعد السلام يتجول بعينيه، ثم ينهض ويختفي، بعد حوار قصير حول الإسكندرية التي أتى منها لتوه، كتب روايته الأخيرة "المبتسرون"، التي حصل بها على إحدى الجوائز، ضحكت طويلا على العنوان حين قرأته، كان ذلك واضحا تمامًا في سلوكي أردت أن أخبره.أنني أكثر خيبة من بطل روايته، لكنه على ما يبدو لن يقتنع فقد كانت روحه مترنحة هناك داخله، خرج وعاد يطلب مسكنا، إنه الروائي في أسوأ حالاته، يتطلع لي منتهكا صمتي، أعلم ما يدور في دماغه حين يراني،

لكن لايهم، فرأيي فيه لايختلف عن رأيه فيَ، لايهم، يكفي أن نتبادل بضعة كلمات طيبة وننهي الجلسة بسلام، لايوجد كاتب في طيبة يعتقد بأن الكاتب الآخر أفضل منه، كنت أراهم وأضحك، وأنا منهم، كأننا هبطنا من الجنة جميعا، مجموعة من الملائكة كتبة الروايات التي ستنقذ طيبة من المخبولين وضعاف النفوس والشكاكين المدعين، عظماء كتابة الرواية، المنتظرون على أبواب نوبل، فلنحلم جميعا، الأحلام تضر الكائنات غير العظيمة فقط، أما الكائنات العظيمة فقد فرغت من الأحلام وتفرغت لحياة لا أعلم عنها شيئا!

سمر واين للأحلام..

زحمة للأحلام..

(٣)

دخل شاب آخر كالح الوجه، متجهم، طالت لحيته التي علاها غبار السفر، نظرات خجولة تكسر عينيه وهو يتمطى بقدميه إلي داخل الدار، يحمل روايته بين كفيه اسمه فهمي صالح، قال بأنه قادم من على بعد ستمائة كيلو، من أقصى الجنوب، قميصه البني الذي ابيضت ياقته من ملح العرق وبنطلونه الكحلي ذو الحزام الجلدي الأسود المتشقق وحذاؤه الذي فقد لونه الحقيقي، حذاء مترب تعس يوحي بوضعيته، كتب رواية بعنوان "أزرق.. ليس له اسم آخر" رواية عن الكتابة وأهميتها، الكتابة منذ سنوحي، الكتابة عن الظلم وعن القهر الذي يتعرض له الإنسان، والحل السحري

للإنسان في طيبة أن يكتب. يكتب مظالم ويضعها أمام السلطان، السلطان الذي لايقرأ، السلطان غير المعني بالثقافة، منذ بداية التاريخ وهو يكتب، ولاشيء غير أن يكتب، يحول الكتابة في روايته إلى امرأة جميلة لايراها أحد في طيبة، يحول فيها الكتابة إلى منفذ للحرية كانت هذه كلماته القليلة عنها، يعرض على راشد أن يقوم بنشرها، فتح الحافظة البلاستيكية التي غاب لونها من كثرة الاستعمال والتي يختزن بها الرواية، كأنه يفتح كتابا مقدسا، ترتعش يداه وهو يقدمها لراشد، ارتعاشة راقصة تواجه جمهور الصالة للمرة الأولى، بينما عيناه تلمعان ببريق حماسي أعلمه جيدا، إنه بريق المرة الأولى للكتابة والنشر، سرعان مايخبو بعد الفشل المؤكد المصاحب للعمل الأول، نادر من ينجح عمله الأول، ونادر من ينجح بعد العمل الأول، يبقى المصرون الموهوبون، الذين يحملون إخلاصا للرواية، الجمهور القارئ ليس لديه نفس الإخلاص، إنه يريد الأفضل، لايتابع مسيرة كاتب بذاته إذا خبا قلمه، إنهم يدفعونه لإخراج أفضل مالديه فتحترق روحه وينسى نفسه مستمتعا برائحة الحريق وحدها داخله، يتناول راشد الرواية منه مرحبا، ويقول له " عنوانها إيه:.آه.. أزرق ..العنوان صعب"، (هو انت قريت حاجة لسه بديك أمك عشان تعرف العنوان ينفع ولا لأ؟.. يجيبني بنظرة سريعة .. ده سنس.. إحساس يابني.. إنت تفهم إيه في سوق النشر!!)..يستطرد راشد،

عدي بعد أسبوعين..

ينتفض فهمي صالح كمن يطلع في الروح مخاطبا إياه

بالحسنى وتلك المسكنة التي أعلمها،

لكن ياأستاذ راشد.. لكن.. آه العنوان..العنوان.. ممكن أغيره مش مشكلة خالص العنوان.. ممكن يبقى.. ممكن يعني..أسميها "جانج" يعني عصابة.. أو آز يو لايك..ههه.. كما تحب أو الأحسن.. أسميها انفصام أو دخان أو بلابيع.. إيه رأيك؟

يتطلع إليه راشد بعد أن ارتدى نظارته وتطلع في وجهه طويلا (قال يعني هكذا أصبح مثقفا ضليع في الثقافة) ويقول بثقة يحسد عليها من خلف خبرته الطويلة،

خلينا نفكر في العنوان بعدين، بعد مانقراها الأول .. أسبوعين وعدي .. أنا عارف ان مشوارك طويل ..إنت قلت منين.. من الصعيد .. طيب.. أقعد اشرب حاجه..معاك فلوس ولا لأ.. معاك..طيب.. خلاص عدي بعد أسبوعين..أو أقولك كلمني الأول.. آدي رقم التليفون..وكلمني بعد أسبوعين..

لم يتناول فهمي صالح الورقة التي كتبها راشد ووضع فيها رقم تليفون المكتب الذي غالبا لن يرد عليه منه أحد، ولايعطي أبدا رقم موبايله إلا للمحاسيب، فوجئت برد فهمي الصارم، كانت تلك الحركة الثانية التي كشف بها عن وجهه الحقيقي،

اسمع يا أستاذ راشد، أنا مش ها أسافر، ومش عايز منك حاجة، أنا جاي أعيش هنا، أنا هاأعدي بعد أسبوع!

لم يبد على راشد أي أثر لرفض فهمي أخذ الورقة، وضعها على المكتب في هدوء وقال مستفسرا،

عندك شقة هنا؟

يجيب فهمي في عناد مكتوم،

- ماعنديش .. ومش دخلك.. بس هاأعيش عند جماعة اصحابي هنا لحد ما أجيب أوضه أسكن فيها، أنا جاي اشتغل هنا، مش جاي علشان أرجع الصعيد، يعني كل يومين هاتلاقيني ناططلك!

يبتسم راشد وقد أدرك انه أمام احد هؤلاء المثقفين الجدد الذين لايناورون، ومرة أخرى دون أن تظهر على ملامحه أي تعبيرات،

- بص يابن عمي، انت تنور، بس انت عارف فيه طابور طويل من الكتاب مستنيين يعني أكيد مش قبل شهر ولا شهرين على بال ما ننتهي من القراءة أما النشر فمش قبل ستة شهور، واضح!

يبتسم فهمي كمن أدرك أنه كسب المعركة أخيرا، فيحول اتجاه ثورته إلى شعور بالامتنان غير الحذر،

- وماله ياعم راشد، عموما لو أنا نشرت عندك يبقى دي أمنية عزيزة علي قوي اتحققت، أنا باحلم بده ياأستاذ!

يبتسم راشد وهو يدعوه للجلوس،

- اقعد، اقعد، انت واقف ليه؟ تشرب إيه، أنا هاكلملك حد في الصحافة إيه رأيك، انت معاك إيه؟

يرد فهمي صالح في حماس وانتشاء لقد حصل على بغيته،

- أنا معايا ليسانس لغة عربية، ممكن اشتغل مصحح، كاتب مقالات، صحفي تحت التمرين، سكرتير، مدير مكتب حتى،

مدرس في مدرسة، أي حاجه، الوقت ده ممكن اشتغل أي حاجة .. أنا باعرف إنترنت كويس كمان.. وباكتب على الكمبيوتر كويس.. أي حاجة.. أي حاجة مش هاتفرق..

هنا يمكنني اعتبار أن الحديث انتهى، فبعد لحظات كانت السيجارة في يد فهمي صالح، كان قد حصل على ما يريد، وأكثر مما يريد حتى لو بضع كلمات.

من ناحية أخرى كنت أعلم أن راشد صادق تمامًا وكاذب تمامًا في ذات الوقت، سيسعى لتوظيفه بأي شكل ولن تمر الليلة إلّا وقد استلم فهمي صالح عملا ما، يمكنه أن يبات عدة ليال في المكتب هنا لو لم يجد مأوى له، أما من ناحية نشر الرواية فهذا أمر آخر لكن هل كان يملك شيئا غير ذلك، ستمر عدة شهور قبل أن يقرأها أحد، فإذا وجد أنها رواية لاتستحق، ساعتها لن يجرؤ راشد على أن يقول له إنها لاتصلح، سيمد في الوقت حتى يمل صاحبها وينساها، أو تموت بين الأدراج، أو يأتي يوما ما ويسحبها ليذهب لناشر آخر، أما إذا كانت رواية تستحق فستستغرق عدة أسابيع، هكذا كانت المسألة، ديونه كناشر تتراكم وليست هناك حلول مؤكدة وسريعة، كنت أشعر أحيانا بأنه لايستحق ذلك، إنه مخلص في دفاعه عن حرية الكتاب، وسلوكه في المظاهرات لايختلف عن سلوكه كثيرا في الحياة، إنه يدافع عن وجوده، ومع ذلك كنت أصاب أحيانا بجنون الارتياب ناحيته، إنه يتصرف بطبيعة مثقف، ولايمكنك إذا كنت تنتمي للروح الطيبية البعرورية التي تحتك بالشارع بشكل دائم وجئت بالفعل

منها إلا أن ترتاب في كل فعل صادق، كنت أعتبره صادقا وكاذبا في نفس الوقت فهو صادق في وعوده، وسيقسم بروح أمه وخالته وجدوده جميعا، كما يفعل أي بعروري، لكنك لاتعرف أبدا متى سينفذ هذه الوعود، لكنى من ناحية أخرى أدرك أن الموهوبين والمجانين فقط هم الذين سيمكثون في "قاف" باحثين عن أي عمل وعن أي نومة، فهمي صالح نموذج صارخ لهم، سيبحث عن أي مكان في غرفة ضيقة تسمح بنفس ضئيل للحياة في "قاف"، غالبا مايسكنون في "العاصمة المجهولة" وإن كانوا من سعداء الحظ فسيسكنون في إحدى تلك الأسطح البليدة التي تنتصب حولنا في وسط "قاف"، تلك الأسطح التي تتمطع فوقها رغبات كثيرة وطموحات أكثر وفقر أكثر!.

زحمة يا (قاف)

زحمة عالآخر!

(٤)

ينسى راشد الرواية بعد أن يضعها على المكتب وينسى فهمي صالح الجالس الآن في استرخاء ينتظر الفرج وحتى إن لم يأت فقد حقق مايريد، يسدد راشد نظرة إلى سعد عابد ويسأله إن كان يريد زجاجة من البيرة، لايتحدث سعد غالبا وإن تحدث فليس له سوى ذكريات مفرحة عن أحد الروائيين العظام مثلا الذين ماتوا دون أن يسمع بهم أحد، التهم هذا الأخير قطعة كبيرة من الحشيش على أنها قطعة شيكولاته وشرب وراءها نصف زجاجة

جاز على أنها بيرة، وحين شعر شعورا زائفا بأن الموت مقبل لامحالة، وذلك حين انطبق عليه صدره وأصبح يتنفس بصعوبة، فتنسل الروح منه وتعود، فلم يجد الرجل مفرا إلا أن يخرج إلى الشارع راكضا ليصرخ في وجوه الناس،

" إنه الموت.. أيها الناس إنه الموت.. إنه الموت..أتاكم عزرائيل.. اركضوا.. فِروا"..

نستغرق في ضحك ماجن مريح على غير عادة أحجار الشطرنج التي ليس لها سوى صوت وحيد، هو صوت احتكاك قاعدتها بالرقعة العظيمة، ليس هناك أمنيات ما في تلك الليلة غير أن تمر على خير كسابقاتها .

(٥)

يدخل شاب ملابسه متسخة وقد امتلأ وجهه بحب الشباب بينما تتساقط حبات العرق على جبينه الذي مايفتأ يمسحها بمنديل متسخ، يبحث بين الرفوف عن كتاب جديد، وحين لايجد مايريد يسدد نظرة لوم إلى راشد الذي يطأطئ رأسه كأنه غير موجود، فينسحب دون أن يتكلم، راشد يغمغم ببعض الكلمات التي لايمكن فك طلاسمها، أتخيل أنه يشتمه، أحاول أن أحل لغزا لايمكن حله، في النهاية أنهض متعللا برغبتي في الذهاب، فيما كان هاشم ناحية أخرى يضع ورقة في يد فهمي صالح بالجريدة التي سيعمل بها منذ الغد، كما أنني لا أريد انتظار اللحظة التي سيلقي فيها راشد بسباب ما خلفي، أنهض ضاحكا إلى رصيفي المعهود

والأسد الرابع الرابض هناك، والذي يتحول في الليل إلى ولي من أولياء الله الصالحين، أغني وأنا أسير ..

سمر يابعارير..

سمر واين..

يازحمة..

سمر واين يا إلهي!.

(٦)

قادم من منطقة القرون السحيقة التي تنقسم فيها العاصمة، وحين أدخل (بين السرايات) أجد كل المقاهي مزدحمة، يلتقطني كمال إسطفانوس كما لو كان يلتقط ذبابة شاردة في قفص التفاح الفاسد، ضحكته العالية تتناسب مع حركة يديه السمينتين ورجرجة كرشه العريض، يكمل ضحكته في استماتة مسيحية أصيلة، يجلس بجانبه أخي لحمة رأس، آسف أخي رمضان، يمكنكم الآن أن تتوقعوا اسمي؟ هل يمكنكم ذلك؟.. لا ليس شوال.. ولا ذو الحجة.. ها ها ها! سأقول لكم الاسم حتى لا أنسى اسمي في خضم الأحداث القادمة، فتحي.. نعم فتحي ..إسم مختلف عن أسماء إخوتي أليس كذلك .. ومهم أيضًا أن تعلموا أنني لاأشبههم في شيء، أحيانا أتخيل أن أنفي الكبيرة تمت بصلة ما لسلالة من الكلاب البلدي التي عاشت وانتهت آخر سلالتها بعد الفرار العظيم لأصحاب الأطراف المبتورة الذين كانوا يصطحبونها معهم وانتقلوا بها خارج المدينة الأسطورية التي نسكنها، ملامحي

الغامضة التي لايمكن وصفها بسهولة تمنح من يتحدث لي إحساسا خادعا بالأمان، لا أتحدث كثيرا، غارق أنا داخل عقلي، أمتلك ثلاث هوايات الشطرنج القابع بجوار الكوميدينو، والإنترنت، وهواية ارتداء البنطلونات الجينز التي لاأكاد أخلعها كأنها جزء مني، هواية تعود لسنوات الاشتراكية، أو قبل أن نعلن انتهاء الاشتراكية .. على الرغم من أن الجينز ينتمي للدولة الرأسمالية العظمى، إلا أن لونه الأزرق يعطيني إحساسا بالانتماء لتلك الفئة العمالية، وهذا كذب بالطبع، لنقل إنه كان يزيح عني هم الألوان، هم الإحساس بالثراء أو بالفقر، أو فصول السنة، كما أنه سريع الخلع خصوصًا في مناسبات اللقاء مع قطرات المطر، عايزين الصدق، ربما تأثرا بأبطال الأفلام الأمريكية.. الحقيقة ليس لدي منطق يقيني في التبرير، ربما نزعة للبوهيمية وتخلصا من إحساس التميز، وربما لأنه لايبلى سريعا ولايحتاج للكي والغسيل، ربما.. المهم... كان رمضان يضع البقسماط في الشاي ويلتهمه في تلذذ، ملتقطا حبات السمسم المتناثرة على سطح البقسماط بمهارة قرد يلتقط حشرات غير مرئية من مقعدة قرد آخر، جلست بجوارهما منهكا، كان أسد قصر النيل خلفي هناك على بعد عدة كيلو مترات غارقا في ظلام وعرق، لكني أشعر بأني تركت هناك بجواره شيئا مني لا أعلم حقيقته تمامًا، ماعلينا، كنت متأكدا أيضًا أن النسوة البتروليات والصينيات والأمريكيات الجنوبيات قد بدأن غزو (قاف)، أو أنهن غزونها بالفعل، لقد تم الغزو وأنا نائم، هذا الغزو الذي يذكرني بماحدث في دولة الفراعنة حين احتلها

الهكسوس، أو آشور حين احتلها الإسكندر، أو اليونان حين احتلها الرومان، هل يختلف الأمر عن ذلك، يذهب الجواسيس أولا ثم التجار ثم يأتي الغزو، الغزو أصبح ذا شكل مختلف تمامًا، الغزو يتم الآن عن طريق الأشياء، الأشياء التي تجد طريقها لكل شيء، ملابسنا وحاجياتنا وأجهزتنا، ونحن نشتري الآن كل شيء، أشعر أن الروح البشرية كلها تتغير، وتتحول إلى كائن آخر، كائن لم يوجد على الإطلاق من قبل، ولاأدري لماذا كنت أشعر بأنه يوما ما سأصحو لن أجد هذا الأسد بالذات؟ ليس به عيب ظاهر، إنه مثل السباع الأخرى شكله وهيئته، لكن هناك شيئا ما يمنعني من الانتماء له، وربما يكون هذا هو السبب وراء استغراقي عن عمد في النوم لساعات طويلة، ربما بالفعل كنت أريد أن أصحو فأجده قد تمت سرقته أو تم اختطافة وأعلنت المافيا مثلا عن تسبيله عملات معدنية صغيرة، أو بيعه في أحد المحاجر ككتلة من الركام، أو أي شيء آخر لاتسعفني به ذاكرتي، لكن أن يكون مضمون هذا الشيء أن هذا التمثال على وجه التحديد قد اختفى، اختفى تمامًا، بالضبط كما حدث في آشور مع أسودها الحجرية المجنحة.!

قال لي كمال وهو يمسح نظارته بيد، ثم يتركها معلقة في صدره في تلك السلسلة الذهبية، ويشد حجر الشيشة التفاح وينفث دخانا كثيفا يساعد في تغيير رائحة المكان من الذباب على الأقل، أن هناك عملا إضافيا لي في الفندق الكبير الذي يعمل هو به حيث يمكنني العمل في المساء لمدة أربع أو خمس ساعات من الثانية

عشرة ليلا إلى الرابعة أو الخامسة فجرا بشكل مؤقت، وأن المرتب سيكون طيبا للغاية، شكرته في هدوء، وأنا أتطلع للحمة الرأس وهو يتلذذ بالبقسماط الذي يتناثر على لحيته الطويلة، فيما كان كمال يعاود حكاية عملي بالفندق وأهمية أن آتي ليلة الغد لاستلام العمل، وحين كان يكرر الحكاية للمرة الثالثة وأنا جالس بجواره أنتظر تلك السيجارة المقدسة التي سيمنحها لي وإن كان لم تبدر منه بادرة واحدة مؤكدة على أنه سيفعل ذلك.

وقفت فجأة سيارة رجب الكوروللا أمامنا، أطل برأسه منها وقال عدة كلمات مقتضبة " أمينة في المستشفى.. جوزها ضربها"..

نهضت فزعا، كنت أحاول أن أفكر كيف حصل أن عرف الدكتور رجب الكبير بأمر ضرب أمينة ولماذا هو ملهوف على هذه المسألة، إن عيادته -التي زرتها- مضطرا عدة زيارات قصيرة كانت لاتخلو من صنفين من النساء، من تريد الإجهاض، أو ترقيع غشاء البكارة، إنهما أهم عمليتين في الطب في "قاف" الآن، العملية الأولى بالنسبة للبعرورات الراغبات في الزواج من بعارير لينتجوا بعارير ستنتج بعارير جديدة والتخلص من أبناء الحرام كتراث داعم للحياة الصحيحة ومتفق عليه، والعملية الثانية كتراث شرقي في غاية الأهمية يجب المحافظة عليه لإثبات الشرف، والطيبيون مهتمون جدا بهذه المسألة، فالغشاء أو القتل، ولا يوجد طريق آخر، أما الأغنياء فهم مهتمون أكثر بإزالة الشحوم، وتصحيح إعوجاجات الأنف والشفاة والمقعدة والمهبل،

أما الرجال فقد أصبحت إعلانات الإنترنت المتعلقة بتصحيح وضعية أحجام ذكورتهن على قفا من يشيل، خصوصًا أن الإنترنت أتاحت منذ عدة أعوام عقارا بالاضافة إلى نبات ما يساعد على إطالة الشكمانات الذكورية بشكل خرافي، وهو أمل في غاية الأهمية لدى الكثيرين بالطبع، أو يكونوا فحول البراري التي لم تُنْجَبْ من قبل، وإلا كيف كان سيحصل على الكورولّلا وعمارة يبنيها على كورنيش المعادي، كورنيييييييش المعاااااااااادي..

سمر واين يابشر..

سمر واين..

(٧)

علي أن أستمر في الحكاية وأن أمتنع عن تدخلاتي بشكل مباشر، لكن هل يمكن كتابة رواية دون إحساس مشبع، لايمكنني أن أتذوق نعيم الكتابة في خضم جحيم الحياة هنا، المسألة لايحكمها منطق، هذا السرد المتواصل الجاف الحيادي لايمكن الآن كتابته، فالمسألة أنا الذي يعيشها، فكيف يمكنني ككاتب أن أنفصل عنها، إنهم يطلبون منا المستحيل الآن، كأني إله يعيد صناعة العالم، إنه لايصنع لعبا آلية، وهو نفسه ليس آلة، إنه إله يملك إحساسا لايمكن احتواؤه، الروائي يملك هذا الإحساس، إنه إنسان يحاول أن يعيد بناء العالم فهل يمكنه أن يتجنب إحساسه، المسألة مربكة ومحيرة، لقد أقنعني الروائيون الكبار بذلك، لكنهم

كاذبون تمامًا، بصراحة أشد أنا غير مقتنع، سأكتب كما أريد، سأقص وأفكك وألملم، سأبتر وأزيل وأتخيل، سأتحرر وسأفعل ماأريد، الحياة لاتمنحني الآن فرصة الانفصام عما يحدث، كيف كان يمكنني أن أدفع بتلك الرواية إلى راشد، وأنا أرى العالم ينهار كل ساعة ويعاد بناؤه بشكل أسوأ مما كان قبلا، لاأملك سوى شيء واحد في هذه الرواية ألا وهو أن أغمرها بالحروف، بخيالاتي المتقطعة، ببحار أفكاري وأوهامي، بيقين أنهم لن يستطيعوا فك شفراتها، بموسيقى لاحس لها، ولكن كيف يمكنهم تذوق الموسيقى وهم جميعا يعانون مثلي، سأحاول، لا أملك إلا أن أحاول.!

(٨)

حين كنت أدندن سمر واين في المقعد الخلفي للسيارة، لا أدري لماذا كنت أفكر في اختياري لسمر واين وهي أغنية غربية بكل المقاييس، وبالأحرى أغنية لرعاة البقر، ونحن بالكاد نرعى أنفسنا، لمذا اخترتها، لماذا لم تكن هناك أغنية أخرى تعبر عن الروح الطيبية البعرورية الآن؟!، ربما كان ينبغي أن أكتفي بأغنية "زحمة يادنيا زحمة"، لأحمد عدوية، أو "قلقشنجي دبح كبشه "، مثلا، أو "راحوا الحبايب" على أساس أن هذه الأخيرة تنطبق على وضعي المزري الذي أعيشه الآن، للأسف لم يكن هناك تعمد في اختيارها، إنها اللحظة المقدسة القدرية التي اختارها صاحب القدر بحكم انتمائي الإنساني ليس إلا، كما أننا من جانب آخر نعرف

الصيف جيدا، الصيف أقسى فصول العام تأثيرا علينا، وربما لأني خدعت بالفعل كما تقول كلمات الأغنية – ملحق ترجمة لها بنهاية الرواية –، وربما لسبب غير مفهوم داخلي، عليكم أنتم أن تكتشفوه، عليكم أن تشاركوني استمتاعي بالبحث في كهوف الذات، في عصر الذات وتنسم رحيقها المتوهم، المهم أعود لأخي، كان أخي الكبير يتأفف وربما كان يلعن تلك الليلة التي ولدت فيها، أو اليوم الذي أصبحت فيه مالكا لنفس بقية الاسم الذي يملكه، تراث غبي يجمع بيننا، رغم أنه ليس بيننا بعد ذلك أي شيء مشترك، أما أخي الأصغر رمضان فغارق في لاشيء أو هكذا كنت أظن، لم أتعلم بعد أن البشر كائنات لا يمكن أبدا توقع ما يمكن أن تقوم به أو تفعله، ألصق الأوصاف عليهم دون إدراك حقيقي لذواتهم المختفية، هناك بعيدا، أبعد مما يظن حتى أعتى المحللين النفسيين والكتاب وكل من هم على تلك الشاكلة.

(٩)

كنت أحاول ضبط النغمة، لاأدري كيف هربت مني، لقد فشلت في تعلم البيانو، لا أدري كيف كنت أدخر القرش لأذهب لمعلمة البيانو، وبعد شهر تعلن فشلي، فأعود إليها بعد عدة أشهر، كررت هذا الأمر ثلاثين مرة خلال السنوات الماضية، كيف تعلق هذا الأمر بذاكرتي؟ . كانت تحاول معي لكن أصابعي كانت عصية تمامًا على التأقلم مع المفاتيح، قالت بأن أصابعي صغيرة، أو قصيرة، وأن عازف البيانو الماهر يجب أن يملك تلك الموهبة،

الجيفت، ولأني لاأملك الجيفت فإنه يجب أن لا أنتظر أن أكون عازفا موهوبا، من قال لها إني أريد ان أكون عازفا موهوبا، أريد أن أكون عازفا والسلام، لكن يبدو أنني وصلت إلى نقطة أخيرة مفادها أني عازف الآن عن الحياة نفسها، هاهاها.. سمر واين.. لقد وهبتني الحياة الفشل حتى قبل أن أفكر وقبل أن أبدأ، ها أنا أتذكر شيئا مماحدث، كنت أتوارى يوم إعلانها فشل علاقتنا بين الجدران حتى إنني أردت أن أختبئ في فجوات الأرصفة المتهدمة، الأرصفة التي يعاد بناؤها كل يومين ثم يتم هدمها لإعادة البناء من جديد، وقد افتكسنا نوعا جديدا من الأرصفة التي لاتصنع من أحجار وإنما من أسمنت، يتم بناء الرصيف قطعة واحدة، وهو أمر جديد تمامًا على شوارع (قاف) وغيرها من المدن، من الذي أمر بذلك ومتى وأين ولأي سبب؟!، لم يعلن أحد ذلك، أستيقظ كل يوم على عدة شوارع يعاد بناء أرصفتها وفق الشكل الجديد دون تبرير من أي مسئول من عاصمة الجمهورية، ونحن لانبحث عن تبريرات والمسئولون لن يضيعوا أوقاتهم الثمينة للغاية في أي تبرير، فعلينا أن نقبل بواقع الأمر، يمكننا نحن أن نعلم العالم كيف يكون التدهور والهد والبناء، بناة الأهرام العظام، إذن لم أستطع الاختباء في فتحات الأرصفة الفاسدة، هذا هو الإحساس الذي أتذكره، الفشل، الرواية هي التي أنقذتني من الفشل، إنها لاتحتاج مهارات مسبقة، تحتاج الوقت والقراءة، وأنا تقريبا لا أملك سواهما، ما أردته هو الموسيقى، جوهرها، كنت أتحدث مع حبيبتي عن جوهر الموسيقى، ها أنا أتذكر شيئا ما

آخر، لم تسمعني، ربما لم تسمعني، أظن أنها كانت تسمعني أحيانا وتبتسم، هل كانت ابتسامتها إعلانًا باكتشافها جنوني وبأنني لا أتواءم، ولا أنصاع لحديثها عن حلمها المعهود في الشقة والأولاد، ربما كنت في نظرها بعد سنتين من علاقة لم تكن عابرة لم يعلم بها أحد في (قاف) مطلقا، مجردٔ ونيس لجلسات حب وبعض القبلات الطائرة ومزيد من الجنس الذي لايروي، ولايشبع، ولايسمن، هل عرفت امرأة غيرها خلال تلك السنوات الماضية، لاأتذكر شيئا، حتى اللحن الوحيد الذي كنت أردده كنت أفشل فيه، جحيمية هي الحياة في ظل فشل متوال، لكنه كان بالنسبة لي كالنجاح المتوالي تمامًا، بعد فترة من الوقت تفقد طعم الاثنين، أنت في حاجة دائمة لإحساس مزدوج، لأنك في النهاية أنت أيضًا شخصية مزدوجة، كيف كان يمكنني الكتابة بإحساس واحد، لايمكن أن أقفز للنجاح مباشرة، والنجاح في هذا العمر يبتعد أكثر، كويلهو أيضًا كان كاذبا!.

"أسكت أريد التركيز في الطريق"..

لم أنتبه لعبارته في المرة الأولى أو الثانية، حتى لكزني رمضان، تطلعت إليه، إلى كتلة لحمة الرأس الجالسة بجواري، كان رمضان قد ركب أيضًا دون أنتبه له، هل أنا مفصول عن العالم إلى هذه الدرجة، يحدث أحيانا، أليس كذلك؟!

حين وصلنا المستشفى، هبطنا جميعا وصعدنا ركضا، فقط أخوتي رجب وشعبان كان يسيران على مهل، بينما كنت أنا ورمضان نركض، كان زوجها شبيه الممثل القديم بشحمه ولحمه

يقف أمامنا لم أشعر بنفسي إلا و أنا في قسم الشرطة ووجهه ممتلئة بالدماء و أنا كذلك نعقد محضر صلح.!

سمر و اين يا طبيب اللعنات..

زحمة يادنيا زحمة..

زحمة أيها اللواطي اللعين..

الفصل السابع

ليس من قبيل الصدفة أن أظهر هنا أنا أيضا

(١)

ليس هناك مبرر منطقي ليدفع السيد زين عبد الهادي لأن تظهر نسخته الثانية غير المؤثرة في بداية هذا العمل، عموما يلقي بنا السيد زين في بعض الأماكن دون أن ينتبه إلى ما فعله، ولأنني لست مخولا باستكمال الحكاية المتعلقة بالكلاب التي تبيض، فإني يمكن أن أتدخل إلى حد ما مزيحا السيد فتحي المتفكه والذي تعمل ذاكرته بشكل غير مفهوم، وهو يقطع حديثه كل مرة بتدخلات غير مبررة، وراضيا بشكل حزين ومتردد في الاستكمال، لكي ألقي ببعض الشروحات حول السيد فتحي التائه، وهو الذي لايملك سوى اليأس، متحركا من نفق إلى آخر كجرذ عجوز على مساراته اليومية بين ميدان التحرير، وكوبري قصر النيل، ومنطقة دولة بين السرايات، قابعا في غرفته الرطبة الضيقة، يدور فيها كالمجنون، يجلس بالساعات أمام شاشة الحاسب لايفعل شيئا سوى البحث، وإذا سئم هذه المسألة وهو نادرا مايسأمها، فإنه يتحول للعب أدوار الشطرنج التي يلعبها مع نفسه، وقد يظل عاما بأكمله يلعب نقلة أو نقلتين حتى تتراكم الأتربة على الرقعة فيعيد تنظيفها، وتحريك القطع عليها كما كانت بالضبط، كأنه ينتظر

انتصارا ما أو هزيمة ما لا تأتي، كما لايهمه سوى الحصول على مايكفيه للحياة، والذي دفعه إلى أن يكون شخصا طفيليا على مايسميه الحاج كمال إسطفانوس وهو على عكس أغلب مسيحيي طيبة فهو كاثوليكي وليس أرثوذكسي، كما أن له أخت راهبة يلقبونها بالحاجة أيضا، هي التي تستقبله في هجراته القصيرة إلى الولايات المتحدة، ولعله يحمل إسما آخر هو نيقولا، وعلى ذلك فإن لفظ الحاج بالنسبة إليه ليس لفظ سخرية وإنما يعتز بهذا اللقب اعتزازه بالمسيح ذاته، وعلى الرغم من أنه يتعرض لبعض المضايقات أحيانا من الأرثوذكس إلا أنه لايلقي بالا لذلك، فالتسامح هو قلب المسيحية، والتحرش الديني ليس الهدف منه النيل من الديانة بقدر النيل منه هو شخصيا، التحرش موجود في كل مكان في العالم، وعليه أن يتسامح، الخمر تساعد على التسامح يافتحي، كما يردد دائما!

لايكتفي السيد فتحي بتطفله على الحاج كمال، وإنما يتطفل كذلك على المدعو عبده قرني، كيف يمكن لهذا أن يتم، لا أدري ولكنه إصرار الروائي الحقيقي على هذا العمل الجنوني، فليكن إنها بيضته في النهاية!، تركني زين عبد الهادي في أحيان كثيرة هناك، في بين السرايات، وبالأحرى يترك جزءًا من ذاكرته هناك، أو يترك طيفا وربما نسخة إلكترونية من تلك النسخ التي يضعها هناك على سطح المكتب فتنقسم وتظهر شخصيات جديدة، أو من خلال "الأكونتس" الكثيرة التي يملكها في مواقع البريد الإلكتروني المختلفة، كلها تمثله هو نفسه، تتصارع لتخرج منها

تلك الكلمات التي أحكيها لكم الآن، إنه ليس مسئولا عما سأقوله، ربما أكون شخصية ما متمردة داخله لم يستطع يوما أن يكبحها بحكم كونه أستاذا في الجامعة يهتم بالبرستيج والمكانة العلمية لكنه مادام يكتب رواية على أية حال فيجب أن يتحمل هذا الانفصام، حتى لو كان انفصاما إلكترونيا.

هذا الانفصام الذي يحدث له أحيانا فيدفعه لكتابة ما لايمكنه بالفعل أن يكتبه بسبب البرستيج اللعين.

(٢)

على أية حال لم تتحول دولة بين السرايات إلى مرتع لأجهزة وماكينات التصوير وصراع بين أساتذة الجامعة للحصول على أرباح سرية من بيع المذكرات لطلبة جامعة (قاف)، أو لتحول بعض البيوت لسكن طلاب وطالبات الجامعات، وهو تحول ديموجرافي هائل، استتبع بعض التغييرات الجذرية في شخصية أهل المنطقة، لم يكن ذلك ليتم إلا بفعل الجنون والتسابق في الحصول على الأرباح وبالتالي تحسين مستوى المعيشة، مما دفع المنطقة بأكملها إلى الوقوع في مستنقع الجريمة، ولايمكن الآن التأكيد على الرائد الذي أتى بأول ماكينة تصوير إلى تلك الدولة المتاخمة في حدودها لميدان (جيم) وهو ميدان شهير قريب من جامعة (قاف)، هذا الرائد واحد من اثنين ولايمكن التأكيد الآن على أيهما كان له شرف تحويل حياة أهل هذه المنطقة، أحدهما شيخ مسجد على الطريقة الحديثة ينتمي لحركة الإخوان المسلمين

ربما، والثاني له صلة قرابة بأحد المهاجرين للدولة الايطالية حيث دفعه هذا الأخير لاقتناء تلك الماكينة ليضعها تحت بير سلم منزله في ركن مظلم تمامًا كما يفعلون بالمخللات وصناعة الفول المدمس وصناعة الجبنة الرومي والبسطرمة والملوحة والفسيخ منذ آلاف السنين، إنه سلوكهم التراثي الذي يجب أن يحافظوا عليه، فلم يختلفوا على مدار الحقب المتعاقبة في التعامل مع قدور الفول المدمس أو الملوحة أو المخللات وبين تعاملهم مع ماكينات التصوير وأجهزة الكمبيوتر، ولا حتى أجهزة المحمول، إذ يمكن وضع هذه الأخيرة على قفص كبير من أقفاص الخبز ووضع جهازين عليه والوقوف أمام باب الجامعة لبيع الدقيقة بالشيء الفلاني، مع وضع يافطة تحدد سعر هذه الدقيقة، وهذا السعر محدد بالجوند منافس البيض في العصور القديمة، أما ماكينات التصوير فهي أنواع متعددة، والغريب في الأمر أن النوع السائد منها هناك هو الذي يعمل بالجاز وبحبر مشكوك فيه، حيث يمكن أن تشم بسهولة تلك الرائحة التي ترتبط بالكيروسين على سطح الورق، وهذا النوع من الطباعة الرخيصة هو الذي يبحث عنه الأغلبية من الطلبة، وغالبا ماتكون هذه الماكينات من نوع "شارب" التي من السهل إجراء الصيانة لها من قبل أي شخص - تشبه في ذلك السيارة "الفيات" الإيطالية التي أصبح بإمكان من لا صنعة له أن يقوم بتصليحها، وهو تصليح لو تعلمون لايسمن من جوع - وهو تطور تكنولوجي مهم انتقل أيضًا بالبعارير من العصر الزراعي للعصر الصناعي- وهم كذلك يفضلون استعمال

أوراق خفيفة الوزن فهي ليست من النوع الغالي فتقترب في وزنها من الخمسين جراما أو الستين، لأن أي جرام زيادة سيدفع بسعر الورق إلى أن يكون أعلى وهو ما قد لا تحتمله جيوب الطلاب، ويمكن كذلك لهذه الماكينات أن تعمل أربعًا وعشرين ساعة في مواسم الامتحانات، واستكمالا لهذا السلوك بعد حقبة البترول في السبعينيات والثمانينيات، يمكن ملاحظة وبتركيز بسيط أن أسماء المحلات هناك تنقسم إلى نصفين، نصف يعود بنا للعصر الإسلامي حيث سنجد محلات باسم "ذات النطاقين للتصوير"، و"التصوير الإسلامي"، و"أبو هريرة للتصوير"، و"عمار بن ياسر للتصوير"، والنصف الثاني يعود لعصر الانفتاح وعصر المعلومات "بي بي للتصوير"، و"دي دي تي للتصوير والكمبيوتر"، و"أتراكشن للتصوير والأبحاث" و"هنا سنتر للرسائل والتصوير"و"ملك الإنترنت"، فتحي نفسه فكر في فتح محل لتصوير المستندات وكتابة الأبحاث باسم "سمر واين"، كل ذلك تم دون تدخل من المصالح الحكومية المسئولة عن هذه المسميات على اعتبار أنهم يؤمنون بقوة بأهمية مبادئ السوق الحرة إيمانهم بجن سليمان، وإن لم يفت ضباط المصنفات الفنية من عمل بعض الكبسات على أصحاب هذه المحلات بهدف غلقها، وهو هدف معلن نبيل، أما غير المعلن فهو الحصول على جهاز حديث، أو الحصول على مبلغ من المال (محترم غالبا) في مقابل عدم إغلاق المحل، ولا مانع من محضر تشميع المحل أحيانا، والحقيقة أن هذا التطور البيولوجي في السلسلة الغذائية البشرية لم تكن قد تمت

دراسته بعد بشكل كاف، فقد كان معروفا أن "المسكوت عن اسمه" سارق، وهو في خطبه لايهتم كثيرا بسرقات من يرأسهم، وانتقل داء السرقة "للمسكوت عن اسمه المبجل" الإبن، والذي كان يقول عنه الأب أنه يساعده، ولم يقل أبدا يساعده في ماذا؟، وهو بدوره لايهتم بمن يسرق تحته، ثم تنتقل سلسلة اللصوصية لأصحاب السلطة، ومن في حكمهم من عمال وموظفي المؤسسات الدولية، هؤلاء الذين لايستطيعون السرقة في دولهم كانوا يختارون العمل في طيبة كي يمكنهم السرقة، ومن ثم كبار الموظفين، ثم للضباط، ثم لمساعدي الضباط، ثم لأصحاب المحلات، ثم للعاملين، ثم للطلبة، فيقوم الطلبة بسرقة أولياء أمورهم الذين يمثلون كل الشرائح السابقة، كانت السلسلة الغذائية تعتمد على لصوصية متفاوتة، ورثها المجتمع كله في النهاية بعد حكم دام عشرات الأعوام "للمسكوت عن اسمه".

الحقيقة أيضًا لم تكن مديرية أمن (جيم) معنية بما يدور هناك، فقد كانت المنطقة التي تقع بها منطقة هادئة دائما، إلى أن اكتشف فتحي خلال السنوات العشر الماضية توسع المديرية بشكل يضر ببيئة المكان، وبما يمثل اعتداءا صارخا على أراضي الدولة المخططة سابقا كشارع واسع يعبره أهل المنطقة، بحيث احتلت الرصيف الخارجي ولتصنع لنفسها تكلة حديدية ممنوع الدخول فيها إلا للضباط والجنود وبالطبع اللصوص، لقد كان الرصيف مفتوحا للسيارات والمارة، احتلت المديرية في النهاية الشارع والرصيف الخارجي وبنت عليه سورًا حديديًا وبعض الأشجار

لإضفاء صفة من الشرعية على تملكها لأرض الشارع، ولم تكتف بذلك في ظل دعوى التوسع – وهو لفظ غير حقيقي بالمرة – ثم تحولت إلى الرصيف المقابل لتحتله سيارات الشرطة، ويمكن القول بأن كل ذلك انطلق بدعوى مكافحة الإرهاب القادم من الخليج وأفغانستان وباكستان ودولة بين السرايات، لقد تم إغلاق كل الثغرات التي يمكن أن تتسلل منها سيارة مفخخة مثلا، أو اقتحام لسلالم المديرية من قبل جماعة إرهابية على الرغم من أن ذلك لم يحدث إطلاقا ولكن رغبة من القائم على المديرية في التحوط للأمر، المديرية التي ظهرت مكانا مفتوحا في كل الأفلام البعرورية القديمة خصوصًا في الستينيات والسبعينيات، واختفت الآن بفعل جنود مرهقين لايمكن التنبؤ بملامحهم الحقيقية أو حتى إحصائها، فهم كالحون، أقزام، وجوههم عبارة عن لوحة تختنق بالاصفرار والشحوب، هل هذا كاف لإعلان نوعية الحرب التي يخوضونها مع اللصوص ومع الضباط، لايمكن تخمين الحقيقة في هذه المسألة، أما الشجيرات هناك فقد علاها سخام عوادم السيارت، بالإضافة لتمسك العناكب بأوراقها وهو دليل مهم على تطور فصيلة العناكب التي كانت تحتل الغابات في الأزمنة السحيقة لتحتل الآن كل واجهات المباني في (قاف) كدليل دامغ على تسامحنا الاجتماعي والديني إزاء هذه الحشرات، ولاكتمال الصورة يحوط المديرية سور حديدي أسود، لقد كان فعل الإرهاب دافعا لكل ذلك، ومما دفع أيضًا كل المحلات في منطقة بين السرايات للتحول من محلات بيع الطعام وسندوتشات الفول

والطعمية التي كانوا يملكون ثمنها بسهولة، وبسبب انتشار محلات الماكدونالدز والشبراوي ومؤمن وبيتزا، لتتحول إلى بيع المذكرات والتصوير وسكن الطالبات وانتشار الجنس والمخدرات والبانجو، ولا يعلم فتحي أنه من النوادر التي تحكى عن آثار إغلاق محلات الفول والطعمية وافتتاح محلات التصوير أن (سعيد زنجر) وهو واحد من أهم العمال الذين كانوا يعملون في محلات الفول والطعمية وكان يعد علامة من علامات المنطقة الجغرافية السعيدة التي تدعى بين السرايات، وكان شابا زنجي اللون قصير القامة سريع الكلام كثير الضحك عمال على بطال، بعد أن أُغلِق المحل الذي كان يعمل به ولم يكن يجيد عملا آخر إلا طهي قدور الفول في مخزن المحل والمبيت بجانبها حتى الصباح، اصطحبه أحد أصدقاء فتحي الذي افتتح محلا للتصوير في منطقة "الدوار" وهو الاسم الشعبي لدير الناحية والتي كانت تطلق على بين السرايات بأكملها، اصطحبه ذات يوم إلى ميدان (جيم) لشراء أوراق تصوير، ولكنه في الطريق اختفى عدة شهور، وعاد مرة أخرى للمحل وقد أطلق لحيته، مرت عدة أيام قام بعدها بطعن صديق فتحي بسكين كان يخبئها في صدره، لكنه طعن في نفس الوقت عدة طلاب أتراك، وقيل تفسيرا للواقعة في ذلك الوقت أنه عمل إرهابي، وقيل أنه مكث في السجن لسنوات طويلة، ومنذ هذا اليوم اختفى سعيد زنجر للأبد، وقيل أنه بعد خروجه تاه في الصحراء، إذ لم يستطع العودة بعد ذلك إطلاقا، وقيل أيضًا أنه تزوج من صاحبة مطعم للفول ورحل للمنصورة، وقيل أنه شوهد يعمل في

محل للفول والفلافل في مجاهل شبرا، وقيل أنه أصبح يعمل جنديا في الأمن المركزي، لكنه من المؤكد لم يعد لبين السرايات بعد ذلك على الإطلاق وقيل أيضًا أن حادثته هي التي دفعت مديرية الأمن لابتلاع الشارع، بحجة مكافحة الإرهاب.

كذلك أدى التحول في الطبيعة الاقتصادية لدولة بين السرايات إلى ظهور طبقة داخلية من العاملات اللاتي ارتبط بعضهن بعلاقات سرية مع أصحاب المحلات أو العاملين بها، بحيث أصبحت بين السرايات في النهاية قبلة لكل من يريد شيئا من الجنس أو المخدرات أو مذكرات الجامعة أو العمل في كتابة رسائل الماجستير أو الدكتوراه، كانت المسألة محيرة، ما لم يذكره فتحي هو ارتباطه بعلاقات عابرة مع بعض العاملات في محلات التصوير أو الكاتبات على أجهزة الكمبيوتر، وكان يعلم جيدا أنهن يتقاضين الفتات مقابل هذا العمل، لكنه كان يتغاضى عن سرقاتهن له في بضع سطور يكررنها أو يزدن المسافات بين تلك السطور أو يعملن على اتساع هوامش الصفحات، موحيات له بأنهن كتبن صفحات إضافية يستحقن ثمنها، كان الجميع يرضى بذلك في مقابل ابتسامة وبعض حركات الدلال وقد يمتد الأمر مع بعضهن للقاء سري سريع، وعلي أن أشدد هنا على لفظ بعضهن، إذ إن البعض الآخر كن يتركن تلك المحلات في أول شاردة من صاحب المحل أو العاملين به في التحرش بهن، والبعض الآخر آثرن السلامة فسمحن بالتحرش دون التوغل فيه، أما الفئة الأخيرة ففضلن العمل مباشرة في ما بعد التحرش على أساس أن هذا

المكسب أكبر بكثير من التصوير، ولعل بعضهن مع الوقت اختار المهنة الأقدم في التاريخ، كان الفقر يطحن ويلقي بدقيقه القاتل على الوجوه الصفراء، وهكذا بدأت أسعار أخرى في الظهور تتعلق بمختلف أنواع الجنس بدءا من الفم وانتهاء بالثقب الأسود، وعلى ذلك كانت احتياجاتهن البيولوجية تنقضي سريعا، فقد كانت تتم وبسرعة أسفل سلالم البيوت الرطبة المظلمة وربما خلف ماكينات التصوير الشارب، والتي كانت فيما مضى مكانا يتجمع فيه الجن والعفاريت وهي تراث راسخ لدى العجائز هناك، أو في الحمامات الضيقة التي لاتسمح بأكثر من الوقوف للتبول، وهو ماكان غريبا أيضًا بالنسبة للبنات هناك، حيث كانت بعضهن تضطر للتبول واقفة، أو في الكثير من الشقق الضيقة في العمائر والبيوت التي تقع على الشوارع الخارجية للمنطقة، كلها أماكن احتلتها ماكينات التصوير والممارسات الجنسية أماكن للدروس الخصوصية من قبل طلاب كليات التجارة والحقوق والآداب حيث يقوم بإعطاء هذه الدروس طلاب من تلك الكليات فشلوا في الحصول على شهادات التخرج فآثروا التدريس وهي سوق رائجة، وحين انتبهت شركة "زيروكس" العالمية للفرخة التي تبيض ذهبا هناك بدأت في تقديم خدماتها هي الأخرى، وعلى الرغم من أن أشهر زيارة للمنطقة من قبل مسئول حكومي تمت قبل أيام من توقيع اتفاقية كامب ديفيد وكانت لرئيس الوزراء الطيبي في ذلك الوقت الدكتور مصطفى خليل، ولم يستطع أحد أن يراه سوى من خلف زجاج سيارته المرسيدس السوداء وهو يلوح

لهم مودعا، كما أن "المسكوت عن اسمه المبجل الصغير" ابن "المسكوت عن اسمه" الحالي كان يزور في بعض الأحيان الجامعة من خلال طوق أمني كبير يضرب عليها فيمنع حتى الأساتذة من التجول بحرية، كانت منطقة دولة بين السرايات القديمة تقود مظاهرات الجامعة في الستينيات والسبعينيات حتى الثمانينيات وكانت شوارعها تمتلئ بآلاف المتظاهرين من طلاب الجامعة ومدرسة السعيدية الثانوية العسكرية وحَوَش الحارات الذين يلقون بالزجاجات الحارقة والحجارة وحرق كاوتشات السيارات، إلى أن بدأت الدولة تدرك أنه من المهم إغلاق أبواب الجامعة بالضبة والمفتاح، خصوصًا أن جامعة (قاف) ودولة بين السرايات كانت صداعا دائما في رأسها، مما دفع لتعطل الأصوات الثورية من الحركة الطلابية اليسارية التي كانت نشطة في ذلك الحين، ولتتحول جامعة "قاف" وغيرها من جامعات طيبة إلى بؤر لحركات شباب الإخوان المسلمين، وجماعات الجهاد، والتي كانت تأتي غالبا من كليات الهندسة والحقوق والآداب، أصبح حرس الجامعة ومن خلفه والعياذ بالله " أمن الدولة" هو القوة المهيمنة والمسيطرة على الجامعة وأبوابها، وانتهت عهود الحرية والثورة، باستتباب الأمن وتحول الطلاب والطالبات إلى العلم والعلم فقط، بجانب التسلية بالوقوف بالساعات أمام محلات ودكاكين التصوير ومعرفتهم الجغرافية الكاملة بأماكن بيع مذكرات الأساتذة وهذا أيضًا ليس حقيقي بالمرة، لقد أصبحت الجامعة صورة للعلم، لكنها لاتمثله بأي شكل من الأشكال ولعل تقرير أفضل خمسمائة جامعة

قد فضح ماتم التستر عليه لسنوات، أما الثورة فلاتزال مستمرة في مصانع العمال، ولكنها ثورات الجياع فقط، لقد تم التخلص من كل الحركات السياسية الراديكالية بسقوط الاتحاد السوفياتي السابق، إنها ثورات من أجل مزيد من الدخل والثروة ولكن مهما زاد الدخل ومهما زادت الثروة فالفقر معشوق أصيل لأهل طيبة خصوصًا البعارير منهم، يعشقونه قلبا وقالبا لأن مايحصلون عليه لايصنع ثروة بأي شكل من الأشكال، وهي ليست ثورات الحرية، فقد استتب الأمر للحرية، وعلى رأي فتحي استتب الأمر لسمر واين..سمر واااااااااين يافتحي.. وسادت "زحمة" عدوية في النهاية، لتخرج لهم بعرور "علي ياعلي يابتاع الحشيش".. وسأردد كما يردد فتحي ..هههه سمر واين يابعرور!.

(٣)

لم يعرف فتحي حبيبته - التي يذكرها - من جبال الألب في سويسرا أو شواطئ بالم بيتش أو مرتفعات بيفرلي هيلز، وإنما من قلب دولة بين السرايات، أو ربما من منطقة قريبة منها وهي عزبة أبو قتاده، ابنة أحد موظفي وزارة الزراعة، التي مارست معه الجنس والحرية في مظاهرات الجامعة، الذي يدعي هو أنه كان جنسا غير مكتمل، على وعد - كما يدعي- بأن تمنحه نفسها وثقبها الأسود اللزج الحقيقي حين يقتربا من تحقيق أحلامهما، أي عقب حصولهما على شقة، وإن كانت تعلم بأن ذلك أمر مستحيل في ذلك الوقت، ولأن الأمر كان بالفعل مستحيلا في تلك الفترة،

فإنها كانت تعلم بأن انتهازيتها ستأتي يوما ما وتجعلها تتخلى عنه، ربما هذا هو تفسيري غير الدقيق للأمر وقد أكون مخطئا بالمرة حيث أنني لم أستطع الحصول على معلومات كافية تبرر فقدان فتحي لذاكرته، كما أنه على مافي هذا الأمر من إهمال متعمد لقدرة المرأة على المشاركة، إلا أن انتهازية المجتمع فرضت نفسها على كل شيء في تلك الفترة نظرا للزيادة الهائلة في عدد السكان " زحمة.. أليس كذلك؟"، وهو مالم تتداركه الحكومة سريعا نظرا لانشغالها في صراعات خارجية أو هكذا كان يقال، ولم تدرك الحكومة أبدا بأن الانجاب في تلك الفترة كان ناتجا عن عدم إيمان الناس بما تقوم به الحكومة ورفضا لكل مبرراتها، وفتحي أيضًا لم يكن أقل انتهازية حين رضي بأن ينام معها بهذا الشكل، كان الأمر بينهما إذن إرواء للجنس بشكل يقبله المجتمع من بنت شرقية، أي لاتمنح نفسها لرجل دون أن تتزوجه، وهو أمر احتال عليه الأولاد والبنات في الجامعة الآن بالزواج العرفي المتبادل، الدين يقدم حلولا جاهزة للتراث الشرقي العريض والقاتل!

من جانب آخر بدأ الخروج من دولة بين السرايات إلى مدن العالم الأوروبي، منذ زمن طويل بدأ ذلك، وهم في ذلك لايختلفون عن جدودهم من الفاتحين العظام، إلى الحد أن أبناء أسر بأكملها استوطنوا دولا مثل اليونان وإيطاليا وفرنسا، والأغلبية عملت في مهن وضيعة، بعضهم لهم علاقة بالمافيا وتجار المخدرات، لن يتذكر فتحي أبدا (جلال الشاطر) أحد أصدقاء الطفولة القاتلة في دولة بين السرايات، جلال الشاطر كان ولدا لم يحصل من العلم

إلا على شهادة دبلوم التجارة بادعائه أن ذلك أقصر طريق للخروج من "قاف"، ما فائدة شهادة جامعية إذا كنت ستستمر حبيسا للوطن أربع سنوات أخرى، كان ذا عيون خضر وجسد متناسق كلاعب باليه قديم، جلال الشاطر كان يمتاز بحس لصوصي نادر، ذات ليلة ترك دولة بين السرايات الصغيرة وذهب إلى إيطاليا، لكنه عاد بعد عام في إجازة سريعة بثياب فاخرة تاركا لأصدقائه جاكتته الشمواة وعلبة سجائر ذهبية ومائتين من الجوند وزجاجة "دمبل" كبيرة الحجم وقطعة كبيرة من الحشيش المغربي المستورد وبعض علب السجائر المحشوة بحشيش هولندي التركيبة، وكذلك زجاجة عطر "هوجو" الذي أعتقد أنهم قاموا بشربها تلك الليلة على ظن منهم بأنها إحدى زجاجات الخمر التي تركها الشاطر خلفه، لا أحد يتذكر الآن لما فعل ذلك، ربما بعد أن لعب الخمر برأسه، بعد عدة أيام اصطحب جلال الشاطر معه أخيه الأصغر عائدا إلى إيطاليا لمكالمة فجائية كما قال، انقطعت أخباره عامين كاملين، ليتصل بعدها بأمه ليخبرها بأنه في سويسرا، وبعد شهرين وصلت الأخبار بأنه تم حرقه وزوجته وابنتيه في سيارة لقيامه بالهروب لسويسرا ببعض أموال المافيا، بل والأنكى أنهم وجدوا آلاف الدولارات التي سرقها محترقة معهم أيضا، بل تم حشو بعضها في فمه وفي مقعدته وفي أفواه بقية أسرته، هو الوحيد الذي ظل محسودا بينهم رغم كل ذلك، كثير منهم تمنى الموت بهذه الطريقة أن يموت محشوا بالدولارات، يالها من ميتة عظيمة، أيضًا مالم يذكره فتحي أن أصدقاءه الذين تخرج معهم وعاشوا

معه طفولته تفرقوا في أرض الميعاد المسماة بين السرايات، شوارعها الضيقة ومحلاتها القليلة على كثرتها، وسكانها الذين يكاد يعرف بعضهم البعض حتى على مستوى الوجه، إذ لابد لهم من المرور بالخارج من شارع ثروت، وحتى الكوبري الحديدي الجديد، هذا الكوبري الذي تم بناء عشرات من الكباري والجسور في (قاف) في الثمانينيات ليحل مشاكل المرور لمدة خمس سنوات على الأكثر، أصبح الآن بعد عشرين عاما جزءا أساسيا من شوارع (قاف) و(جيم)، هذا الكوبري الذي يهبط عبر الطريق الرئيسي في نهاية بين السرايات إلى عزبة (أبو قتادة) حيث يشاهد الجميع بعضهم البعض، وحيث تحول أحد أصدقاؤه إلى رجل دين يدعي أنه من آل بيت النبي، وهي ظاهرة تنتشر الآن ومنذ مدة ليست باليسيرة في ربوع المدن الطيبية، له مئات التابعين، كيف حدث ذلك، لا أحد يدري؛ لكن أغلبهم يدعي أن ذلك حدث لأن الرسول قد زارهم في المنام، وأنهم رسموا شجرة العائلة ليكتشفوا هذه الحقيقة، إذن فإن هذا التغير المبني على الفوضى يحتل الرقعة كلها تقريبا، وهكذا تعيش تلك الدولة الصغيرة بين أوهام وفقاعات عالم المعلومات، وبين أوهام دخان المقاهي، وبين الدعوات الدينية، وبين التفسخ القادم من الانقلاب التكنولوجي، وهجوم الخصخصة، هذا الذي لا أدري إن كان فتحي قد كشف عنه فيما سبق من صفحات حتى الآن، أم لا، لكني أعتقد أنه يترك الأمر لفطنة القارئ! .

كان فتحي يجتمع بأصدقائه كل مساء في المقهى الوحيد الذي

يقع بجوار مصنع البيرة هناك، هذا المصنع الذي سيطر عليه – بتراب الفلوس– أحد أبناء المسئولين من شركاء شركة كوكاكولا العالمية بعد ذلك من خلال العمليات التي تمت لبيع القطاع العام، والذي بدأ في طيبة بعد أن هدد البنك الدولي والولايات المتحدة بقطع معوناتهما وقروضهما فبدأ بيع الشركات الرابحة، وحتى يمكن تغيير الصورة الذهنية عن طيبة بأنها بلد تأميم فقط، في إشارة واضحة لما قام به عبد الناصر في الستينيات، قاضية – أي كوكاكولا العالمية – في ذات الوقت على تاريخ طويل لقطرات المطر القدامى ارتبط بالكشك الذي كان يقع أمام المصنع، هذا الكشك الخشبي الأصفر الذي كان يقبع أمام بوابة مصنع البيرة والذي كان يجلس به الحارس العجوز الذي كان يختفي حين يقبل المساء، حيث كان يقوم بتأجيره لبعض النسوة، فيتحول الكشك في قلب الليل لماخور بلدي رخيص لايتعدى عجيزة امرأة، بينما يحاول فتحي وأصدقاؤه أن يختفوا خلف عجيزتها التي لم تكن تسمح لهم بأكثر من عشرين سنتيمترا تم قياسهما بناء على منهج مسحى "تقولش مسطرة" تتم فيه ممارسة الجنس السريع مقابل ثلاثة قروش ونصف القرش – وهو بالمناسبة نفس المبلغ الذي كان يدفع ثمنا لتذكرة سينما درجة ثالثة في ذلك الوقت– مع نساء لايمكنك أن ترى وجوههن أبدا، وإنما وجوه ملفوفة في طرح سوداء ثقيلة لتتفق على السعر، وحين ينفحوها ماتريد، فإنها تمنحهم بالتالي عجيزة غالبا ماكانت قوية للغاية، ولا يأخذون وقتا طويلا في الوصول للثقب الأسود اللزج غير المرئي لكنه كان

واسعا بما فيه الكفاية ليؤدى الغرض النهائي منه، ليكتشفوا بعد سنوات أنها - أي العجيزة اللعينة المضمخة برغبة لاترتوي ولم تكن لترتوي- أن هذه العجيزة كانت لعجوز تعدت الستين "عادي جدا!"

لاهم لأصدقاء الطفولة والصبا لفتحي في الحياة سوى الجلوس على المقهى كل مساء، وفي الصباح لايفعلون شيئا سوى النوم، وحين يأتي المساء يجتمعون في المكان المقدس حتى الصباح، وحين ظهر اختراع ماكينات تصوير الورق، وازدادت أرباحه عملوا جميعا به، حتى أصبح لهم محلات ودكاكين هناك، ثم تفرقوا في مقاطعات أخرى في (جيم) و(قاف) لزواج جديد أو طلاق جديد، وأصبح لهم عشيقات، حتى بعضهم الذي ذهب لدول البترول عاد ليفتح دكانا لتصوير المستندات، وإعطاء الدروس الخصوصية في الشقق العلوية ونسخ برامج الحاسب في محلات الكمبيوتر، كان مد مجتمع المعلومات قد وصل إلى هناك قبل أن ينتشر في ربوع طيبة.

لدولة بين السرايات ميزة استراتيجية عن بقية مقاطعات "قاف"، حيث كانت المكان المفضل للتغيير السلوكي للشعب الطيبي قبل انتقاله للمقاطعات الأخرى، ورغم ذلك وإلى عهد قريب كانوا يستيقظون في الصباح ببيجاماتهم والأطباق الصاج في أيديهم والخبز والجرائد تحت إبطهم ليقفوا أمام محل بيع الفول الوحيد الذي أصبح مكانه هناك في قلب (الخرطة)، وهو أحد الشوارع الداخلية المشهورة هناك، الأميون منهم والمتعلمون أصبح هذا

مصدر رزقهم – تصوير المستندات – الذي جعلهم يعيشون بشكل كبير في أموال أكثر وقلق أكثر وجنس أكثر وصراعات أكبر، ولم يهتم فتحي بهذه المسألة، كان غارقا في الكتب والمجون أحيانا إذا أتيحت له الفرصة، لكنه أيضًا عمل بعض الوقت في تلك الدكاكين التي جعلت شوارع بين السرايات بعد أن كانت تمتلئ بروث الحيوانات وأوراق الصحف وقطع القماش القديمة وأعقاب سجائر البلمونت والكيلوباترا السوبر والبيوت الفقيرة ذات الطوب الأحمر أو تلك المصنوعة من الأحجار البيضاء الكبيرة والخشب، إلى أن تتحول لأكبر مكان في طيبة تجد على سطح شوارعها أوراق التصوير السوداء الممزقة وبقايا سندوتشات مؤمن وكنتاكي، ومما دفع أيضًا عددًا كبيرًا ممن لم يستطع التواؤم مع العالم الجديد إلى أن يهجرها، حتى (الدوار) والذي يقع في المنطقة الشرقية من دولة بين السرايات الذي كان عبارة عن مجموعة من العشش التي كانت مخصصة لحرافيش العاملين في قصور السلاطين حين بنيت المنطقة بين أحراش حديقة الأورمان وقصور السلاطين والخديوية والباشوات لخدمة القصور والجامعة وحدائقها ومن بينها حديقة الأورمان، وهي منطقة تتميز بانتمائها لعصور ماقبل الحضارة الصناعية والمعلوماتية، فهي بكل أمانة تنتمي لعصور الرعي والزراعة، ومن المؤكد لأحد العصور الحضارية التي سبقت هذه الحضارات والتي لم يكتب عنها على الإطلاق في الكتب المتعلقة بتاريخ الحضارة، لطبيعة بناء البيوت فيها التي تقترب من الطابع الريفي حيث لايمكن لسيارة المرور بها، ولتكاثر الكلاب،

والحيوانات الأليفة في داخلها، المهم تحولت بعض بيوت هذه المنطقة إلى ناطحات سحاب بعد أن تخلص أولى الأمر منهم من أصحاب بعضها أو ماتوا أو تم إيداعهم مستشفى المجاذيب، وعلى سبيل المثال فإن الست (سكينة) وهي عجوز أصابها داء الكلى الذي كان يعمل بدوره على ازدياد كمية البولينا في دمها في نهاية أيامها، مما كان يدفعها إلى أن ترقص ألما في عشتها الخشبية وهي عارية تمامًا، حتى نهشتها الكلاب التي كانت تربيها ذات ليلة، بعد أن سقطت غائبة عن الوعي في نوبة من تلك النوبات العنيفة، وحيث إنه ليس لها وريث فقد قام شخص مجهول بوضع يده على العشة، وبعد أيام أودع نفس الشخص ولدا يسمى (م. العبيط) - سأطلق فقط الحرف الأول من أسمائهم لتشابهها الشديد- في السراية الصفراء، و(م. العبيط) واحد من أهم رموز دولة بين السرايات القديمة في السبعينيات والثمانينيات حيث كان لا يتورع عن إصابة أي شخص بحجر دونما سبب حقيقي، وكان (ميم) والذي كان ابنا مخلصا لرجل عجوز كان يعمل حارسا بحديقة الأورمان أيام الملكية، ولما انتهت الملكية أصبح جزءا أسمنتيا من العاصمة "المجهولة"، أنجب الرجل إبنه الذي اشتهر باسم (م. العبيط) ومات الرجل ليترك خلفه رمزا خالدا، وحيث كان "ميم" لعبة الصبيان والمراهقين، وأصبحت بين السرايات بعده بلا عبيط بعد موت "ف. العبيط" أيضًا الذي كان يسكن أحد شوارع بين السرايات نفسها مع إخوته البنات، وانتهى رمز من رموز دولة بين السرايات القديمة في مستشفى الأمراض العقلية

وطردت أمه من العشة التي كانا يسكناها ليخلو المكان وباتفاق مسبق اشترك أكثر من شخص في المشروع لتنهض عمارة عالية، كان المجتمع يتخلص من أدرانه القديمة ويرحب بالمجتمع الجديد، فيما قامت الحكومة نفسها كسيد آخر لايمكن رد طلباته باقتطاع جزء من ملاعب الجامعة لتصبح كلية للتعليم المفتوح، التي أصبح يرتادها الموظفون للحصول على شهادة جامعية ولتدور هناك قصص حب جديدة لكبار السن الذين لم يلحقوا بقطار التعليم الجامعي، ولتتم لقاءات جديدة بين سيدات فاتهن قطار الزواج أو قطار التعليم وبين رجال لم يستطعوا الزواج لضيق ذات اليد من جانب، ومن جانب آخر تحسين صورتهم بالحصول على شهادة جامعية قد تمكنهم من الزواج، تدفعهم جميعا الرغبة في تحقيق فوائد مادية أو اجتماعية تمكنهم من تحسين وضعهم التعليمي كما يشاع.

نائبة مجلس الشعب عن دائرة بين السرايات والدقى وهي وزيرة سابقة لشئون المجتمع، معها نائب آخر ينجح لارتباطه بها، وتنجح هي لنجاحها في رصف شوارع بين السرايات في أحد السنوات كما أنها تقدم في كل موسم انتخابي مجموعة من بطاطين الشتاء لأهل دولة بين السرايات الكرام وبعض المعونات التي تصرفها لهم وزارة شئون المجتمع الطيبي وهو حال الانتخابات دائما في كل مكان في طيبة، كما أن بعض رجال الأعمال يتركون على رأس الشارع الرئيسي ببين السرايات يافطة عملاقة لتهنئة السيدة الوزيرة كل عيد باسم أهل بين السرايات الكرام وعلى

الرغم من نجاح نائب من الإخوان المسلمين وفقا للأصوات التي منحت له إلا أن الحكومة بقدرة قادر جعلته يسقط سقوطا مدويا أمام الوزيرة، وهو ماحدث تمامًا في أغلب مواقع الانتخابات الأخيرة في طيبة، وعلى الرغم من أن انتخاب أهل طيبة تم لنواب يمثلون التيارات الدينية أو المعارضة نكاية في حزب الحكومة ليس أكثر، إلا أن أغلبهم سقط بعد الجولة الأولى حتى لا يسيطر هؤلاء على مجلس الشعب وبالتالي يصبحون شوكة في حلق الحكومة، على الرغم من أن الحكومة كلها يختارها "المسكوت عن اسمه" من (الحزب العظيم) الأخضر والذي يؤكد"المسكوت عن اسمه" أن هذا الحزب يمثل الشعب الطيبي كله، ويؤكد ذلك أيضًا إبنه أو الوريث القادم كدليل على انتهاء الجمهورية في طيبة، كل ذلك والشعب الطيبي سعيد ويضحك ملء شدقيه ويظهر ذلك واضحا على صفحات الصحف القومية والتليفزيون القومي وهو يتفرج على الفريق القومي ويتحدث في الإذاعة القومية ويتناول المشروب القومي في ذات الوقت، الحقيقة أيضًا أن أصدقاء فتحي ممن أصبحوا رجال أعمال في دكاكين التصوير أصبح بإمكانهم التصويت لنواب الحكومة لأسباب في غاية الأهمية، منها أن رجال الضرائب نادرًا ما يطالبون هؤلاء بالضرائب التي عليهم، وأن حملات رجال المصنفات الفنية مرتبة ومخططة مسبقا، وهو نفس الأمر تقريبا في أغلب البلد فالناضورجي الذي يعمل بالمصنفات أو الضرائب يقوم بالتبليغ فيتم التحوط، ومقابل ذلك يتم منحه عدة مئات من الجوند الأسطوري، في هذه البيئة، البيئة

العدمية تمامًا، فقد فتحي ذاكرته عن عمد، وهو ماهيأ له هذه الفرصة المناسبة ليكتب عنه زين عبد الهادي هذه الحكاية، وهو ماكان سببا في انفصامي كممثل ثاني للسيد زين لإلقاء بعض الضوء على حياة السيد فتحي، السيد فتحي الذي يردد

سمر واين...

سمر واين يا كلاب السكك..

زحمة برضه ياكلاب السكك..

الفصل الثامن

☹

(١)

لايمكنك أن تحرك قطع الشطرنج بلا مبالاة، فالأمر يستوجب دائما نوعًا نشطًا من اليقظة، نوعًا من التحوط المدروس بعناية، أن تكون لاعبًا دون يقظة يعني أنك تلعب شيئًا آخر ليس بالتأكيد الشطرنج، وإنما لعب من فصيلة حلق حوش!..

كانت كلمات أمي "لاتبتعد كثيرا عن الطريق حتى لاتضل"، لكني لا أتذكر أمي الآن ولا حتى ملامحها، لم تهبني الحياة هذه القدرة، ولذلك أصبحت ذاكرتي مجموعة من الأقوال والأفعال المركبة في غير نظام، لاتعطي حياتي معنى محدد لأي شيء، ففي ظني أنه ليس هناك من يملك في هذا العالم أي معنى، حالة نهليستية غريبة لكنها مقبولة في ظل حراك الأسعار والحراك السياسي والحراك الاجتماعي والحراك الجنسي وحراك النقاب وحراك الحرية وحراك الأحلام، موزايكو من الرغبات الخائبة والأفعال المنهكة، لا أدعي أنني سأقدم في هذه الرواية الكثير، فتوقفاتي على الرقعة كانت طويلة للحد الذي فقدت فيه كبيدق الهدف الحقيقي للوجود، وللحد الذي فقدت فيه إحساسي بالزمن، لكن رسالة "ميغان" أعادت الدماء في عروقي التي كنت أظن أنها

جفت فيها، لا أدري سبب محدد لذلك، كانت صورها العارية توحي لي بجسد قديم أعرفه جيدا، لايمكن أن أنساه حتى لو فقدت ذاكرتي ألف مرة، للجسد أحيانا صورة ملائكية لاتنمحي، كان الموعد قد اقترب، وكنت أفكر في الطريقة التي سأتعامل بها معها، ولم تنس أيضًا في تلك المرة أن ترفق صورا جديدة لها مع خطابها الإلكتروني، وأحالتني فيه إلى موقعها الجديد على الإنترنت، الذي امتلأ بحواراتها مع مجلات "البورنو"، وبأنها قريبا بعد عودتها ستقوم بتصوير أحد تلك الأفلام الزرقاء، كما امتلأ بصورها التي تشبه شلالًا من المطر وليست بضعة قطرات، كنت أظن أن انتظاري لها يستحق، كانت "ميغان" تستحق هذا الانتظار، بالفعل تستحق، خصوصًا وأنها أكدت علي تسعيرتها الخضراء التي لم أنسها، وهو دليل عميق على اهتمامها بالبيزنس الذي تقوم به، وأعتقد أننا فاشلون في "البيزنس" لعدم اهتمامنا بالتفاصيل، فهي قد حددت سعر الساعة، فيما نحن لانهتم بالوقت، وحددت سعر كل حركة سيأتي بها الأخ الذي سيرضى بمرافقتها، وقطرات المطر الطيبيات يعطون عن وسع في هذه المسألة، وتحدثت عن أهمية أن لايكون الرفيق مريضا بأي مرض، فيما تقوم الطيبيات بتقديم العلاج للمرضى من رفاقهن، كما أن اهتمامهم ليس كبيرا بمسألة الدفع، خصوصًا أنهم يتعاملون بالجوند وصابون "كامي" وحذاء جديد أو قميص نوم جديد أو زجاجة بارفان، ولا مانع من علبة سجائر "مارلبورو"، بينما "ميغان" لاتتزحزح عن مسألة الأوراق الخضراء، وهذا يبين الفارق بين

نوعي القطرات، ليس في البيزنس شفقة أو حنان أو طيبة، مافيش طيبة في"البيزنس يا"ميغان".. سمر واين يا"ميغان"، وما ذكرته من مقابل هنا لم آت به من بنات أفكاري وإنما منصوص عليه في كثير من البحوث الاجتماعية والنفسية التي تناولت قطرات مطر طيبة، لزوم التأكيد على مرجعيتي في الكتابة!.

في الليلة الأولى لعملي في الفندق ركبت الأسانسير في الثالثة صباحا مع فتاة ذات عيون سحرية كيميائية أشبه بعيون ممثلة ستينية اسمها سعاد حسني، عيون حبلى بالشقاوة الطيبية الأصيلة، وأعتقد أن كليوباترا كان لها السبق في ذلك أو هكذا كنت أظن، كانت طويلة كعادة الأمراء في الحصول على الطويلات وهو نازع يدل في ظني على حالة من التعويض النفسي، لم ألمح في الأسانسير امرأة قصيرة من قبل إلا إذا كانت من أتباع الطائفة البترولية أو من جنوب شرق آسيا، أما المغربيات ذوات الأصول الإسبانية والطيبيات ذوات الأصول التركية والفرنسية فطوال القامة بحكم التاريخ الأسري، وعلى ذلك ستلتقطهن العيون النهمة بسهولة، وهو أمر غريب، في ظل تسريب القصيرات أو الطويلات القبيحات لملاهي شارع الهرم التي تنتمي للدرجة الثالثة، وعليك أن تلاحظ أن جميع من يعملن بشارع الهرم يصبغن شعرهن باللون النحاسي الأصفر كناية عن رغبتهن في إثارة رجال شارع الهرم الأبطال، الذين يحملون شكماناتهم داخل سراويلهم، الذين عليهم أن يحلموا دائما بأنهم واقعين في غرام ست الحسن والجمال الشقراء، وربما لدواعي أمن معينة سرية

مطلوب منهن ذلك حتى لاتحدث ثورة على نساء البلد سوداوات الشعر، أو ذوات الشعر المجعد، ولعل فترة السبعينيات كشفت عن أهم اختراع موجه لهؤلاء وهو مستحضر "آرتي هير" الذي كان يجعل الشعر المجعد غاية في النعومة ولكن أطراف الشعر كانت دائما ماتكشف أصله التراثي، إنه أمر محير تمامًا .

(٢)

هذه المقابلة لم تكن منصوصًا عليها في خطة اللعب التي أحاول أن أنفذها بدقة بسبب القدر الذي يتحكمني تمامًا، الخروج عن النص القدري المكتوب على الرقعة ليس مسموحا به إطلاقا، لكني أدعي أن هذه الحركة لم تكن مؤثرة على اللعبة التي انغمست فيها، عموما لا أدري ما الذي حدث إذ إنها توقفت في الدور الثالث، وخرجت وحين صعدت وهبطت مرة أخرى توقفت في الدور الخامس وجدتها أمامي حين انفتح باب المصعد، فوجئت بي، تطلعت لي طويلا، وربما أخذت في محاولة قياس رد فعلي على ماستفعله، كانت تقيسه بدقة مخضرم عتيق في هذه المسائل فلم يرمش لها جفن، كانت تتطلع لي في جدية كاملة، ثم حزمت أمرها وقالت فجأة بصوت خفيض حازم أو حاسم، يمكنك اختيار ماشئت من هذه المسميات "اسمع أنا عارفة إنك بتاع أمن.. أنا طالعة فوق في الآخر – وأشارت إلى الأعلى – هاديك الفلوس اللي معايا كلها وكمان هابسطك قوي هنا (وأشارت إلى الأسانسير) .. بس تسيبني أطلع."!..

لم تنتظر إجابتي، دخلت المصعد دون تردد، فعلت كل شيء بعد ذلك بصرامة وآلية، سرعان ما فكت أزرار البلوزة الحريرية التي تظهر منها ذراعيها البضتين، بثلاث قفزات سريعة من أصابعها، كأن فأرا صغيرا يركض فوق صدرها، خفضت السوتيان (البرا في قول آخر) بحركة من إصبعها ساحبة إياه إلى أسفل، فيما رفعت جيبتها القصيرة بنفس الإصبع وحقيبتها التي كانت معلقة على كتفيها ألقت بها على الأرض بعد أن أخرجت مائتي دولار وضعتهما في جيبي، لباسها الداخلي أصبح معلقا في قدم واحدة، ثم دفعت بيدها نحو بنطلوني وسحبته لأسفل مع السروال الداخلي فأصبح نصفي الأسفل عاريا هو الآخر، لحست باطن يدها بلسانها ثم أمسكت بشكماني الذي كان يشحر منذ فترة وجيزة، وداهمتني سريعا دون حتى أن أتحرك، خلال ثلاث دقائق من الطلوع والنزول في المصعد، كنت أحاول التركيز، التركيز، كنت بالفعل أحاول التركيز بكل قوتي إلى أن فقدته تمامًا، وانسقت خلفها، كنت أضع يدي على صدرها دون أن أراه، حاولت رؤيته كأني لم أفعل ذلك من قبل، ربما تدفعني رؤيته لأن أفعل ذلك باشتهاء، كان لدي اشتهاء مضعضع، حين وضعت يدي على حلمة صدرها أحسست بها تنسحق تحت كفي كقطعة من "الغريبة" البلدي، كان إحساسا مرعبا محشوًا بشهوة لا تنتهي حتى النخاع، لكنه كان حقيقيا، كانت الدماء ترتفع في رأسي سريعا، رأسي التي دفستها ككتكوت صغير في صدرها ورقبتها استمتع برائحة عطرها وسخونتها المركبة كيميائيا، ثم رفعت قدمها إلى أعلى

لتفسح مجالا لي كي أدفع بنفسي إلى تلك النقطة الكونية التي لا أستطيع تخيلها أحيانا، كيف يمكن تخيل ثقب أسود لزج، إنه يجذب إلى الداخل فقط، لايمكن مقاومته، كانت المرايا التي بالمصعد تعكس صورتنا من كل جانب، كان الضوء شديدا ورائعا، ضوء يحكي تفاصيل لم تكن لتغيب عني، آلاف الصور تعكسها المرايا، وأنا ملقى بظهري على حائط المصعد، حين وصلت لخط النهاية الفاصل وانسكبت روحي المحبوسة منذ سنين داخلها انسحبت وأنا أتنفس بصوت عال، السجائر الرخيصة قطعت أنفاسي، وكنت أظن أنني أحلم، وأنني جالس في مقعد في صالة "مينا" أدخن سيجارة حشيش، إلى أن اكتشفت أنني في المصعد كنت أمارس الجنس ببساطة مع "قطرة الماء اللذيذة" "هناء" طويلة القامة وذات الساقين القويتين الناعمتين، كنا قد انتهينا، لملمت ثيابها سريعا كأنها لم تفعل شيئا، وهي تبتسم، وخرجت إلى الدور السادس والعشرين حيث مقر الأمير الذي لايراه أحد.

هنا كان دوري كقطعة شطرنج قد بدأ في التحقق، كنت أشعر بالحياة الكاملة تدب في أوصالي، كان نسيجي الخشبي يتحرر، وكانت الدماء البشرية التي نسيتها قد بدأت تنسكب داخل عروقي الباردة، كان اشتهاء بيدق آخر على الرقعة الموعودة واحدا من الأفعال الجديدة التي يجب أن ينظر إليها صانعو قطع الشطرنج باهتمام، مما كان يستدعي تغيير شروط اللعبة لصالح هذا التطور البيولوجي الجديد!

(٣)

كنت أنا على حالتي ألملم سروالي، محاولاً إعادة التركيز لنفسي التي فقدتها لعدة دقائق بدت لي دهرا لم يتكرر من قبل، لقد بدأت أفهم سر اللعبة، سريعا ما كنت قد أدمنتها، أنتظر حتى الثانية والنصف صباحا ثم أقم باصطياد اثنتين أو ثلاث منهن، أختارهن في بعض الليالي للحصول على المال والجنس، وكنت أذهب لراشد أحاول أن أحثه على الإسراع في مسألة الطباعة ورسم الغلاف، كانت الحياة تبتسم، فقط في الأسانسير في الثالثة فجراً أقوم باصطيادهن، إلى أن أصبحنا مع الوقت أصدقاء وبدأ المحصول يزيد، أحيانا أرى بعض الرجال يصحبون "قطرات المطر اللذيذة"، آخرهم صاحب الشعر الأسود المائل للون النحاسي الذي غالبا ماكان يصطحب ثلاث فتيات أو أربع ثم يبدأ مع الوقت يصطحب اثنتين ثم ينتهي بواحدة، كنت أتعجب من هذا الأمر، لم أعره اهتمامًا كثيرا وقتها فقد كنت غارقا في القطرات التي تمنحني الإحساس بالحياة، هل كان يمكنني التفكير في معنى للحياة في هذا الوقت غير الجنس والنقود، ابتسمت الحياة صحيح لكنها أرادتني قوادًا لبعض الوقت ليس إلاء ليس هناك مايضير لبعض الوقت، ليس هناك مايضير أن تكون فاسدا لبعض الوقت، يمكن أن تستقيم الحياة مع الفساد، هذا هو أول الطريق، أول الطريق وآخره، هاها..أنا فاسد، فاسد تمامًا يا"قاف" دون أدرك معنى محددًا لهذا الفساد، لم يكن الفساد مصطلحا قد ظهر في قاموسي الشخصي قبل هذه اللحظة، لكنه كان نائمًا داخلي ينتظر لحظة

الاستيقاظ..

سمر واااين...

سمر واين ياكلاب أنا فاسد..

أول الطريق ياطيبة ..

أول الطريق!

(٤)

هل يمكنني أن أكمل طريق كتابة رواية وأنا فاسد، الرواية حركة مبدعة تمامًا في تاريخ البشرية، وأن يقوم بيدق ليس له قيمة تذكر بكتابة رواية فهذا تطور عظيم أيضًا علينا أن ننظر جيدا في قيمته، لكن هل كان بإمكاني الحديث عن الشرف وأنا فاسد، سأضطر إلى سحب الرواية والانسحاب من الحياة كلها وأنا فاسد، الحياة جميلة ومريحة مع الفساد، أغمض عيني وأهب نفسي بعض قطرات المطر الكيميائيات، وأهب جيبي حفنة من الأوراق الخضراء، أهب نصفي الأسفل وشكماني مايمنحه الدفء، وأهب رأسي بعض الحرية في عدم التفكير فيما ينقصني، ما أمتع الحياة في تلك اللحظة، لا أريد أن أقسو على نفسي فالجميع يفعل ذلك، مبرر جيد لاستكمال طريق الفساد، مايردعني عن ذلك هو أنني أكتب رواية، الرواية طريق للشرف، لايتحقق الشرف إلا ببعض الفساد، يجب أن أتذوقه جيدا لأعرف من أين يأتي المذاق المر، ربما من تكالب المحن، ربما، وربما من الذات حيث لامبرر أمامها للتقدم، كنت على يقين من أن الشرف لايكتب وإنما هو

إحساس دفين، فقد تحققت أحلام أمم بعدم الشرف، التاريخ يقول ذلك، يقوله عن جدارة، وأنا لست ممن يشككون في التاريخ على الإطلاق، أشكك في أفكاري، أشكك في أحاسيسي لكن التاريخ هو السيد المطلق الجناحين، الشرف ليس كلمة مسجلة في التاريخ، التاريخ العظيم كله ضد الشرف بشكل أو بآخر، الشرف إحساس ثقيل يطبق بفكيه على رقبتي لكني أظن أنه يمكنني أن أتحلل منه الآن على الأقل.

حين أعود في المساء إلى الفندق وكانت تلك الأفكار تنتابني، لا أجد في نفسي الرغبة لفعل أي شيء، أتجنب النسوة الصاعدات والهابطات في الثانية والثالثة فجرا، لا أحاول الظهور، ألمح "عبده مَرْحَبًا" – هكذا اسمه في الأصل- وهو يدخل مصطحبا فتاة جديدة للأمير الذي يسكن الدور السادس والعشرين، إنه كل ليلتين يفعل ذلك، أصبحنا أصدقاء، لم أكن أحمل أي ضغينة له، فالجميع بشكل أو بآخر أصبح يفعل ذلك، أصبح جزءا من سلوكنا الجديد، حتى رجال الأمن بما فيهم والعياذ بالله "رجل أمن الدولة" العظيم الذي يأتي كل عدة أيام للتأكيد على شفافية العمل بالفندق وعمله وأنه بهذا العمل يسير بما يرضى الله والوطن، وحتى العاملين في الخدمة، الجميع ينال جزءا من هذا التبس، كل البيادق على الرقعة تحصل على نصيبها من المكسب، أصبح الأمر يجري بشكل تلقائي آلي، من نظرة واحدة أعلم إلى أين كل واحدة منهن ذاهبة، أعلم متى تفرغ عشة الفراخ ومتى تمتلئ، بعضهن مع الوقت كن يأتين إلينا بطعام كثير وملابس ولامانع من قضاء بعض الليالي

معنا، وكنت قد بدأت تعلم الطريق لأكل الحمام والكوارع وانضم إليها أخيرا طبق "المخاصي" الشهير، كنا نتفنن في تلك الأكلات، "المخاصي" يمكنها أن تفعل مفعول الحبوب الزرقاء أو هكذا كان يقال، أكلة طيبية قلما يمكنك أن تراها، لاتقدمها سوى النساء المغرقات في حواري طيبة، غالبا مايتم استخلاصها من ذكور العجول والثيران وطهيها بعد نزع غشائها الرفيق ويمكن وضع بعض الملح عليها لتقلى بعد ذلك أو تسلق أو تشوى ثم تجد طريقها لمعدة رجل مثلي لايتورع عن أكلها لاكتشاف الطريق إلى اللذة الكاملة، ثم الطريق لبعض المطاعم المدعية أنها شعبية تقدم هذه الوجبات بابتسامة عريضة، الطريق ممهد الآن بفعل تلك العملة الخضراء، هكذا حدثني الحاج كمال إسطفانوس، كان لايبخل علي بحكمة أو أكلة أو قطعة حشيش، كنت الآن أشعر بالراحة، وكان جوا جديدا لي، سمر وااااين، يمكنني أن أرددها في هدوء تلك الليلة فليس مطلوبا مني شيء.

سمر واين ياهدوء..

لامكان لزحمة البعارير هنا...

هاهاهاهاها

الفصل التاسع

كنت أعتقد أن الأمر انتهى..

ولكن تحت ضغط الحاجة أظهر مرة أخرى

حين تركني في المرة الأولى على كوبري قصر النيل لأحكي لكم حكاية الكلب الأسود الصغير الذي يحاول أن يبيض، اعتقدت أن دوري في الرواية قد انتهى لكن ذلك لم يحدث لحسن الحظ، ولاعتبارات تتعلق برؤية صانعنا المسمى زين عبد الهادي قسرا، فإن كنت أمثل نسخته الثانية (واحد من الأكونتس التي خلقها يكتب فيها أحيانا أحد خيالاته التي تتجول في تلك الرواية الملعونة)، فقد حدث ذلك عرضا ولاعتبارات تتعلق بالبنية الروائية من جانب، وبلذة الحكي التي لم يستطع كبح جماحها من جانب آخر، ولسبب يتعلق بمهنته الأصلية كأستاذ لعلم المعلومات وهو شغوف بالحديث عنها ككلب يعوي في المدينة ليلا دون أن يسمعه أحد، على الرغم من تسلق آلاف اللصوص لأسوارها، وأيضًا لأنه يمتلك عشرات النسخ الإلكترونية منا في درج مكتبه بمنزله، يمكنه أن يخرجنا متى ماشاء، اعتقادا منه بأنها أرواح جديدة للعالم القادم، العالم الافتراضي، عالم المعلومات القبيح.!

تركنى هناك على الكوبري مع هؤلاء الجهابذة المضمخين

بالرغبة في المعرفة، وهي معرفة قاصرة على البيض فقط، أو على وجه الدقة بما يمكن أن تخرجه لنا الكلاب الصغيرة السوداء من بيض، كان بإمكانه بوصفه أستاذا لعلم المعلومات، أن يضع صورة لهذا الكلب الأسود الصغير الجميل على شاشة الحاسب ويجعلها تبيض باستخدام بعض التعبيرات البرامجية، للأسف لم يفعل ذلك، ترك هذه المهزلة تستمر على كوبري قصر النيل، ورحلت نسخته الأولى خلفه، لكن لم ينته الأمر عند ذلك، بل سرعان ماحلت نسخته الثانية مكان الأولى مثلما يحدث لآلاف النسخ في عالم المعلومات، نسخ غير متشابهة لكل منها دور محدد، تطور الأمر كثيرًا بدخول ضابط يسير على الكوبري، ضابط صغير ذو ملامح مبتسمة، وكرش صغير أيضًا لكنه كرش لطيف لم ينمُ بعد بشكل موحش، كرش يعبر عن ثرائه الذي لايمكن أن تكشفه البذلة التي يرتديها، وإن كانت ساعة يده والموبايل – أحد اشكال التراث الحضاري الجديد للإنسانية الإلكترونية– ووجهه الأبيض اللامع يمنحون مشهده المزيد من الثراء، حين توقف ليتابع ما يجري في بلاهة منحطة لاتقل عن بلاهتي في نقل الأمر إليكم كمراسل صحفي للروائي الذي تركني في الخلف سائرا في طريقه إلى دولة بين السرايات القاطنة على بعد عدة كيلو مترات صغيرة، كأن الأمر لايعنيه مركزا تفكيره على الأسد الضخم الواقف خلفنا، حاول الضابط أن يدرك مايحدث وكان يتحدث في جهاز اللاسلكي تارة إلى أحد مرءوسيه ويتحدث في الموبايل تارة أخرى لخطيبته ساردا أمامها المشهد وهو يلعن

سنسفيل جدودنا الذين أوجدونا عبر تاريخ طويل من الحنق والتأفف والليالي المؤرقة منذ بناء الأهرام والكوليرا والطاعون والدوسنتاريا والبلهارسيا وصولا لفيروس سي وحفر القناة والاستعمار وصولاً للرجعية واتفاقيات كامب ديفيد والسرطان ونهب الأراضي الذي يتم على قدم وساق ثم مرورا بحالة العجز المسيطرة على الجميع ليقف أمامنا في تلك اللحظة الساكنة والمتعفنة واللامبالية، الضاحكة، كيف أفلت جدودنا من كل هؤلاء فلايبقى في النهاية سوى الطيبيين ليعاقب بهم الله أهل طيبة الباقين على قيد الحياة، يقف في تلك اللحظة منتظرا قدوم البيضة التي يمكنها أن تعلن انتهاء العجز في بر طيبة وهو أمر في غاية الخطورة إذ يمكن لهذا الحدث أن يكدر صفو الأمن العام، أو يقضي عليه لا قدر الله، وهي عبارة ممجوجة لايمكن فك طلاسمها وفق هذا السرد التاريخي، وتارة أخرى يتحدث مع قائده الأعلى في قسم الدقي مستدعيا عربة شرطة، لم يتكلم مع أحد، تركنا في حوارنا المضني حول متى وكيف يمكن للكلب الصغير الأسود أن يمنحنا تلك البيضة العجيبة السحرية، فوجئنا بوصول عربة الشرطة الكحلية الغامقة بشكل يبعث على الريبة من نوع الدبابة الشيفروليه التي تملأ إعلاناتها الإذاعة والتليفزيون، ودون دخول في حوارات ديمقراطية عجيبة عن حقنا في عدم ركوب العربة، ولكن تنفيذاً لقانون عجيب في بلادنا يسمى قانون الطوارئ وهو قانون فرضه الحاكم بأمر الله الرئيس السابق المؤمن الضليع في الإيمان، واستمر عليه "المسكوت عن اسمه"

بهدف مكافحة الإرهاب، لقد فهمت أن القانون لايظهر في الحياة إلا لمعالجة ظاهرة عامة، كانت الظاهرة تتكرر كل عدة شهور، وكانت إدارة الأمن المسماة "العياذ بالله" هي الفاعل الرئيسي في المسألة حسبما كان يرد لها من أخبار مدسوسة، وجدنا أنفسنا – وأنا معهم دون أن يراني أحد بالطبع – في العربة مع أربعة جنود تسلقوا العربة من الخارج هو أمر اعتاده هؤلاء دون انتباه لسلامتهم التي لم تكن تعني أحدا على الإطلاق، بينما نجلس في العربة نتطلع للكلب الأسود الصغير الذي كان يرتعد.

في حجرة الضابط النوبتجي وأمامه، جلس الضابط الصغير يتحدث مع خطيبته ناقلا لها المشهد الدرامي كاملا، سواء عبر حديثه لها، أو عبر كاميرا الموبايل، التي مايفتأ يحركها بيننا كراقصة تستمتع بمرآنا المعكوس على صفحة وجهها السوداء، إنه ينقل الوقائع بشكل حي، نابض بالحياة الخالية من المعنى، بينما نقف نحن أمام الضابط الآخر نحاول شرح الأمر، كان يتطلع إلى حفنة مجاذيب كوبري قصر النيل دون أن يعي خطورة الأمر، نهض ودار حولنا كأننا مجموعة من عارضات الأزياء أو العشيقات اللائي سيلتهمهن بعد لحظات ثم عاد إلى كرسيه، وتوقف الضابط الصغير عن الكلام، لكن الضحكة الماجنة التي كانت تتراقص على شفتيه انطلقت ومعها ضحكة الضابط الآخر، وكنا نحن نتطلع لبعضنا البعض في جدية وصرامة ولسان حالنا يقول "على ماذا يضحك هؤلاء المجانين ؟"، سألنا الضابط النوبتجي بعد أن توقف عن الضحك " من صاحب الكلب..أنت"

وأشار إلى الرجل الخمسيني الذي حمله في حنان فهز رأسه، وفجأة دفع إليه بسؤال يليق بالموقف

"وانت ياروح أمك كيف تريده أن يبيض.. هههههههه"،

لم يفهم الرجل السؤال جيدا، ولم نفهم نحن، أجابه بلغة فصيحة،

" ليست المشكلة في كيف يبيض..المشكلة في الوضعية التي يمكنه أن يبيض عليها؟"

"أستغفر الله العظيم..شكلها ليلة سوداء"،

ثم طرق قليلا وفجأة قال كمن تذكر شيئا

" انتوا بتتكلموا بالفصحى ليه.. انتوا لازم تتكلموا بالعامية.. أنا كده مش هاأقدر أكمل الحكاية.. مش عايز أسمع تاني كلمة بالفصحى كله يشتغل عامية يللا.."

ثم ابتسم تلك الابتسامة الصفراء وروحه نتخيلها متوقفة على باب زوره الذي يبتلع شيئا ما، ونادى على عسكري يقف بالخارج

" يا طومان"،

هرول العسكري ليقف أمامه

" أؤمرني ياباشا"

"عايزك تقول لهؤلاء الناس كيف يمكن للكلاب أن تبيض عندنا.. هه"

" والله ياباشا المسألة سهلة جدا.. البيض عندنا بيطلع بالضرب"،

تطلع إلينا دون أن يطرف له جفن

"شايفين..أهه بسيطه جدا.. هاناخد الكلب منكم ونعلقه، لو باض هاسيبكم كل واحد يروح لحاله ولو ماباضش ليلتكم السوده دي مش هايطلع عليها نهار"..

انطلقت منا جميعا ضحكة واحدة جادة تمامًا ،" قالت المرأة

"هذا الكلب مسحور ممكن يبيض فعلا..قدرة ربنا ..هاتدخل برضه في القدرة"

تطلع إليها الضابط " حاشا لله ياستي إحنا مش ممكن نتدخل في قدرة ربنا..إحنا بنتدخل بس عند اللزوم.. وبعدين ربنا باعتنا علشان نتدخل.. نرفض ونقوله لأ..هاه.. نرفض!"

هزت المرأة رأسها

"لأ طبعا..مادام ربنا بعتكم يبقى نسكت مش كده؟"

وتطلعت إلينا، قال الشاب،

" أنا قلت لهم أنه مش ممكن يبيض.. العلم ضد فكرة إنه يبيض.. لكن فيه تجارب تمت في الخارج على حاجات زي كده.. ممكن الكلب يكون اتعرض لتجربة زي دي مثلا!"

تطلع إليه الضابط وهو يبتسم

" العلم.. علم إيه ياأستاذ.. إحنا عندنا علم بكل حاجة.. أنا هاخليكم تشوفوا قدرتنا اللي هي أعلى من قدرات العلم بكل تأكيد"

وتطلع إلى طومان،

" ياطومان .. هات لي الواد عيسى من الحجز"،

خرج طومان سريعا، بينا أشعل هو سيجارة فيما انسحب الضابط الصغير ليحكي لخطيبته في الموبايل عما تم،

" والله ياسمية لايمكن تصدقي اللي أنا شايفه.. هانقلهولك ياحبيبتي مباشرة.. تصدقي كلهم مصدقين إن الكلب الصغير ده ممكن يبيض .. هههه"،

تقدم عيسى وخلفه طومان، وكان يبدو منزعجا للغاية، سأله الضابط النوبتجي ،

"تفتكر ياعيسى لو طلبت منك انك تبيض ..تبيض فعلا"

تطلع له عيسى في رعب وحاول أن يتكلم لكن الكلام لم يخرج من فمه المزموم ،

" بص ياعيسى المسألة بسيطة جدا، أنا هاقولك بيض تروح مطلع بيضة وهاروحك"،

تطلع إلينا عيسى في رعب، ابتسمنا له، ابتسم هو الآخر تلك الابتسامة التي نعلمها جميعا حين يواجه أحدنا بمصيبة تتفوق على كل إمكاناته التي وهبتها له الطبيعة والتي أسكنها الله في جوفه، لكن كان لعيسى منطق آخر لم يخطر لنا على بال،

" ياباشا أنا ممكن أبيض بس في حالة واحدة..أنا مرتبي كله على بعضه مائة وخمسون جوند من المدرسة اللي باشتغل فيها وبدون عقد.. ولما تتأزم..المدرسة تشغلني بالحصة الواحدة ما أحصلش على تسعين جوند.. وممكن كمان مقابل درس خصوصي متدفعش مرتب لكن في حالة إذا إنت أصريت ياباشا أبيض.. بس وحق جاه النبي مرتبي يبقى ألف أو ألفين.. وحياة ربنا المعبود لو بقوا خمستلاف جند لأبيض في اليوم عشر بيضات.. ده مذكور في قانون التطور بتاع داروين.. إن الكائنات الحية اتغيرت أحيانا

تحت ضغط الحاجة..وأنا بيتهيألي أن الشعب كله ممكن يبيض لو حصل معاهم حاجه زي دي"،

تطلع إليه الضابط النوبتجي محاولا إدراك التأويل الخاص بما قد يختفي خلف هذه الكلمات،

" نعم ياروح طنط .. ضغط الحاجة .. أنت بتتريق .. طيب تحت ضغط الحاجة وبدون إنذار هاتبيض ولازم تطلعنا البيضة .. عايزك نموذج للقط الصغير الأسود (مشيرا إلى الكلب) اللي في إيد الراجل ده .. بالطريقة دي ممكن يبيض .. إنت النموذج والقائد ياعيسى .. إنت مولانا اللي هايطلعلنا السر الإلهي من مكانه"

"ياباشا أنت بتتكلم جد"

" أمال باهزر ياجميل .. يللا يللا ياعيسى بلاش لكاعة.. عايزك تقعد على المكتب بتاعي .. أيوه تطلع فوقه وطومان هايساعدك .. يللا بيض يللا ياحبيبي بلاش لكاعه.. يللا ياطومان ساعده"،

تقدم طومان من عيسى الذي ارتد للخلف، اصفرار وجه طومان من أثر الأنيميا لم يمنعه من دفع عيسى للصعود على مكتب الضابط ومساعدته على الجلوس القرفصاء، كانت إذن هذه اللحظة التاريخية في الكون وتحت ضغط الحاجة للخروج بتلك البيضة الآدمية، ومن أي مكان، من طيبة، طيبة أم الدنيا، طيبة التي ستقدم للعالم تحت ضغط الحاجة رجلا يمكنه أن يبيض، رجلا يعمل كمدرس في مدرسة خاصة لن يأتي لها ذكر في

التاريخ المعاصر مرة أخرى تم القبض عليه أثناء إلقائه درس خصوصي لدى أحد أولاد الضباط، ولخطأ ما في اسمه كما قيل – وهذا القول غير معتمد أو يقيني في أذهان أهل طيبة بالطبع فهم يعلمون جيدا أن بالأمر شيئًا آخر غير مذكور في الحكاية – المهم أن عيسى أتم دورة تدريبية قسرية في أقسام طيبة كلها، وفي النهاية أصبح مستباحا من الجميع لرفضه الحبس، مدعيا أن كل مدرسين البلد يعطون دروسا خصوصية عن طيب خاطر، فلماذا هو؟، لم يكن في ظني وأنا أحتل مكاني بديلا للسيد زين عبد الهادي أن كل ذلك ممكن أن يحدث، كان الأمر كله مزحة، لكن مايحدث الآن لايقدم تفسيرا حقيقيا لطبيعة تفكير رجال الشرطة، ولا حتى رجال الشعب، الشعب العالي والواطي على السواء، ولأن طيبة بطبيعتها ولادة، إن اسم طيبة سيتغير مع حدوث هذه الأعجوبة الحقيقية ستصبح طيبة بيّاضة مثلها مثل أي دجاجة سمينة تسير بجوار الحائط أو الحوش أو على السطح، المسألة تتعلق بالتطور التاريخي للأشياء، وسيحدث ذلك قريبا من دولة بين السرايات التي قدمت أعاجيب للتاريخ الإنساني والتي لم يتحدث عنها أحد من قبل، إنه التاريخ حين تعاد كتابته وفق أصول علمانية بحتة، هاهو الموقف في النهاية، يقف الرجل محتضنا الكلب في رعب وجودي متحقق، والمرأة العجوز تتطلع لعيسى تنتظر معجزته، وأنا لا أظهر بحكم كوني نسخة إلكترونية افتراضية، والبنت تخفي وجهها في خجل ورعب والولد يحتضنها في خوف أيضا، والضابط النوبتجي ينفث دخان سيجارته في وجه

عيسى، وطومان الشاحب يتطلع لعيسى كأن الأمر لايعنيه، والضابط الصغير يتحدث هامسا في الموبايل ناقلا الحدث بحذافيره صوتا وصورة لخطيبته كأنه مرآة صادقة لصورتنا الثابتة في مخيلته، لكنه لم ينقل على الإطلاق ملامح وجوهنا، وإن نقلها فينقلها بسخرية مدرب عليها هو لمزيد من الفكاهة ليس أكثر، قاطعا ذلك بالنظر من النافذة على من بالخارج ملقيا السلام والتحية على الأشباح المتحركة الشاحبة والممتلئة على السواء أو من أصحاب الكروش الصغيرة اللطيفة التي مازالت في المهد التي لانراها، وزين عبد الهادي مختف تمامًا.

ولم تكن في الخلفية سوى موسيقى فقط لزحمة يادنيا زحمة، موسيقى نائمة في عالم يتفكك، يتفكك بشكل مدهش.

الفصل العاشر

لايأس بدون رأي.. ولا رأي بدون حياة..

(مع الاعتذار لمصطفى كامل)

(١)

لكل شيء في العالم رأي، للإنسان رأي، للأشياء رأي، للعوامل الطبيعية رأي، للعوامل غير الطبيعية رأي، حتى الشمس لها رأي، ولصدى الموسيقى رأي، ولكوب الشاي رأي، للصحيفة رأي، وللون الأصفر رأي، لصوت الضفدع رأي، كما لشاشة الحاسب رأي، وذلك الحجر الذي اصطدمت به رأي، وحذائي الذي تقاعس عن مهمته كان له رأي، وحين اصطدمت بالأرض كان من رأيها أن أفقد ذاكرتي..

اكتشفت أنني ابتعدت طويلا عن الطريق الذي لم يكن لي رأي فيه، كيف ابتعدت وكنت أقف على رصيف ميدان التحرير منذ عدة أيام، وبالتحديد خارجا من باب (أسترا) في الفجر، وكانت لوحتها الضوئية البرتقالية الناعمة تعكس لونها الوحيد على وجهي، كأني أدخل جهنم في تلك اللحظة، كان الشارع مظلمًا وكان الضوء البرتقالي هو المرشد الوحيد لما أنا مقبل عليه، وحين انتهت الليلة، كان عم عبده الجرسون يدفعني للخارج

صارخا بصوته الأجش المخنوق من سجائر البلمونت التي لاتغادر فمه فاقدة للروح والنطق إلا لتلتصق بها واحدة أخرى،

"رُوح.. رَوَّح.. بيرة تاني لأ.. رُوح.. رَوَّح"

كنت أتطلع إليه أريد أن أبكي، أريد أن أصرخ، أريد أن أبصق في وجه العالم، أريد أن أتبول على كل تلك الوجوه اللئيمة، أريد أن أقتل ظلي الذي يتبعني، أنظر إليه في احتقار، لاأملك سواه في تلك اللحظة، هو الوحيد الذي يتمهل معي، الوحيد الصامت، كأنه أنا، كان أيضًا بلا ملامح، مثلي تمامًا، كنت قد فقدت ملامحي تلك الليلة، وكان بعض دخان عوادم سيارات الصباح يطلق رائحة ثقيلة ويخفي الملامح، وموسيقى وحيدة الروح تطلق أنفاسها الخافتة أيضا، وكما لايمكنني التعرف على ظلي، قررت أن لا أتعرف على وجهي منذ تلك اللحظة، لم أكن أريد شيئًا غير النسيان، النسيان فقط، كنت وحيدا الآن وبلا مقومات داعمة للحياة .

(٢)

أتطلع (لإيزائيفتش) كان مكانه، اللون الأزرق المفضل له، والزجاج الشفاف والستائر التركوازية، تروح بعض الخيالات وتجيء في داخله، فيما تتناهى لسمعي بعض من موسيقى (مش كفاية) لفريد بتوزيع لعمار الشريعي، يطفأ النور وأنا واقف مكاني، خارج التاريخ، حتى ظلي كان قد هجرني في تلك اللحظة، ولم تكن (سمر واين) قد ولدت بعد، كنت بيدقا وحيدا على رقعة

عظيمة الاتساع كثيرة المربعات ولم يكن مطلوب مني حتى أن أتحرك لمربع آخر، كانت صحراء الرقعة تمتد على اتساعها ولم يكن القدر قد اختار لي بعد مربعا آخر، كنت ضائعا تمامًا، حتى السائرين نياما على الأرصفة غير مبتهجين، كانت البهجة ضائعة، لكني كنت أردد بيني وبين نفسي، عادي، لاتوجد امرأة تستاهل فقدانك لظلك، ستكون رجلا آخر فقد ظله، مجرد رجل آخر فقد ظله، على كوبري قصر النيل، وقريبا من أسدي الحبيب، كانت قطعة من ورق تتدحرج على الأرض بلا صوت، لتقترب من سور الكوبري الحديدي فتنسل من بين قضبانه لتسقط في الهواء، تدور في الهواء، لتسقط في مياه النهر، تمتعت بسطح النهر، ذاقها رويدا ثم قرر سريعا أن يدعها فوق سطحه ككائن خفيف ليس هناك داع لابتلاعه سريعا، لم ألحظ في الظلام شيئا قد يوحي لي بأن النهر اعترض، النهر لايعترض على كل ما يلقى فيه، يبتلع الأشياء والأفكار والأحاسيس والضحايا والكلاب والقلوب، آلاف السنين وهو يفعل ذلك، فلماذا يعترض الآن؟.

حتى إذا سقطت أنا في هذا النهر، فهل كان ذلك يهم أحدا ما.. أي أحد؟.. أنا خريج التعليم الحكومي المجاني الذي فشل في الحفاظ على أحلام حياته، وربما أهمها، هل أنا على حق حين أقول أهمها؟، كانت كل الأحلام الباقية تتآكل، ليس بعد "سلوى" مايهم، وربما قبلها لم يكن شيئًا مهمًا، وبين الاثنين كان الاهتمام محفوفا بالمخاطر، وها هو قد انتهى أيضا، كانت الأقدار والسلطة ونحن أعداء أنفسنا، أعداء أبديون، لذلك لم أر أنه من الغريب أن

نتحول إلى بعارير، بقية من إيمان تحمينا من الكفر، وبقية من رضوخ تحمينا من الانفلات، وبقية من التاريخ المزور تحمينا من النسيان، هكذا بدأنا التحول إلى هؤلاء البعارير الذين يملأون الشوارع والموزعون على مئات المناطق العشوائية، ولم نجد غضاضة من أن نتعامل أيضًا بنفس المبدأ، بقايا بشر تعوم فوق بقايا من مبادئ، ماذا يريدون منا إذن!.

لم يتطلع لي حتى الأسد الرابع كأن الأمر لايعنيه كأنه يقول لي وهو يخرج لسانه "لماذا لم تتعلم شيئا آخر" ككل أجوبته السابقة على كل سؤال كان يوجه إليه، ليس معني بنا على الإطلاق، بينما كان يتناهى لسمعي في تلك اللحظة زئير الأسود الثلاثة الباقية، كنت أسمعهم جيدا الآن، لم ينفض الأسد الرابع حتى بقايا مخلفات الطيور والغربان الملقاة على رأسه، فكيف به يهتم بخريج تعليم حكومي لم يستطع تقديم دبلة واحدة جيدة لخطيبته اشترى دبلة فضة وتبرعت هي بالدبلة الذهب عيار ثماني عشرة، حتى أرخص أنواع الذهب لم يستطع شراءه وترك، الأمر لها كنوع من الارتباط الذي يمكنه أن يقفل أفواه الناس كما تقول، "كلام الناس" كما كانت تردد، لم تعترض يوما على أي شيء، لكنها كإمرأة تراثية من النوع الطيبي العزيز كانت ترفض كلام الناس القاتل واللاهي، كنت أقول لها "الناس تتكلم عن الناس دون أن تدري بالناس.. هذا هو مصيرنا الدائم في طيبة" كانت تشيح بوجهها في ابتسام، ولم يكن الناس في طيبة يرحمون الناس، لا يرحمون أحد ولا يرحمون أنفسهم، ينفخون قرب الموت بلا أدنى أمل في أن تقوم الحضارة

المعلوماتية بتغييرهم، إنهم يعشقون تفسير الظاهر، وكانوا يشاركون فيه عن محبة ورضا، تمامًا كسلوك السلطة لايمكنك أن تتحقق على الإطلاق مما يحدث في الغرف المغلقة والمقبضة، كما لايمكنك التأكيد على مايقال أمام الناس، وهكذا بمرور السنوات، آلاف السنوات، تحول الأمر إلى تفسيرات مختلفة، خلقت السلطة ذلك وحقنته في عقول الناس، لاتصدق أبدا ماتراه، لأن مايحدث خلف ظهرك، لا يمكنك توقع اتجاهاته، السلطة قاتلة أهل طيبة، لم تتركهم حتى لأفكار حضارية، تصر دائما على حقنهم بمواسيرها المخضبة بالشك والملهاة، ضاعت دبلتي أين لا أدري؟!، كيف ضاعت، لا أدري؟!، لم يكن الأمر إذن يستأهل الإبقاء على شيء، أبقيت على رفاقي من أصحاب الورق، ألف ليلة وليلة لابن قطة العدوي وأميرة الثلج، ذكريات تعسة، حين أسمع الموسيقى أتحسس الطريق لقلبي، وحين تنتهي الموسيقى، لايبقى سوى صوت عادم تلك الغيلان الحديدية التي تدور في الشوارع بلا هوادة، رافعة مواسيرها الذكورية في وجوه العالم، كأنها ذئاب جديدة لاتستريح إلا مع رائحة الدم التي تعلو أرصفة "قاف"، الحضارة الإنسانية العظيمة، الحضارة الملهمة التي لم تترك شيئا إلا وسحقته، وكان أول تلك الأشياء البشر، لاأتذكر شيئا بعد ذلك.!

ربما كانت تلك الليلة الأولى في حياتي التي لاحظت فيها نساء غرباء يسرن قريبا من الحافة، حافة النهر السوداء التي لايصدر عنها أي صوت، حافة النهر التي تستلقي أسفل الأسد الصامت، الأسد الصامت ذو اللبدة المتسخة بشكل مرعب، هل

يمكن لمثل هذا الأسد أن ينهض ليقوم بثورته المنصوص عليها في اللائحة التاريخية المحفوظة على خلفية جمجمة الملك الطيبي القديم، كنت قد بدأت – دون أن أدري – أتشكك في المسألة كلها، ربما من الوهم الذي خالطني مخالطة "قطرة المطر" في ليلة صيف قديمة، لم أكن أعلم أن القدر المتحكم بالرقعة قد أتى بقوات أجنبية داعمة لوجوده، كان قدري المتحكم بي ضعيفا للغاية في تلك اللحظة، كنت أشعر بأنفاسه، وبارتعاشة يديه وهو على وشك أن ينقلني للحركة التالية وأنه على وشك الاستسلام، هل كنت واهما، ربما.!

كانت سمر واين تدعوني للاستسلام..

كان ذلك ذكاء منقطع النظير من المتحكم، كنت أردد سمر واين بهدوء، بهدوء واستسلام، كأنى أرحب بتضحيته بي، لم أكن معنيا بالخسارة والمكسب في تلك اللحظة، كنت معنيا بالاستسلام.. كنت أردد سمر واين كأني أرتل تسابيحي الأخيرة.. لم يكن لي رأي فيما يحدث، فقد كبست السلطة على أنفاسي، لم أكن أدري ما تلك الأشياء التي أتغنى بها؟!، لكني كنت أختزن شعورا قديما، بأن هذه الأشياء تعيش معي منذ آلاف السنين، وبأن كل تلك الديكورات التي تحاول تجميل صورة الحضارة الإنسانية لم تنفع في تغيير أهل طيبة، ولا في تغيير شكوكهم، شكوكهم التي كانت تتعالى يوما بعد آخر في أن كل مايحدث هو خطأ فادح، كانوا يرون البشرية كلها تتقدم للأمام بينما هم يندفعون للخلف، يحتمون بأفكار الجدود في مواجهة هذا الكابس على أنفاسهم، كان هذا هو

كل شيء..

سمر واين..

زحمة..

زحمة..

الفصل الحادي عشر

☹

(١)

للصراصير قدرة على التوافق مع نظام الحياة فيما لم تستطع الديناصورات ذلك.. وهي نفس الوضعية التي وجدت عليها رقعة الشطرنج عبر التاريخ، أحيانا أظن أن الشطرنج قام باختراعه الملوك لبيان قيمة الشعب الذي يمثله -يمكن من وجهة نظر ضعيفة أن يمثله العساكر-، وأحيانا أرى أن الملوك حين أمروا بصناعة هذه اللعبة شددوا على عدم الالتفات للشعب نهائيا، فليس له قيمة ولا وجود على أية حال فوق رقعة الشطرنج، أعتقد أن هذه هي الحقيقة الكاملة في الأمر، رقعة الشطرنج قالت للشعب وداعا.. وضحت بالعساكر وليس لها علاقة بالموسيقى ولا الفن.. تصميمها الرتيب البغيض يوحي بالازدواجية، بالانفصام، بتاريخ الإنسانية الذي يتكون من فعلين هما البداية والنهاية، أليس ذلك يستحق أن نقول للملوك سمك واين أيضا..هاهاهاها.. أو سمك لبن تمر هندي..لا مجال للشعب على رقعة الشطرنج.. زحمة يادنيا زحمة!!

على الرغم من أن بعض النظريات العلمية الحديثة تقول بأن الطيور هي ورثة الديناصورات، إلا أنني لا أصدق ذلك فليس كل

الطيور ديناصورات، وإذا كان ذلك حقيقيا، فإن ذلك تطور في غاية الأهمية، لقد ارتفع الأثرياء القدامى بأجنحتهم بعيدا وأصبحوا غير مرئيين، فليكن!

أليس هذا غريبا للغاية، يبدو أن ذلك قانون اجتماعي له علاقة نسب ومصاهرة بالقوانين التي تحكم الطبيعة، لذلك يتكاثر الفقراء ويقل الأثرياء، إنهم هؤلاء الأغنياء يدركون سر اللعبة الكونية، كذلك ربما يدركها الحكام جيدا في دولنا، لذلك يصرون على مزيد من الإفقار، كما قال شيخنا حسنين كشك في كتابه إفقار الفلاحين في طيبة، أقول لكم غنوا معي

سمر واين،

وغنوا زحمة أيضًا..

ولننسى الأمر برمته.

(٢)

حين قابلت عبده قرني للمرة الأولى بقامته الفارعة ورأسه الصغير وأذنيه الكبيرتين، وشعره الأسود اللامع المصبوغ بلون نحاسي بفعل الدهانات والمعاجين التي يضعها عليه، والتي تدل على علاقته الوطيدة بطائفة النقاشين في طيبة، هذه الدهانات تعد تطورا بيولوجيا في غاية الأهمية لمستحضر يجعل الشعر ناعمًا، انتشر في السبعينيات تحت اسم "آرتي هير"، ونظرًا لرغبة هائلة بفعل السينما والتليفزيون على الأغلب في تشبه الزنوج والبربر بالشعوب الشقراء ذات الشعر الناعم المسترسل، توافرت هذه

المستحضرات كي يكونوا قابلين للابتلاع من قبل هذا الجنس الجميل، ماعلينا، كان عبده قرني يصطحب ربع دستة من الفتيات، وكان يسير وهو يصفر ويغني لبعرور، ربما سر اهتمامي به أني كثيرا ما وجدته يغني "زحمة" وينهي الكوبليه بـــ"راحوا الحبايب" لأحمد عدوية، يرتدي دائما تلك البدلة الصيفية ذات اللون الزرعي، وحذاءه البني الطويل ذا البوز النحاسي، موضة اندثرت يصر هو على إعادتها بإصرار طيبي عنيد، يحيط بذراعيه الطويلتين أيضًا الفتيات الثلاث، يتحدث سريعا جدا كذكر بط في حالة شبق موسمي، ثم لاحظت أنه بعد مضي أسبوعين تقريبا تبدأ أحواله في هبوط، لم يكن في اعتقادي أنه يعمل شيئا آخر أكثر مما يبدو عليه، بمعنى أن مظهره الخارجي يوحي بطبيعة وظيفته، إنه مجرد موظف-بسيط يعمل كقاطع تذاكر لقطارات الصعيد، لكنه يعمل في وظيفتين موسميتين تجعلانه في غاية الثراء لأيام عديدة فيعيش في الفنادق الخمسة نجوم، غارقا في حمامات السباحة والملاهي الليلية وحين تنتهي لحظات ثرائه التي لاتدوم طويلا يعود لحارة الكردي التي خرج منها، حين قابلته للمرة الأولى في مصعد الفندق، لم أكن أعرفه، مع الوقت وتكرار الليالي بدأت في مواسم ظهوره أستمتع بالجلوس معه والاستماع إلى حكاويه، وأيضا الاستمتاع بنسائه اللائي يعرفنه جيدا، إنه عبده قرني، رجل الملذات الأخير، القادم من أعماق الجيارة ليسكن قريبا من الأدوار العلوية بالفندق لعدة أسابيع يختفي بعدها، كان عبده قرني إذن أحد هؤلاء البيادق التي ستدعمني في مواجهة البيادق الأخرى التي

تحاول سرقة حياتي، كنت أنا وهو وخليل الحارس ربنا يعزه المقاتلين الثلاثة الأوائل في المواجهات التي أنتظر لها أن تتم عما قريب، كنت أتحصن بهذا التفاؤل الذي يبثه في، كان وجوده إيذانا باختفاء صحراء الرقعة التي وقفت عليها منذ برهة، كان بيدقا من النوع الظريف الذي يقاتل عن حق وباطل في نفس الوقت، وطالما أنه قرر الانضمام لي بفعل الأوامر العلوية الآتية من القدر الذي يحركنا فقد كنت سعيدا للغاية بوجوده، لم يكن معنيا بالشرف ولا تفسيره ولا عبد الوهاب أو أم كلثوم ولا باليانسون أو البرتقال ولا بالإذاعة أو رجال الشرطة وقائمة العياذ بالله ولا بالشمام الاسرائيلي، فقط كان معنيا باللحظة، وتلك اللحظة هي لحظة البعررة، البعررة المطلقة، الحضارة البعرورية الجديدة، كلمة الشعب المختفي في شعاب المدينة ومجاهلها، حين يقول "لا" لايمكنني أبدا أن أعرف ماذا يعني هل هي الموافقة أم عدم الموافقة؟، إبن الشعب الحقيقي الذي لايمكن أن تحصل منه على حقيقة أبدا، مادامت الحقيقة يتم تزويرها دائما فلماذا تقال؟ كان يقول ذلك بأصالة أمي عتيد في المعرفة بقوانين المجتمع الجديد، لايسمع إلا مايطربه وحين يخضع عن غير إرادة منه فهو ينتظر اللحظة التي ينقض فيها على صياده، إنه ينقض بشكل غير مباشر، يدع الصياد يتخيل أنه فريسة ومع ذلك يشاركه في نفس الطبق دون أن يدري الآخر بذلك، قابلته في الجيارة بعد ذلك ليس لسبب محدد بل للمساعدة في عمله الموسمي الأول كما طلب مني فالمسألة تحتاج أيضًا إلى بعض المثقفين، وكان يشير إلى على

اعتبار كتابتي (للكصص) – هكذا في الأصل – كما كان يحب أن يسميها، وإن كان اتهمني في البداية بأن كتابة (الكِصص) – كما ينطقها تمامًا – عمل خاص بالنساء وأنني من المَمكن أن أعمل معه في تنظيم مواسم الانتخابات في الجبارة ومنيل الروضة، حاولت في البداية إقناعه بأن كتابة الروايات عمل مهم للغاية خصوصًا في المجتمعات الفقيرة والمتخلفة، دخل في حديث مرهق معي حول السياسة معلنا بعض الآراء التي لايمكن تفويتها، فهو يرى أن "السياسة موسم (للارتزاك) وتحقيق فائد (ربما يقصد فائض) مالي.. متى وأين سمع هذه العبارة؟ إنه يفعل تمامًا ما سيفعله (أعداء) مجلس الشعب المنتظرون، كما أنه يشارك في رفع (الوعل الاجتماعي) – هكذا في الأصل أيضا– لأهل (المنتأة) – أيضًا في الأصل – كذلك وليس هناك خطأ مطبعي؛ كما أنه يحصل لهم على مكاسب كبيرة من (البتائين) التي يقوم بتسليمها لهم، (بالادافة بالتبع) لمشاركة كل (البشرية) في الانتخابات، واخد بالك ياعم فتحي.. مما يؤكد على دوره في سد الفجوة (الاكتصادية)"، إنه يردد مثلي مايحدث أمامه ويسمعه، كما أترك أنا نفسي للتيارات البحرية التي لايمكن الوقوف أمامها؛ كان يتكلم كزعيم انتخابات؛ وليس له دور أكثر من ذلك؛ إنه الملك الحقيقي للانتخابات وهي وظيفته الأولى الموسمية، حيث لايمكن لأي عضو مجلس أيا كان نوعه أو صفته أو مذهبه أو مربطه أن ينجح دون أن يلجأ إليه؛ فهو الأدرى بالتفاصيل التي تجعل هذا النجاح ممكنا، وعلى ذلك فهم يرجعون إليه للاستفادة من خبراته، فعلى

الرغم من صغر سنه إلا أنه شرب مهارة التعامل مع الانتخابات وقيادتها من والده، والده الذي أتي من أعماق "بركة السبع" ليعمل حارسا للملك ثم حارسا للثورة ثم حارسا للنظام المتغير، لم يواجه مشكلة هو الآخر إلا حين تدهورت صحته بفعل نسائه الأربع اللائي تزوجهن، ولد عبده وسط قطيع من الأطفال، لم يكن أبوه يتعرف عليه إلا بصعوبة، إن لم يكن يتعرف عليه على الإطلاق، كان الأطفال يقفون أمام أبيهم كأنهم يرتحلون لسجن قادمون من سجن آخر، عليهم أن يشكلوا طابورا طويلا ليتفحصهم كل مساء ليتأكد من نعمته التي أسبغها عليهم، كان يتكلم كأي رئيس جمهورية في العالم البغيض الذي ننتمي إليه، يكررون نفس الكلمات، وهب حياته من أجل إطعام السبعة عشر طفلا وزوجاته الأربع، قطيع من الأفواه المفتوحة النهمة، نفس مايفعله عبده في مواسم الانتخابات حيث يقف أعوانه صفا طويلا لتحديد مهمة كل فرد فيهم، أو ليوزع عليهم الغنائم، لم يفعل أكثر ولا أقل مما فعله أي حاكم أو أي أب، عمله كقاطع تذاكر لقطار الصعيد يجعله قادرا على التعرف على (معادن) الناس، كما يجعله غير معروف بالنسبة لأجهزة كثيرة في الدولة، إنه يختفي هناك فيما بعد مواسم الانتخابات، ليمارس مهنته الثانية الصيفية حين يقوم بتأجير الشقق للقادمين من آبار النفط، مهنة سمسار كاملة الملامح، تبدأ بتأجير الشقة وتنتهي بتوفير الملذات لهم، وهو لايتحرج من ذلك، لم يسقط تمامًا كقواد، ولم يعلو تمامًا كثري، حياته هي أهم شيء في الوجود، حياته في تلك اللحظة، يريد أن يتمتع بكل شيء، وهو

لايخجل من مهنته الأخيرة لأنه لايمارسها إلا بشكل مؤقت، ويقول بأنه حين يقع على ثروة صغيرة منها فإنه يترك كل شيء لتفتيت وبعثرة تلك الثروة، لأنه غير مقتنع بأنها حلال، وهو يردد كأغلب أهل طيبة الواقفين في منتصف الطريق بين الكفر والتدين، أو بين الله والشيطان، أو بين الحياة وعدم الحياة، يردد مقولته المقدسة

"لازم يضيع الحرام في الحرام.. فلوس حرام تروح في نسوان حرام.. أطلع من الدنيا نضيف.. إيه رأيك؟"

كانت تلك إذن فلسفته في الحياة، ليس لديه مايؤرقه، يرى أن مشكلته الحقيقية في الزواج، حاول الزواج ست مرات، لكنه فشل، فبمجرد خطوبته للبنت الأخيرة واعدها في مطعم شهير، وبعد أن أكلا واستمتعا بتكييف المكان وبالمزز اللاتي يرتدين الجوارب السوداء الطويلة الشفافة إلى مابعد الركبة، سخن عبده وأصر على أن يذهبا لشقته، وهناك اكتشف أنها ليست عذراء وهو أمر مهم للغاية في الشريعة الطيبية كما سبق وأسلفت، في نفس الليلة قرر أن تستمر علاقته بها وقت أطول ليحصل على ما يريده منها وبعد عدة شهور اتصل بها ليعلن فسخ الخطوبة، لم يتحدث عن الشرف إذن، ولايبحث عنه كما يقول، لكنه في ذات الوقت يبحث عن المرأة (البيور)، (الخلاصة) كما يقول، إنه معنى الشرف الوحيد من وجهة نظره وبدون أي تلفيقات، نزعني من كل ذلك وهو يحدثني،

"تصدق بالله ياعم فتحي، ولا ست قابلتها عندها البتاع ده اللي اسمه غشاء.. كلهم ماعندهومش.. واللي عندها لازم تشك فيها، أنا

ماعنديش (ثكه) خالص فيهم.. البنات اللي بييجوا لنا بالليل أشرف بكتير.. شكلي كده في النهاية هاتجوز واحدة منهم .. هاها .. غنيلنا يابو فتحي (سمك واين".. كان قرني واضحا إذن فيما لم أكن أنا واضحًا فيه، هذه هي كل المسألة!

وهكذا في تلك الليلة غنينا معًا في شرفة حجرته المطلة على النيل مع بعض فتيات "قطرات المطر" (سمك واين ياقرني)، غنيناها بشكل شرقي ونحن نحتسي خمر الصيف الحبيب..

سمك واين يا تمر هندي..

إوعى تعدي من هنا ياالافندي ..

(كما غناها قرني تمامًا مصحوبة ببعض التأوهات، مستعيدًا تاريخ تراثه الموسيقي الراقص، مع وتابلوه راقص من هناء، مع دعم معنوي ببعض المقاطع من راحوا الحبايب لأحمد عدوية)

ها ها ها ها.. فلتحيا رقعة الشطرنج التي نقف عليها الآن..

ولتحيا زحمة عبده..

زحمة.. هأو

زحمة يادنيا زحمة..

(٣)

حين استلقيت على السرير وبعد فاصل موسيقى عذب من "الشريعي" تذكرت رواية (فصاحة الروح) التي لم تنشر أبدا لكاتب عجوز اسمه عم "أحمد سعد" لايكف عن تعاطي الحشيش، هذا

الرجل كان يمكن أن يكون فلته روائية، فعلى الرغم من عمله في مجال الكتابة على الآلة الكاتبة، ثم تحوله لاستخدام أجهزة الماكينتوش، وأخيرا الآي بي إم التي تعمل بنظام الويندوز الذي أطلقته شركة مايكروسوفت واحتلت به العالم خصوصًا في مجال أجهزة الحاسب الشخصي، وهو تطور في غاية الأهمية لمعنى السوق الحرة، وأيضا يدل دلالة قاطعة على تمكن البعارير من التعامل مع عالم المعلومات بكل الجدية التي عرفتها عنهم نافيين بذلك مقولاتي المتعلقة بعدم اقترابهم منه، كان عمله يتعلق بإعادة كتابة كتب التراث، الكتب التي ليس لها ورثة، أعاد كتابة عشرات الكتب من "تذكرة داود" وحتى "مختار الصحاح" و"المخصص لابن سيدة" و"السبع النووية" و"تاريخ الجبرتي" و"شذرات الذهب" للمسعودي و"صبح الأعشى" للقلقشندي وابن إياس المصري وغيرها الكثير، كان موسوعة في الحكي عن التراث، رفض راشد الرواية لأسلوبها الكلاسيك، تذكرت فقرة طويلة منها تقول "كنت أتطلع للكأس الذي تلمع خمرته الحمراء تحت الضوء الشفيف، كانت الكأس الحمراء تشبه معزوفة خارقة من الفن الفينيقي، كانت الكأس صديقة موسيقا الرجاءات وألحان البهجة"، قال لي إنه كان يفضل الكتابة على الآلة الكاتبة كان يستمتع بصوت النقر، وغالبا ما كان يحلو له مضاجعة "قطرات المطر" قريبا من ماكينة الآلة الكاتبة، الآلة الكاتبة هي التي أخرجت مني هذه الكلمات، قال لي من تحت نظارته الصغيرة التي لاتخفي بروز عينيه، عيناه تتطلعان لي بصدق وهو يستطرد" كنت أنام معاهم وأنا أضع

اصبعي على مفاتيح الآلة الكاتبة أحركها كيفما شئت، كنت أشعر بالآلة كجسد المرأة، مع كل حرف أضغطه كنت أتسمع صوت أنفاسهم وهن يجاهدن شبقهن الشهي، انتهى عصر الآلة الكاتبة الذي عاش طويلا وسريعا مابدأ عصر الماكينتوش بشاشته الصغيرة وحروفه التي كانت تشبه حروف الخطاطين، وحل عصر الآي بي إم، عصر الانحطاط وعصر الفوضى كما أسميه، عصر الإنترنت الذي جعل كل شيء ممكنا "

" كل شيء ممكن على الإنترنت يا أستاذ صح..بس الإحساس .. الإحساس الحقيقي ضاع.. بقينا زي عرائس المولد..لاحس ولا حركة.. أشكال مختلفة لإحساس واحد يا أستاذ.. أحاسيس متجمدة، الآلة الكاتبة بتخليني أحس، بعد الآلة الكاتبة لم يعد لدي إحساس، صوابعي فقدت الإحساس، نحن جيل محظوظ يا أستاذ، شهد في سنوات قليلة عدة عصور لأدوات الكتابة، أقولك أجمل شيء، مش لما كنت بانام مع واحدة لأ، ماتفكرش غلط، لأ لما كنت أحط الكوباية بجانب الآلة قريبًا من يدي، وأملأها خمرة وأدق على الآلة، الاهتزاز يا أستاذ كان بيبان على سطح الخمرة، تتحرك على السطح دوائر ثقيلة، لايمكنك أن تدرك مدى جمالها أثناء انعكاس الضوء عليها، اهتزازك أنت والكأس في وقت واحد، اهتزاز الخمر واهتزاز المرأة التي تجلس على حجرك، اهتزاز كامل، لايمكنك أن تدرك معناه الحقيقي من غير ما تجربه، إنها لحظة الحياة الحقيقية ياأستاذ، يالله ياأستاذ، أنا مش زعلان لو الرواية دي ماإتنشرتش، ولو الكلام ده مات، مش مهم، المهم إني

حسيت بيه في روحي.. إنت عارف ياأستاذ .."

وطوح برأسه الضخمة للوراء ولاحظت للمرة الأولى أن له وجنة أكبر من الأخرى، وأنه أيضًا يمضغ الكلمات قبل أن يلقي بها ،

" أنا كنت ألبس الجزمة لونها بلون الكرافتة بلون الجاكت، كنت باحب اللون التركواز والنبيتي والأزرق الغامق، أكتر لون كان بيشدني الأحمر، كنت أحب الست اللي تلبس أحمر، الله عليها بتبقى نار زي زجاجة الخمر، تمام، هاها.. ماتاخدش على كلامي ياأستاذ تمام.. أنا أبو نواس طلع ديك أمي.. بأحبه أكتر من أمي، هو اللي خلاني أكتب الكلام ده، بأحس أحيانا إن روح أبو نواس ساكناني ومش عايزه تسيبني، بعد ماقريت ديوانه، حبيت أكتبه، تعرف ماعرفتش أبدا أكتبه، كتبت كل حاجه إلا هو، كنت أسرح وأقعد أقراه، كنت شاريله ترابيزه صغيرة مدهب، حاططها قدامي، أحطه عليها وجنبه الزجاجة، الله كان أجمل منظر في حياتي، لما أتعب من الكتابة أقعد أقراه"

ثم سكت وبلع ريقه وقال،

"ماتاخدش على كلامي.. صحيح العالم بقى فوضى.. بقى منحط.. بس الفوضى دي بره.. جوايا كله تمام ياأستاذ.. "

سكت وشرد قليلًا وفجأة إلتفت لراشد وسأله،

" أنا كنت جاي هنا ليه؟"

وتطلع لراشد بعينيه الجاحظتين من خلف نظارته، ابتسم راشد وأنا أيضا، لكنه تطلع إلينا مرة أخرى، كانت نظرة واحدة

كافية منه لتعلن أنه انتهى من الحديث، ونهض خارجا وهو يكاد يترنح، لم أنسه، كان بيدقا من النوع النادر، يقم بتضحية صغيرة على الرقعة في سبيل الجيش الذي أنتمي إليه الآن، وضع راشد الرواية على رف مخطوطات الروايات بجانبه.

زحمة يارواية..

زحمة..

(٤)

خرجت من هذا المنحنى السريع الذي يدركه الفاسدون أمثالي إلى منحنى آخر أحاول فيه أن أتذكر فجأة الحوار الذي دار بيني وبين حبيبتي التي تزوجت من رجل آخر لا أعرفه، أو هكذا أتخيل، ولا أحمل له أي ضغينة، ولا أحمل لها أيضًا أي ضغينة، وحين لكزني قرني وهو يرقص مع إحسان "قطرة المطر" التي تتسمى بإسم آخر هو "نانسي"، والتي أتت من عملية بيع لها منذ ساعات لأحد العرب في الحوامدية على أساس أنها بكر رشيد، بهدف الزواج عرفيا لمدة شهور الصيف، فشلت الزيجة فلم تجد بدا من الإتيان لقرني، لعل خمر الصيف يخفف من طيران الزيجة.!

سمك واين ياقرني..

سمك واين..

هاهاهاها..سمك واين يابشرية..

سمك واين يانانسي.. راحوا الحبايب يانانسي.. راحوا

هاهم أهل طيبة الجدد قد أعطوا معنىً زفرا لأغنيتك..
سمك واين..
سوق سمك واين بحاله ياقرني!!..
وزحمة يا قرني.. زحمة عالآخر..

(٥)

كنت أردد بيني وبين نفسي وأنا جالس بأنني يجب أن أسحب الرواية الآن، فليس من عادة البيادق أن تكون مبدعة إلا في حركتها على الرقعة، حركة إرادية، وأنا كتبت رواية دون أن أدري، دون أن تكون لي إرادة في ذلك، كتبتها ربما لأحكي لكم كل الحكاية، ليس هناك بيدق يحكي، كما لا أعتقد أنني يمكن أن أقدم رواية وأنا محشو بكل هذه الرذيلة وكل هذا الفساد، علاقتي بالمصعد وقرني تزيد وتقوى فيما تضعف علاقتي بالكتابة، الكتابة تحتاج إلى الصفاء، هكذا تعلمت، فكيف يكتب من لديه كل هذه الرذيلة، قال "حسن سليمان" بحرية الفنان ومات مجنونا، وقال أيضًا بأهمية أن يفصل المتلقي بين ما يقدمه الفنان للعالم وبين مايفعله، كنت أتساءل فقط كيف يقدم من هو غير شريف شرفا اسمه الرواية، كان الأمر يحتاج مني لمعجزة لأفهم ذلك، كنت قابعا الآن في هذا المأزق، أبحث عن حل، كان الحل الوحيد أن أتوقف عن الكتابة، الآلاف فعلوا ذلك قبلي، والآلاف أيضًا لم يفعلوا ذلك ولم يهتموا على الإطلاق، وهناك من قدموا للعالم أعمالا عظيمة خالية من رائحة الفساد وشبهة الرذيلة، بعضهم

حصل على جائزة نوبل وهو غارق في الرذيلة، الرذيلة شيء والشرف شيء آخر، الرذيلة هي المعنى الإنساني العظيم للرواية والشرف قصر ديل، يجب أن نفصل بين الإثنين، هؤلاء هم من أعادوا بناء الرواية ومن ثم تقديمها للعالم، ولم يحاسبهم أحد، ها أنا أنزلق لأخطر ما يمكن أن يواجهه الفنان، أن يكون له ميثاق أخلاقي، لا أعتقد أنه على الفنان أن يهتم بهذه المسألة، فلماذا أهتم بها أنا، إنه سؤال غير مطروح بالمرة في هذه الرواية فلماذا أطرحه؟! لم يكن لدي مبررات مقنعة، كما أنه كانت لدي في نفس الوقت مبررات مقنعة أيضًا لهذه الوضعية التي وجدت نفسي فيها، صعوبة الاحتياجات الأساسية للحياة مبرر غاية في الإقناع لأي تصرف؟! أليس كذلك؟! لست مع الدكتور جابر عصفور في أنه زمن الرواية..معلهش ياعم الدكتور جابر الرواية هي الزمن.. والشعر هو المكان.. ونحن النسبية.. النسبية يادكتور..

النسبية..

الزجمة..

واين يازحمة..

واين عالآخر!

(٦)

إن لم يكن الأمر كذلك فأنا خارج السياق، خارج الحقيقة، خارج المبادئ الأساسية الحاكمة! وعليَ في تلك الحال أن أستمر في سمر واين، ليس لدي حلول أخرى، ليس لدي بالفعل حلول

أخرى!

اخترت الخروج في صمت، وأن أرجئ مسألة سحب الرواية ليوم آخر، علي أن أفكر في مسألة إبداع البيادق بشكل أهدأ، فربما لا أكون على حق، وأن إنتاج البيادق هو نتيجة "المتحكم" الذي أرى فقط أصابعه حين يمسك برأسي الخشبية، في اليوم التالي خرجت متجها نحو ميدان التحرير، بعد قراءتي للصحف لدى هاشم، وكنت موجوعا بخبر موت أحد الناشطين على شبكة الإنترنت، تم قتله بدم بارد من قبل شرطيين، وتم حشو جوفه ببعض لفائف البانجو ولم يكن للمظاهرات صوت في ذلك اليوم، كان كل شيء أراه حزينا، الميدان الحزين، الميدان الذي شهد تهشيم ذاكرتي، عابرا الكوبري الصغير الذي ينتمي لعصر إسماعيل، بعض الأولاد يلعبون في مياه النهر في الأسفل، والفلوكة الصغيرة التي تحتضن الأم والأب والطفل الوليد يبكي بينهم، الرجل يدخن سيجارته باستمتاع وهو يجلس شبه عار، والأم تحاول الحديث إليه وهو لايستمع، إنه غارق في ملكوت آخر، غير معني بروايتي، ولا بأمينة أو ابنتها، ولا بالوجود كله، وليس هناك فائدة ستعود عليه بكتابتي هذه، إنها سيجارته ودخانها فقط، الدخان الذي يعلو قريبا مني ثم يتلاشى، الدخان الذي يسير فوق سطح مياه النهر الآسن، فوق سطح النهر تمامًا، ثم يغوص في أعماقه ولايلتفت خلفه، أو يصعد لأعلى بعيدا بعيدا للغاية شأنه شأن كل الكائنات التي تسير بجواري، شأني أنا أيضا، تتمدد قدمي نحو نادي (قاف)، ألقي التحية على سائسي موقف السيارات

العشوائي الذين ينتمون للعاصمة "المجهولة" دون شك، هم يدخنون أيضًا سجائرهم ويقذفون بسحبها الثقيلة المختلطة بعوادم السيارات نحو الميدان البعيد، أمر بمتحف مختار، بعض الموظفات السمينات متبرجات ومحجبات جالسات في ظل التماثيل هناك يدخن أيضًا بلامبالاة، وجوههن متشابهة، تنتمي لكتلة من الجبس لم ينجح صانعها في إبراز ملامحهن، سور حديقة الأندلس الطويل، سور الحديقة الحديدي الذى خلعناه في أحد الأيام للحصول على حجارته لنلقي بها على قوات الأمن، لكن هذه الذاكرة ضبابية بشكل قاتل، الجميع يدخن السجائر في هذا الجو الخانق، ثم عدوي.ذو اللبدة المتسخة الجالس في لا مبالاة أتخيله أيضًا جالسا لكني عجزت أن أتخيل سيجارة في فمه، الأسد الرابض في الناحية الأخرى يدخن، سيجارة حشيش سميكة، وربما في بايب، أرى الدخان خارجا من منخاريه القويين، أما صديقي المبهم ذو اللبدة فجالس يتطلع للأمام لايفعل شيئا، لايفعل شيئا على الإطلاق، مما زاد من حرق دمي، أعبر قصر النيل، إلى الميدان الشهير حيث تركتني حبيبتي تلك الليلة قريبا منه، تركتني دون أن يبدو عليها الغضب، كانت قد حزمت أمرها دون أن تعطيني فرصة حتى لنقاش هادئ أو عنيف، جلست أمامها كتلميذ خائب أستمع لقرارها، لم يكن يدور في خاطري أنها ستتكلم حول ذلك، كنت أعتقد أن أمر علاقتنا محسوم منذ زمن طويل، لكني لم أكن أعرف ماهي الخطوة التالية، الخطوة التالية لها استعدادات لم تدر بخلدي، كانت أحلامي مختلفة في تلك اللحظة، عادة نحلم الحلم

الصحيح في الزمن الخطأ، ببساطة لايتحقق.

(٧)

كانت عيناها مركزتان على شيء آخر، لم أكن أنا في عينيها في تلك الليلة، حين نهضت قلت إن الأمر ليس أكثر من مجرد أزمة تمر بها، هل كنت أنا الذي يمر بتلك الأزمة؟، ماذا يعني أن تقول ذلك في وقت تعلم هي جيدا أنه ليس هناك أي أحلام يمكن أن تتحقق فيه، لأننا جميعا كنا خارج التاريخ المكتوب للإنسان، لم نكن نتمتع بصفات بشر في تلك السنوات، كنا قطيعًا يقاد للاشيء، حدثتها عن رغبتي في تعلم البيانو، وعن رغبتي في السفر، سألتني سؤالا غريبا،

"أين أنا من أحلامك؟" .. قلت لها،

"أنت كل أحلامي"

"ماذا فعلت من أجلي؟"

"ما المفروض أن أفعله من أجلك؟"

كان حوارًا صغيرا قاتلًا معجون بأنثوية شرقية، ابتسمت ابتسامتها الساخرة!، كنا قبلها بساعات معًا غاطسين في ماء المطر (بالمناسبة مصطلح ممارسة الجنس مصطلح بغيض في ظل التزام الغربيين مثلاً باستخدام مصطلح ممارسة الحب، أما ممارسة الجنس فهو هاف سكس، أي تبادل الفحش .. هاها سمر واين ياجنس) قلت نتبادل فحشا غير مكتمل على طاولة مطبخ شقتي الصغيرة المعدمة، لا أدري أيضًا كيف يمكن لبيدقين قرر أحدهما

الانفصال أن يمارسا الجنس، أليس في ذلك خيانة؟ لا أدري لماذا كنا نترك السرير لنفعل ذلك على طاولة المطبخ؟، كانت تصر على ذلك، تسحبني من غرفة النوم الضيقة الرطبة إلى هناك، تمنحني جسدها عن طيب خاطر، لأتوقف قبل الثقب الأسود، عنده فقط تتوقف كل الأحداث، كان ذلك أمرا عاديا نفعله يوميا، لكنها – كما أحاول أن أركز– كانت مشغولة عني، لم تمانع أبدا في الاستمتاع معي بتلك اللحظات اليومية، تطلعت في وجهي أخيرا وقالت أنها حامل من رجل آخر عرفته منذ عدة أيام، ستتزوجه كما قالت، هل كان ذلك حقيقيا أم أتخيله، ذاكرتي لاتسعفني، ربما تكون مجرد أوهام أخرى تحتل مكانها في عقلي خلفا لأوهام أخرى، لم أفهم جيدا، طلبت زجاجة البيرة الأولى عند تلك النقطة من الحوار الهادىء، الغارق في الهدوء، كان الحب في تلك اللحظة يتحول لمقت وغضب وفقدان للذاكرة، ولكننا استمررنا في الحديث الهادئ، قلت لها، إذا كانت تلك هي المشكلة فيمكن حلها، قالت أنها تريد الاحتفاظ بالرجل الآخر وجنينها منه، لم أسألها أبدا السؤال الذي كان يجب أن أسأله، مالذي دفعك لذلك؟ كان سؤالا بغير معنى، ولم أكن من النوع الذي يسأل مثل هذا السؤال، كنت فاقدا للاهتمام، لايمكن أن أدعي أن البلد كلها كانت كذلك في تلك اللحظة، إنه القصور الذاتي الملعون، يتدخل في كل شيء وفي كل لحظة، كنت فاقدا للاهتمام، لكني لم أكن أعرف أني سأفقد الذاكرة في تلك اللحظة بالذات، هل فقدت الذاكرة ساعتها أم بعد ذلك أم قبل ذلك وبالتالي يكون كل مارويه هو نوع من الحقائق الناقصة

غير المكتملة والتي جمعتها من كتاباتي في (أكونتس) مختلفة، تلك هي النقطة الأساسية لكل المسألة، هل فقدت الذاكرة وأنا واقف أتطلع للأرصفة، والتغيرات التي لم تكن قد طرأت عليها بعد، كان ذلك شيئا غامضًا تمامًا، كأني كنت أسبح في كوكب آخر بعيدا هناك في نهاية الكون، بعيدا عن المكان الذي أقف فيه الآن على الأرض، عشرات وآلاف وملايين الرجال حدث معهم ذلك، فلماذا سرقت مني ذاكرتي في تلك اللحظة، وكيف سرق هذا الرجل مني حبيبتي في وضح النهار، هذا الرجل الذي لا أعرفه والذي لا أحمل له أي ضغينة، وكيف قامت هي بتأكيد ذلك بكل سهولة، ساعدته في الحصول على ما عجزت أنا عنه، لم تكن هناك أحداث سياسية بالبلد يمكنها أن تساعد في ذلك، كان "المسكوت عن اسمه الثاني" قد مات أو قتل وكان الآلاف بالسجن، كانت طيبة كلها تستعد لأن تتحول إلى لاشئ، كنت أقرأ ذلك، كان الطيبيون يرتمون في أحضان الجاز واللحى ويغوصون إلى أسفل، يغوصون إلى الدرجة التي لم يعد هناك فيها حلم آخر لهم سوى تذكرة الذهاب إلى هناك، وياله من أسى لاينتهي، وكان الغرباء يتكاثرون، وكما قال هيرودوت الأول يتكاثر الغرباء في وقتين، وقت النصر ووقت الهزيمة، وكانت الصحف كلها تشير إلى النصر الذي تحقق، فقط كنت أرى لامبالاة وعدم اهتمام يسكن العيون التي كانت تتحرك حولي، ولم يكن للموسيقى معنى، وكانت الظلال باهتة للغاية ومتخفية، وكانت دقات قلبي واهنة للغاية، رتابة الأحوال تفرض على البشر عدم الاهتمام بالعطور،

يغرقون فقط في شبق ليس له رائحة ولا طعم تكون نتيجته مزيدًا من الأطفال والهموم.

ظللت جالسا مكاني بعد أن نهضت وهي تلملم أشياءها، قالت لي دون حتى أن تنظر إلي :

"لقد فعلت ذلك على سريرك"!

سرير البيدق الوحيد على الرقعة، كنت أدرك أن بيدقا مثلي يملك بعض الرفاهية في ظل الصحراء التي يعوم فيها أمرا خارج كل تصور، فعلت ذلك على سرير البيدق الخشبي الذي بدأ يشعر بدماء تتسرب في مسامه الخشبية، وبعد تسرب هذه الدماء فقد القدرة على التذكر، تعود إليه ذاكرته كبقع شمسية، تزول سريعا لتحل بقع في أماكن أخرى أشد قتامة من الأولى، ذكريات لاقيمة لها الآن، فقد انتهى كل شيء، في ظل قيامي منذ ذلك الحين ولسنوات بالبحث عن السبب وراء فعلتها تلك، كان إحساسي بالخيانة يتعمق ويتغلغل، لأفيق بعدها بسنوات فوق هذا الرصيف، ولتصطدم قاعدتي الخشبية بأرض ميدان التحرير لأشاهد قذارة (قاف) ووساختها المتغيرة تعيث بها الرياح، موسيقى الرياح الصدئة الممتلئة بعادم الوحوش الحديدية، وسط لغط سكانها الذين يترنح بعضهم ويقفون مستندين على السور الحديدي الأخضر المحيط بالميدان كعساكر شطرنج لافائدة منها على الإطلاق .

(٨)

كانت تلك الطعنة التي لايمكن لبيدق أن يتحملها على رقعة الشطرنج، أن يخونك البيدق الذي بجوارك في نفس الصف ويتحول لعدو لك، لم يحدث من قبل على الرقعة الأسطورية، لكنه حدث، مما كان يتطلب مني أن أعيد التفكير في شروط اللعبة فلم يكن من ضمنها أبدا الخيانة، والخيانة لفظ مضاد للشرف، الشرف الذي أبحث عنه ولا أجده، الشرف لعبة الأغبياء في عالم يتسم بالدهاء الشديد، ولكن مادمت قد أحسست بالدماء في عروقي الخشبية، فكان لابد والأمر كذلك أن تظهر شروط أخرى للعبة لم تذكر من قبل لا في الحضارة الهندية أو الفرعونية أو اليونانية أو حتى الصينية، وهاهم اليونانيون قد رحلوا تمامًا وعاد إلينا مرة أخرى الصينيون، هاها سمر واين ياحضارة.. خرجت وعيناي معلقتان بزجاجة البيرة الثالثة الساكنة أمامي، كانت تبتعد وصورتها المنعكسة على زجاج الطاولة التي كنا نجلس إليها تنسحب سريعا، لم تستغرق أجزاء من الثانية الواحدة كي تختفي تمامًا من حياتي، حياتي التي استيقظت فجأة لأكتشف أن عشرين عاما منها قد مرت دون أن أدري، أليس ذلك يعني أنني تجرعت زجاجة من الخمر في الصيف الماضي البعيد القائظ في تلك الليلة لأنسى ماحدث لمئات الأيام التي مرت دون أن أدري، كان هذا هو المعنى الوحيد لسمر واين في تلك اللحظة، كان ذلك إيذانا بارتمائي في كل مايمكنه أن يدفعني بعيدا عن شاطئ الحياة، أن أنجرف بعيدا، ولأني كنت أعلم تمامًا أنني لست أكثر من مجرد

بيدق خشبي فقد كانت الأمواج تتلاطمني وتقترب من شاطئ الموت الذي كان أقرب لي من أي شاطئ آخر، لم أرى بطنها لأشعر أن بها كائنا لاينتمي لي وإنما ينتمي لرجل آخر، رجل استطاع أن يقنعها في عدة ساعات بفتح الثقب الأسود الذي عجزت أنا عن فتحه في سنين، لم أشعر بأن هناك كائنات أخرى، كان ثقبها الأسود يتسع ويتسع لرجل آخر، ليبتلع كل أحلامي معها، ثقب أسود سوف يخرج منه كائن آخر يوما ما ينتمي لرجل آخر، ما الذي دفعني للوقوف في تلك اللحظة أمام (إيزائيفتش) متناسيا الأمر برمته، كأني أتمسح بأحد الأولياء ليخلصني من كل تلك الانفعالات التي كانت تتراكم وتتدافع داخلي، وحين فتحت عيني أدركت أن (الولي إيزائيفتش) قد تُغير هو الآخر، كان قد احترق واختفى واحتل مكانه ولي جديد اسمه (كيه إف سي)، لماذا؟ لماذا قالت ما قالته، كانت هذه آخر كلمة لها قبل الخروج، هل كانت تريد الانتقام مني؟ هل قالت ذلك دون أن يكون ذلك حقيقيا؟ كنت أقلب الأمر، كانت عيناها تمتلآن بإصرار على قطع علاقتها بي، لم أسألها حتى عما ستفعله وكيف ستتزوج أو أين ومتى؟ كانت علامات استفهام غبية للغاية، ربما كنت اسألها وأنا أقف أمام إيزائيفتش، ما الذي حدث بعد ذلك؟

(٩)

استيقظت على سؤال عبده قرني،

"إنت رحت فين ياعم.. والنبي ياشيخ (سمك واين) تاني

عشان الحبايب"!..

ضحكت بصوت عال وأنا أقف على كوبري الخديو إسماعيل، وضحكت مرة أخرى وأنا أعبر الأسدين الرابضين في المقدمة وضحكت بصوت عال وأنا أقف أمام كيه إف سي وماكدونالدز مؤمنا أن تلك نهاية المطاف، نهاية مطاف الديمقراطية التي ذكرها السيد فرانسيس فوكوياما، لأمثل جيلا ينقرض بلا هوادة وبلا رحمة وبلا محبة وبلا ضجيج.!

حينها بدأت الطريق لسمر واين..

سمعتها تلك الليلة من سائحة إنجليزية على وشك أن يتخلى شبابها عنها في مطعم (استوريل) بوسط البلد في ممر وهمي، سمعتها وأنا جالس على المقعد الوحيد الخالي في نهاية صالة المطعم اليوناني القديم الذي دخلته بالصدفه، كأني جالس في عربة قطار لا تتحرك، وأضواء الفجر تنعكس على الزجاج الأصفر والأزرق الداخلي، سمعتها وأنا أتطلع للوحات الحائط التي كانت بنفس الألوان، وحين انتهت كنت قد حفظت الأغنية تمامًا، رددها كثيرون من الجالسين معها، لم أنطق كنت خالي الذهن تمامًا في تلك اللحظة، لم أعد أفكر في حبيبتي، كنت أفكر في تلك المرأة التي سرقت الرجل ذا المهاميز الفضية، ومحفظته، بعد أن شربا الخمر، كنت أضحك، وحين خرجت في الهواء فقدت الذاكرة بعد ذلك، حتى أنني سمعت أغنية عدوية " راحوا الحبايب بقالهم عام والتاني" لكنها غادرت ذاكرتي، بقيت فقط سمر واين بصوت العجوز الإنجليزية، بقيت "زحمة" كدليل دامغ على اكتظاظ ذاكرتي

بمشاهد لاتفيد فى التعرف على الحقيقة، وكنت أتطلع لحذائي لم يكن به مهاميز، كنت متأكدا بأنه ليس به مهاميز فضية، لكني كنت متأكدا بأن هناك شيئا ما قد سرق مني، لا أدري من سرقه تحديدا، كنت بيدقا قد سقطت رأسه الخشبية فجأة على الرقعة السحرية، وكان واقفا يتطلع إليها، لم يكن قدره ينتظر حتى ذلك، كانت تلك الحركة إيذانا بالسبات الطويل الذي عشت فيه السنوات الماضية، لذلك سرت وأنا أضحك وأتطلع لحذائي وهو يسير على الرصيف، كان في تلك اللحظة حذاء وحيدا يسير على الرصيف تعلوه أتربة قاف اللعينة، لايشعر بالموسيقى ولا يشعر بالدبيب ولا يشعر بذاته، حذاء ذا جلد ميت، جلد ميت تمامًا تقوده ساقان خشبيتان لرأس بلا ذاكرة، بلا شرف، بلا تاريخ، ولم يكن هناك زحاما كانت تأتيني مقاطع المناضل البعروري العظيم أحمد عدوية "زحمة يادنيا زحمة" من بعيد وكانت موسيقى سمر واين تعج في رأسي، كنت أنقسم دون أن أدري، أتشقق لنصفين، أتحول!

سمر يازحمة..

بقيت فقط هاتان الأغنيتان تحصدان رأسي بلا هوادة..

سمر..

زحمة..

زحمة ..

سمر..

لا شيء آخر!

الفصل الثاني عشر

☹

(١)

يقول صن تسو أن الأذكياء وحدهم هم الذين يجب أن يعملوا في أجهزة المخابرات، لكنه لم يقل أبدا من الذي يجب أن يلعب الشطرنج، والغريب أن العوام - أغلبيتهم على الأقل - على الرغم من عدم قدرتهم على لعبه إلا أنهم يأتون بأفعال تنتمي لما يحدث على رقعة الشطرنج.!

حين أدخل الجيارة، عابرا الحمام المغربي قريبا من (أبو أشرف) الكبابجي، أنحني إلى اليمين قبل أن أقترب منه، أدخل إلى عطفة الكردي، أصعد سلم المبنى الثالث المكون من الآجر الأحمر المتسخ من الخارج، ويبدو أن هذا أمر من الأمور اليقينية في (قاف) كلها الآن، أن تجد خيوط العنكبوت وهباب السحابات السوداء التي مانفتأ تعبر سماء المدينة وشوارعها وحواريها، وكذلك عادم السيارات ودخان مصانع الأسمنت التي يقسم المسئولون الحكوميون كل يوم بأنهم ركبوا فلاتر لمصانعها، وهم صادقون بلا شك، ونحن أولاد الكلب الكذابين الذين لاتعاني رئاتهم من التحجر، ربما فعلت سحابات الأسمنت والهباب فعلتها وتركتنا مشوشي البصر وبالتالي فنحن نتلزق في الحكومة ونحاول

مشاكستها قائلين بوجود السحابات الملوثة، بالطبع بجانب عوادم الموتوسيكلات وسيارات النصف نقل بالإضافة إلى دخان مليارات السجائر المحلية والأجنبية المصنعة محليا بشكل قهري عن عمد والأجنبية المستوردة خصيصا لسكان (قاف) الذين أصبحوا لايتنفسون، هذه السجائر التي ندخنها مختلطة بدخان الحشيش والبانجو والكلة والبنزين واللاصق ودخان الغازات المتصاعدة من سكان (قاف) العشوائيين في كل شيء دون إرادتهم، ودخان غازات الغرباء الذين لم يجدوا في غير (قاف) مكانا لغازاتهم الخارجة من مقاعدهم أثناء نكاحهم المشبع برائحة الفياجرا، وكذلك غازات المصارف والبالوعات المفتوحة على مصراعيها، كان الغاز قاسما مشتركا لكل أنحاء (قاف)، ويكمل الغازات أيضًا تلك التركيبة من المصانع التي تصنع المخلفات والنشادر، كأننا الطيبيين والغرباء مصممون جميعا على تبخير جو (قاف) دون مدن العالم جميعها، لاتختلف البيوت هنا عن بعضها البعض، عليك أن تحدد بدقة رقم المنزل وإلا دخلت بيتا آخر، كما أن السلالم متشابهة إلى حد كبير فهي مصنوعة من نوع من الأحجار القميئة التي يطلق عليها "رخام" لكنه "رخام" من نوع رديء لم يتوافر لحضارة من قبل، رخام يتآكل سريعا فيصبح الصعود عليها مخاطرة كبيرة، كما عليك أن تدقق في الأبواب فستفتح أبواب كثيرة تطل منها رءوس متشابهة لايمكنك تمييزها عن بعضها البعض، آلاف من أحجار الشطرنج تطل من الرقعة عليك، وأنت تصعد للطابق الأخير للتحقق من هويتك، وإلى أين أنت

ذاهب، عليك أن تحني رأسك وأن تجيب عن السؤال الوحيد الآمر الذي سيوجه إليك، عليك أن تجيب دون امتعاض أو ابتسام أو أي تفكه كما أخبرني قرني نفسه، "أنت رايح فين؟"، "عند الأستاذ عبده قرني.."، "أستاذ ..هههههههههههههههههههه".. .

عقب الضحكة يغلق الباب بعد فاصل من التردد والتزييق ثم الرزع، يغلق الباب الذي أطلت منه الرأس التي سألتك منذ لحظات، غالبا ما تكون هذه الرأس مشعثة أو قرعاء أو منكوشة أو منطفئة، أو ناعمة في إهمال، سواء كانت هذه الرأس لرجل أو امرأة أو طفل أو بنت، ملامح فرعونية متوارثة، شعر أكرت، أنف أفطس قليلا، قمحاويين، قصار القامة، عينان ذكيتان، تلمعان لتاريخ لم يبارحها، لكنهم مرضى، لايمكنك أن تميز الصحيح منهم من المريض، وجوه صفراء غالبا أيضا، وجوه ليس لها تاريخ ولن يذكرها أحد وليست معنية بمسألة الوجود أو هكذا أظن وهو ظن خاطئ بكل تأكيد وإلا كيف خرج سيد درويش وعبد المطلب والكحلاوي وعدوية وبعرور، نفس الوجوه ولم تتغير، هناك شيء دفين في تلك الرءوس لاتدركه، ولكن من المؤكد أن هناك ملايين منهم لم تعنيهم على الإطلاق فكرة الوجود، وجوه تختزن ألما وبقع صفراء أو بيضاء أو حتى سوداء على الوجنتين تظهر في ملامح الوجه إن تطلعت إليه باستفاضة، لكنك لاتستطيع فعل ذلك بالطبع، لأن أي وجه من تلك الوجوه لديه الاستعداد لتجريسك إن خرجت عن الخط المرسوم لك، فقط عليك أن تحني رأسك وتجيب دون أن تتطلع في وجه السائل ودون اعتراض منك على السؤال،

رائحة عطنة قريبة الصلة برائحة حيوانات الغابة، يمكنك أن تشمها إذا اقتربت من أقفاصهم في حديقة الحيوانات، لاتسد أنفك ولاتتأفف، الطابق قبل الأخير خرجت منه بنت جميلة الوجه لاتنتمي للمجموع وعليك أن لاتحدق أيضًا فقد تكون شبه عارية أو ترتدي سروالا من الجينز الأسود أو الأزرق أو هذا الرمادي الفقير التي تبرز خيوط حياكته بلون مختلف، وربما يختلط عليك الأمر فتتخيل أنك رأيت ساقين جميلتين، وهذا وهم بالطبع فالفقر يختفي في الأسفل، النصف الأسفل من الانسان والمدينة على السواء، ستجد شيئا ما مضروبا، كمقعدة لاتتناسق مع الجسد أو ساقين رفيعتين، أو أصابع تنطلق بمانيكير ينتمي لفصيلة الجير والبوية، أو أظافر مشققة، أو جلد مشقق، المسألة ستجدها في الحوائط المشققة القديمة وفي الجلد المشقق الذي تقف فوقه هذه الأقدام وستجد نفس الشقوق في درجات السلالم، الشقوق تملأ كل شيء، فما بالك بالنفوس، وحتى أحجار الشطرنج القديمة تتشقق أو يذهب بعض من لونها بفعل الاستعمال، ليس هناك فرق تقريبا بينها وبين ما أراه الآن؛ ستقع في خطأ لايغتفر إذا تعلقت عيناك بتلك المظاهر الخادعة، إنهم يحيون حياتهم الخاصة التي لاتعلم بها، إنهم يعشقون كل شيء لكنهم لايشاركون إلا فيما يعشقونه، لكن هذه الرأس بالذات لهذه البنت التي ظننت ظنا كاذبًا أنها جميلة سألت نفس السؤال وحين أجبت، ابتسمت ثم ضحكت ضحكة قصيرة مما دفعني لنسيان القانون الذي حفظني إياه قرني، فرفعت رأسي، فوجئت بسيل من الشتائم، لم يكن صادرا عنها وإنما عن

الحيوان الذي تسلق برأسه الضخم كتفها في تلك اللحظة الساقطة، أنقذني (قرني) في اللحظات الأخيره بعد ازدحام باب شقة – هذا إذا تم تصنيف هذه البقعة المكانية بالشقة – بعشرات الوجوه التي انقسمت لنصفين، قسم يرحب بالغرباء كالعادة، وقسم لديه استعداد لارتكاب الجريمة في لحظة، أتى صوت قرني من الطابق العلوي صارخا، اختفت الوجوه كلها فجأة، وساد صمت غريب، ضحك وهو يدعوني للصعود، انطلقت سريعا نحوه، كان صوت حذائي الخشبي في تلك اللحظة هو الذي يملأ فراغ الرقعة التي أتحرك عليها مأمورا مِنَ المتحكم برأسي.

(٢)

كان يرتدي بنطلون البيجامة وفانلة داخلية مخططة صفراء اللون، شعره النحاسي اللامع من آثار (الجيل) ومثبت الشعر الذي لايتنازل يومًا عن وضعه فوق رأسه، التليفزيون الملون "التوشيبا" الذي من المفترض أنه ياباني الجنسية، الذي حصل عليه في غزوة انتخابية صغيرة من الحاج الذي نجح في الانتخابات الأخيرة في منطقة (جيم)، والثلاجة الإيديال النوفروست، والكاسيت الدايو، الذي تتكاثر حوله شرائط وسيديهات أشهر المطربين الشعبيين عبد الباسط حمودة وشعبان عبد الرحيم وحسن الأسمر وعدوية وسعد الصغير والعمدة بعرور، بالمناسبة هم يغنون للحشيش أيضًا وجميعهم ذهب للمستشفى بسببه وهذا أمر مقلق، لأن ذلك يعني ببساطة قرب الانتهاء من سلالة رائعة من

أهل طيبة كانت تستطيع التعبير بكل شفافية عن أحلامهم المتواضعة في الحب على الأقل، وكانت مسألة الفلوس قد تم عبورها لاستحالة توفيرها وفقا لقانون التطور الذي وضعته حكومات "المسكوت عن اسمه" ووريثه المقبل- على أية حال يواجهونك مباشرة، لم تكن كل تلك التفاصيل الصغيرة مهمة في رأيي، لكنهم يدفعوننا لكتابتها في الروايات بهدف تسجيل الأحداث والأماكن لأن ذلك قد يكون له علاقة بالبنية الروائية، في ظني أنها لم تكن أكثر من حيل من الروائيين لملء الفراغات التي يمكن بسهولة أن نتركها خلفنا، وكما فعل آلان روب غورييه الفرنسي ذات يوم فترك الأشياء تعلن عن وجودها دون أن يكون لذلك تأثير ما على الحدث الروائي، تأثير نفسي أعني، لانستطيع أن نفعل ذلك في طيبة، فلا شيء ليس له تأثير ما، أي تأثير، ستظل الرواية هي الرواية بمسلكها الكلاسيكي القديم لأن رفاهية التجديد غير معترف بها، ولأننا لا نتحمل أن يقوم أحد بالتجديد وحده، سيخرج بالضرورة عن الطابور، والخروج عن الطابور جريمة في نظر كثير من المثقفين القتلة في وسط البلد وفقا لرأي " مكاوي سعيد" كما هو في نظر الدولة، أظن أحيانا أنهم أي المثقفين - الكثير منهم على الأقل- أكثر ديكتاتورية من النظام، بحكم دفاعهم المستميت عن أفكارهم حتى لو كانت خاطئة، أليس هذا ما يحدث، أليس الأمر قريب الشبه بما يفعله عبده قرني حين يصرخ في الجميع من على السلم، نحن جميعا وبلا استثناء نمارس ديكتاتورية مفرطة حين نواجه الحياة، إنه سلوك تسلسلي يتم دون

أن ندري، عبده قرني يمارس ذلك مع الجميع، لاينسى أبدا البنت التي تركته حين حاول أن يخضعها لماسورته ورفضت، يريد كسر أنفها، نتمتع بامتيازات حقيقية في هذه المسألة، مسائل فجة كلها!.

كان اتفاقي الأول مع قرني، هو التعرف على طبيعة مهمتي في الانتخابات، بعد شرب الشاي والغداء الذي تكون من لحم مشوي من "أبو أشرف"، وطبق من المخلل، وطبقين من المكرونة الحمراء ثم أعقب ذلك بسيجارة حشيش، قال قرني إن خطته في كسب الانتخابات كانت دائما مبنية على البلطجية من جانب ومن جانب آخر على بعض النساء البلدي وعلى الإعلانات الانتخابية من جانب آخر، وأنه يفكر منذ مدة في توفير متكف (هكذا في الأصل) للانتخابات، وحين قال ذلك لا أدري لماذا خرجت مني ضحكة كادت أن تفسد مابيننا لكنني كتمتها سريعا، كان يتطلع لي دون أن يفهم، تبدو عليه الجدية الشديدة، فيما قال بأن المرشح عليه أن يهتم أيضًا ببعض الصحافيين والمحامين وضباط شرطة كبار ورجال الحزب وبعض دكاترة السياسة الذين يمكنهم مساعدته، ثم ضحك وقال،

"الكبار نفسهم بيعملوا كده.. تعرف أكبر واحد ده هو النموذج بتاعنا في كل حاجه.. أي تطوير في الانتخابات مابيجيش إلا من فوق.. من فوق قوي.. لكن فيه حاجات ماينفعش يعملها إلا أنا"،

"أنا الشارع يا أبو الفتوح.. الشارع"

"من غيري ماينفعش أي حاجه، أنا عارف ان التزوير هايتم،

هايتم غصب عن أي حد.. بس لازم تكون فيه مبررات.. لازم الشعب يقتنع.. لازم المعارضة تقتنع.. لازم الدول الأجنبية تقتنع.. لازم الملايكة نفسها تقتنع إن مافيش تزوير.."

"أحكيلك مثلا لو إحنا قدامنا راجل معارض جامد.. نعمل إيه.. فيه ناس تانية دورها تقوم تسلط عليه شوية نسوان بلدي يقوموا له بوصلة ردح، يفقعوه نشيد مثلا، أو ياخد له كذا شتيمه من النوع الحياني، لو فشلت أو ماجابتش يعملوله فضيحة بجلاجل جوه شغله، أو يأكل علقه قدام أهل دايرته وده دور البلطجية، وطبعا مش هاقولك اللايحة بتاعت الحكاية دي شكلها إيه، كله بتمنه، أنا ماليش دعوه بده كله، أنا بس بتاع الانتخابات، الإعلانات يعني وتظبيط الناس اللي هاتنتخب، دوري محدد لأني مش بلطجي، أنا بتاع سياسة يابو الفتوح، فاهم إن اللي باعمله ممكن تسميه "رزق الهبل عالمجانين"، يعني باخد من اللي عنده وبأدي اللي ماعندوش، وانا باخد عمولتي، فاهمني، أنا باعمل خير، ممكن تقول متكف (والله العظيم هكذا في الأصل)، صحيح مش زيك، بس قريب من شغلانتك، دوري تظبيط الليلة"

ابتسمت، وأنا أتخيل أنني أصبحت تابعا أمينا لأهم رجال السياسة في طيبة "عبده قرني"!

(٣)

حين يكون راشد في وضعيته الطبيعية أكتشف أنني أسمعه جيدا وأفهمه جيدا كما أنه يكون في أشد حالات الصهللة الفكرية،

كنا عائدين من وقفة احتجاجية في ميدان طلعت حرب، راشد وسعد عابد وفهمي صالح وغيرهم العشرات، لا أدري السبب وراء وقفتنا التي لم تتم، وقفنا عدة ساعات تحت الشمس في الميدان الملكي الشهير في قلب (قاف)، كان عدد رجال الأمن قدر عددنا عشر مرات، نقف مستقلين وكفاية وحركة السادس من إبريل وكتاب وفنانين من أجل التغيير ومن الوفد والغد وبعض من حزب اليسار القديم، وبعض المشاهدين من الشعب الذين يحاولون تقدير درجة المغامرة ينضمون أحيانا وينسحبون أحيانا يسخرون أحيانا ويصارعون معنا أحيانا، لم أكن أدري أن ثورة ما يمكن أن تنمو على مثل هذه النار الهادئة، لكن الصورة الكلية للوقفة الاحتجاجية لم تكن متاحة، وبعد عدة مناوشات أدركنا أن الوقت لم يحن بعد لثورتنا على "المسكوت عن اسمه"، وعادة– وهو المحزن في الأمر – هذه الهبات لاتتم، لكنها تحكي لنا أننا لم ننم بعد تمامًا، أو لم نمت حتى الآن، كان البعض يقول بأنها انتفاضات تسليم الروح، بينما كان القلة على يقين من أنها الخروج من السبات، وللثقة الهائلة التي يتمتع بها الأمن من جانب "المسكوت عن اسمه"، وثقته بأن شعب طيبة قد مات وشبع موتا، فقد قيل في الصحف أن حدوث ثورة ما أمر مستحيل، على أية حال كان ذلك صدامًا مقدسًا بيننا وبين الحكومة، وكنا قد ودعنا "الفاجومي" شاعر مصر العظيم، كان قد توكأ علينا ليركب تاكسي، بينما رجال العياذ بالله أمن الدولة يتابعوننا بأعينهم أمام مدخل العمارة، العمارة التي تحتلها دار "ميتا"، في الظلام يجلسون على المقاعد،

لايمكن تحديد ملامحهم، فلم نكن نملك تلك القدرة على التطلع بها في تلك الوجوه السماوية والتي تحكم باسم "المسكوت عن اسمه"، لكن بقليل من التحايل الذي يتمتع به أقل طفل في طيبة يمكن تمييز علامة الصلاة على جباه بعضهم أو علامة الصليب على باطن المعصم الداخلي وهي سمة تكاد تكون شائعة الآن، سمة التمييز والفخر الذي وصفه فرانسيس فوكوياما بأنه أحد أسباب التحضر الذي سيؤدي إلى نهاية التاريخ، لا أعتقد أننا نعترف بمسألة نهاية التاريخ فقد وضعنا النهاية منذ الفرعون الأول، لاحظت ذلك سريعاً، لم يفعلوا شيئاً، كانوا غارقين في الضحك واللامبالاة، أفسحوا الطريق، أردت أن أكلمهم، لكزني راشد، ووشوشني قائلاً،

"لاتكن مجنونا.. نابهم أزرق"

ركب الشاعر العظيم التاكسي الذي وقف سريعا وانطلق سريعاً والسائق يردد العياذ بالله فقد اشتم رائحة رجال أمن الدولة، في البداية كان السائقون يلمحونهم في الشارع فيسرعون بسياراتهم، إنهم يدركون بإحساسهم الداخلي أو بحاستهم السابعة أن في الأمر لعنة ما، أو أن تاريخهم السابق معهم يدفعهم للركض سريعاً، أو لبعض الاعتبارات الشفاهية ونقل الكلام والروايات التي تتمتع بقدر غال من السادية التي لم يصل إليها جهاز أمن من قبل، أو تلك الاعترافات الآخرين، أو سماعهم لأصوات من يتلقون التعذيب أثناء سيرهم بجوار مؤسسات الأمن، بصراحة لم اقترب منهم إلى هذه الدرجة من قبل، أو هكذا كنت على يقين من ذلك

قبل تلك اللحظة، لكن ماحدث أن يقيني تفتت أمامي فجأة، أدركت أني أعرف بعض تلك الوجوه، قابلت تلك الوجوه من قبل أو أني أعرف تلك الرائحة، كان هناك شيء ما داخلي يقول لي أني أعرفهم، حدس ما ليس له علاقة بملائكة أو شياطين، حدس قاتل أمسك بعقلي، عقلي الذي لايعمل جيدا، الذي نقلني بعيدا في تلك اللحظة لسؤال آخر، لم يستطع عقلي التملص منه، هل هناك فرق بيننا وبينهم،؟.. ابتسمت وأنا أستمع لنفسي وأصعد بجانب راشد الغارق في دخان سيجارته السلالم المظلمة نحو باب صالة الدار،

"طبعًا يامغفل فروقات كثيرة، هناك فرق في درجة الاقتراب من الدولة، النظام يعني، هناك أيضًا الفروقات التي بين الملائكة الذين من المفروض أننا نمثلهم في ظننا طبعا، والملائكة الذين هم يمثلوهم في ظنهم أيضًا بالطبع، أما الشياطين فلم يكن لهم وجود إلا في ظن كل فريق نحو الآخر، إنها مسألة مثيرة للسخرية"

يصرخ شهدي بعد أن يطيح به السكر،

"هم معاهم نفس الجنسية ومعاهم الدولة، إحنا معانا نفس الجنسية ومعانا الشعب، ممكن يسحبوا جنسيتنا، لكن مش ممكن يسحبوا الشعب واضيح!".. أقول له ضاحكا،

"الشعب لايوجد على رقعة الشطرنج ياعم شهدي"

يسألني فجأة،

" تفتكر يافتحي اللي متغطي بالشعب عريان ولا مستور"،

ابتسمت وسألته،

"طب هو فين الشعب"

سألني،

" طب هي فين الدولة "

يتطلع لي مبتسما ثم يهدأ،

" بس تعرف ياواد يافتحي أنا مش عايز الجنسية خلاص ..أنا ها أهاجر وأبطل كتابة..أنا عايز أعيش في هدوء..ديك أبوكوا لديك الحرية!.."

ثم يصرخ

" في صحتكم.."

ويتجرع زجاجة البيرة دون أن يرفعها من على فمه، لا أحد يدرك حروب المثقفين .. على الأقل مع ذواتهم إنه هذا التمرد اللعين القابع في الداخل حين يصل الوعي لقمته، حين يصل الوعي لقمته ويتحول لجنون هادئ، يتحول الأمر إلى حرب لعينة مع الذات ومع الدولة، يهادن كي يقف على قدميه، يتحول إلى دوني أحيانا بفعل الرغبة، وقد يتحول إلى شاهد عيان ضد كل زملائه، لكنه لايفقد روح التمرد،

"هو مش سبارتاكوس.. ده كائن بشري طبيعي .. ولا ده كائن منقرض.. حد يرد ياأولاد القوراض! "

ترددت كلمات داخلي،

"أنا لست أكثر من عبد قديم، حاول أن يكسر الطوق من على رقبته الخشبية، إلا أنه ازداد ضيقا، وحتى لايتحول لبشر كامل، أصبح قطعة من الخشب يتم تحريكها بأوامر عليا، حين تلتف الأصابع على الرأس لتحريكها، لايملك هو في تلك اللحظة أن

يقول لا، فقد تم تنفيذ الرغبة القدرية!"

يتململ الشاعر العظيم من السؤال الذي وجهه إليه أحد نشطاء حزب اليسار الإيطالي، وهو إيطالي الجنسية، لكنه من مواليد طيبة ومن رعاياها إذا لزم الأمر وغالبا لايلزم، إنه من أهل طيبة الذين يعيشون هناك، حين سأله،

" تفتكر ياأستاذ إن حركة اليسار ممكن تنشط في طيبة تاني"

لاأدري لماذا تبرعت بالإجابة،

"اليسار..أنت متأكد إن فيه حاجه اسمها اليسار.. طيبة مافيهاش دلوقت إلا ثلاث طبقات.. طبقة الدولة وطبقة الأغنياء، وطبقة الفقراء، أما طبقة المثقفين فهي طبقة جري تجريفها منذ عدة سنوات، أو تعريتها، حتى تصبح هامشية، الباق منها شراذم الآن، لقد اختار بعض المثقفين جانب الدولة، في حظيرتها المؤكدة، والبعض الآخر اختار الرحيل، والبعض اختار الموت، لقد استوعب النظام المثقفين، اليسار ليس موقعه هنا، بانتهاء المعسكر الشيوعي وصعود نجم مجتمع المعلومات والولايات المتحدة انتهى كل شئ، الدولة نفسها الآن أكثر ديمقراطية من الأحزاب جميعها بعد تخريبها بفعل فاعل، واليساريون القدامى من شيوعيين واشتراكيين وتروتسكيين وتقدميين أصبحت تحت أيديهم كل وسائل الإعلام تقريبا لكنهم أصبحوا جزءا من الدولة، لقد اتحدوا مع الدولة من أجل مهاجمة التطرف الديني، وبعد انحساره إلى حد ما نسوا دورهم الحقيقي، أصبحوا هم أنفسهم جزء من الدولة، لكن ربما تكون هناك حركة رقابة على أداء الدولة من قبل

المثقفين الجدد، الطلاب والصحافيين، أما القدامى فقد أوشكوا على الانقراض، عالم المعلومات عالم يتميز بالشفافية، تخضع الدولة لضغوط خارجية متعددة تراقب أدائها، عبر الإنترنت والمدونات والمواقع الخاصة بمنظمات حقوق الانسان، الطيبيون بطبعهم لايتمردون إلا إذا طفح الكيل، بالمناسبة هناك من سرق الكيل من أهل طيبة في السنوات الأخيرة"،

هز الشاعر العظيم رأسه وقال،

" بص يا أخينا الأمور مش زي الأول، فيه هاجس عندنا اسمه الجماعات الدينية المتطرفة، أكيد مافيش عند الطليان حاجة زي كده، يمكن كان زمان بعد الحرب العالمية التانية..والسي آي إيه خلص الطليان منه.. إحنا عندنا مشاكل كتير، يمكن أمن الدولة (العياذ بالله هذه من عندي) وبعدين أنا باقول اللي أنا عايزه، النهارده كله بيقول، بس ما فيش حد بيسمع، راشد"..

ناوله راشد سيجارته، وأخذنا نتطلع لليساري الطيبي الذي يحمل الجنسية الإيطالية وهو ينهض متثاقلا مدعيا لقاء لديه في الفندق الملكي الواقع على ضفة النهر، حقيبته الجلدية الثمينة المثقلة بالورق، يرفعها مع معطفه الأوروبي وهو يتطلع لساعته الرولكس، يخرج معه راشد مودعا حتى الباب ويتركه ويعود!

حين سألت عن فهمي صالح علمت بأن رجال الأمن قد قبضوا عليه هو وبعض من شباب الحركات الاحتجاجية ضمن آخرين منهم الناشط مسعد أبو فجر السيناوي، ومجموعة كبيرة من شباب الإخوان المسلمين وشيوخهم بسبب كلام كتب على الفيس

بوك، أو كلام كتب في الصحف أو كلام قيل في القنوات التليفزيونية، كان الكلام ممنوعًا ولم يكن بأيدينا أي شيء يمكن أن نفعله سوى مواصلة الحديث في جرائد المعارضة عن ضرورة الإفراج عن كل المعتقلين، لكن فهمي صالح لم يخرج أبدا ولم يكن هناك من يسأل عنه سوانا، كنا ننساه أياما، ونتذكره في بعض الأوقات إلى أن قرر راشد نشر روايته، كنا سعداء بهذا الخبر، كان ذلك أمرًا جميلا للغاية، وكان راشد سعيدا بقراره، واحتفلنا تلك الليلة بالرواية المنتظرة!

(٤)

أقف في مطار "قاف" هناك بعيدا في مواجهة باب الوصول، الزحمة على أشدها، أتلهف لظهور "ميغان" السماوي، وهي تتبختر على أرصفة قاف، مئات الظلال التي تتحرك أكاد لا أراها، عقلي مشبع بميغان ولايريد التزحزح، صورها التي أرسلتها لي أخيرا قالت بأن هذه الصور لم تنشر بعد وأنها أرسلتها لي أنا فقط، لا أدري لماذا كانت هذه الصور تربكني أكثر، تدفعني للمزيد من الحياة؟، الحياة والارتباك سيان حين يزداد الأمل اقترابا، ضوء شمعة الحياة يكتسب قيمته بالارتباك، الارتباك سيد الأدلة على أن لدي رغبة حقيقية في الحياة، أغوص في أعماق الظلام وأنا أعلم أن الضوء الضعيف يترقرق هناك بعيدا في الأسفل أو في الأعلى، كان يجب أن أغوص إليه أو اصعد إليه، لكنه لم يكن قد مات!.

لم أسأل نفسي من قبل ما الذي دفعني لكتابة رواية في ظل

العشرين عاما التي تركتها خلفي دون أن أدرك أنني فقدتها، ما الذي حدث ليدفعني فجأة إلى المقدمة كما أتخيل، للكتابة، للتمرد على العشرين عاما الماضية، كأني كنت أعيش داخل كهف، أو أنتمي لحقبة حجرية سابقة، ما الذي دفع الدماء في عروقي فجأة حين نهضت من أمام شاشة الإنترنت هذا الصباح، كهف الإنترنت، تلك الساحة الخالية إلا من الخيالات والجنون التي استغرقتني جزءا كبيرا من تلك الأعوام الساقطة والمنسية، كنت حبيس تلك الأجهزة، لا أدري إن كان ذلك حقيقيا الآن أم لا، لكنني خرجت من تلك الحجرة، ومن الإنترنت بعد أن أغلقتها، حدث ذلك فجأة دون أي ترتيبات مسبقة، لم يكن لدي فكرة عما الذي سأفعله، لكني كنت راغبا في وضع عينين جديدتين لحجر الشطرنج عله يستطيع التحقق مما فاته، كأني كنت أنزع نفسي منها، كنت محشورا في الداخل، بلا مشاعر حقيقية نحو الحياة، كنت قد تحولت لعشرات من النسخ الإلكترونية والأكونتس التي تتسمى بأسماء مختلفة، كنت أقتل أحد تلك النسخ كل يوم وأخلق نسخة جديدة، بأسماء جديدة وبرموز وأرقام، أدمنت أن لا أكتب اسمي بحروف إلا أحيانا، كنت أضع مكان إسمي رقمًا، رقمًا وحيدًا كنت أشبه في ذلك أبطال روايات عديدة تتميز الآن بأنها كلاسيكية، أو أسمي نفسي بأسماء رؤساء الجمهورية والسلاطين السابقين، أو أسماء أبطال روايات حلمت بكتابتها، أنقسم كل يوم لعشرات الأسماء، إلى أن أصبحت الحقيقة نفسها تائهة، أصبحت كائنا آخر لايعرف نفسه، ولايبحث عن فائدة في أن يكون المرء

حقيقيا، كنت أعيش كيفما أريد، لم يكن هناك من يهتم بما أفعله، كنا بشرًا يقابلون بشرًا، أو آلهة تقابل آلهة، يمكنك أيضًا أن تسمي نفسك باسم حيوان ما المانع، تخلص من بشريتك المزعومة، الأمور هناك سحرية للغاية، نجحت شركات صناعة المعلومات الأجنبية في الولايات المتحدة وفي أوروبا أن تجعلنا مانريد، وفق ماتريد هي، هل كان يمكنني أن أدرك ذلك؟ لكني على نحو ما كنت متأكدا من أن ذلك قد تم بسهولة، بسهولة شديدة.. بسهولة إراقة ماء الحياة، على قطرة مطر.. بسهولة الحياة.. وبسهولة الموت نفسه!

(٥)

لم يمنع أحد عساكر الشطرنج من التجول في مجتمع المعلومات بحرية طالما يملكون هذه القدرة، ولأنها كانت قدرة ليس لها تأثير على أحداث الرقعة فقد تركنا المتحكمين فينا نفعل ذلك، نفعل ذلك دون تأثير على مايجري على الرقعة، وكان "المسكوت عن اسمه " صامتا أغلب الوقت.

أقابل تلك الصور لنساء شتى، أبحث بجنون في آلاف النساء المحشيين في الداخل، عن وجه حبيبتي، أو حتى من تشبهها جسدا، كنت أجد ذراعيها لدى واحدة، وقدميها لدي أخرى وعينيها لدى ثالثة، وصدرها لدى رابعة وهكذا، خرجت بالعشرات من الصور التي كنت أضعها في ملفات شتى على سطح المكتب في الحاسب الخاص بي والذي كنت أغيره دون أن أدري كيف؟، كنت

ألف العالم من الصين حتى المغرب، أبحث في صور النساء، في مواقع أقسام الشرطة، والمستشفيات، والشئون الاجتماعية، والشركات، وبيوت الدعارة الافتراضية، ومواقع بيوت الأزياء، والمصورين، وفي صور المجلات، في إعلانات الفنادق، في أوكار القمار، في المنتديات السوداء والبيضاء، أبحث عنها، أبحث عنها غير واع بما أفعله، أو ربما كنت أدعي أنني غير واع، فجأة وجدت نفسي أغلق كل شيء، وأخرج إلى الشارع، ثم فقدت إحساسي بكل شيء إلى أن وجدت نفسي أمام إيزائيفتش، وأنا أقف أمام مقهى وادي النيل ثم "كيه إف سي"، كأني أتطلع لصورة سريالية قديمة لإيزائيفتش، علي أن أتخيل أن إيزائيفتش كان في هذا المكان في تلك اللحظة السابقة في زمن بعيد، في هذه اللحظة كان عمار الشريعي يعزف في إذاعة البرنامج الثاني طلعت يامحلا نورها لسيد درويش، كانت حبيبتي على الناحية الأخرى من الهاتف تذكرني بميعادنا القادم هناك في مطعم ومقهى إيزائيفتش في ميدان التحرير، أكدت حضوري وأنا أتطلع للهواء الناعم الذي يهش وجه المدينة، أغلقت الهاتف، وتذكرت كتاب "أميرة الثلج" الذي طلبته مني قبل أن تتركني بأيام قليلة، توقفت عن المسير أمام مكتبة "هاشت" في ميدان طلعت حرب التي اشترتها بعد ذلك دار الشروق، زخات خفيفة من المطر أتت فجأة لتذكرني بأن ايزائيفتش احترقت منذ عشرين عاما، وأن حبيبتي تزوجت منذ عشرين عاما، وأن "هاشت" الفرنسية التي كانت دلالة على تغلغل الثقافة الفرنسية في طيبة لم تعد موجودة أيضًا، وأنني

أعيش تلك الحكاية منذ عشرين عاما، من الذي كان يحدثني إذن!!
أقف في انتظار "ميغان"، أسأل نفسي هل ستأتي أم أنها كذبة من كذبات عقلي حين تصبح الحقيقة قاتلة ومجحفة.. أنتظر كائنًا سيأتي من خارج كوكبي الجميل ذي الملامح الضاحكة!

(٦)

حين جلست على الكنبة – في قول آخر مقدس في الروايات الأريكة– واجهني قرني بابتسامته الخلابة البريئة، إن حركة الجلوس على الأريكة حركة لم تكتب أيضًا من قبل في أي سجل لألعاب الشطرنج، لذلك كان ذلك أمرًا مدهشًا، فكرة الجلوس في حد ذاتها، هنا كنت أعتقد بالفعل أنني بيدق يحاول أن يتحول إلى إنسان من دم ولحم، هل رأيتم من قبل عسكري شطرنج يجلس على أريكة؟ ها ها ها سمر واين ياأريكة.. ها ها سمر واين !
كان جالسا يدخن سيجارة حشيش مزكومة بعشرات الأنفاس التي لم تخرج بعد، يتحدث طويلا عن "ثكنته" الكاملة في شخصي، وهو لايعلم تمامًا – وأنا متأكد من ذلك – كيف ينظر عسكري شطرنج إلى نفسه، كانت حركتي على الرقعة المقدسة قد بدأت بالدوران منذ تلك النقلة التي تمت بالأمر الذي نقله لي الحاج كمال إسطفانوس، منذ هذه اللحظة كانت أوامر "المتحكم" تزيد من سرعتي ومن حركاتي وبالتالي نقلاتي على الرقعة الخطيرة، الخطيرة للغاية، أتمتع بالنظر إليه وهو على هذه الحالة، أدرك جيدا أنه لايعلم شيئا عن عالم المعلومات المقدس، وأنه يريدني كما

أنا، كان علي أن أمنحه تلك الحقيقة التي يريدها، يدرك هو جيدا نظرات إعجابي به، إنه يعلم أنني أريد أن أكون مثله الآن، على الرغم من "ثكافتي" المزعومة، كنت أتخبط، أحاول الوصول لدرجة من اليقين الذي لم أجده لدى أي شخص قابلته، لكنهم يضحكون جميعا ويستمرون في الحياة، وكنت أنا الوحيد الذي توقفت حياته، توقفت عند تلك اللحظة -الدامية - في ظني المتوهم، أنا واحد قالت له حبيبته إنها حملت من رجل آخر على سريره، فما المنتظر منه أن يفعل؟، جلس وتناول عدة زجاجات من بيرة ستلا، لم يكن هناك غيرها في طيبة وقتها، ولم أكن قد وصلت بعلمي إلى نوع آخر نظرا لانحطاطي المعلوماتي، ما المنتظر أن يفعله رجل مثلي؟ نهض وفقد الذاكرة، بعد أن ألقى نظرة وداعية خلفه على المكان، نظرة خائبة تمامًا، وربما لم ألق هذه النظرة بحكم طردي من قبل الجرسون الذي يرتدي ثيابا بيضاء، لقد جمدني تمامًا عبده بحركته تلك على الرقعة، هاجمني عبده ولم أكن مستعدا للهجوم في تلك اللحظة، هاجمني وشل ذاكرتي، كانت إذن هي تلك الحركة التي جعلتني أتراجع، وأقف طويلا، طويلا للغاية حتى علتني الأتربة، كانت نظرتي إذن ليس لها نصيب من الصحة، تطلعت إلى كتاب أميرة الثلج الملقى على المنضدة في إهمال، الكتاب الذي أمسكه عم عبده جرسون زجاجات البيرة في أسترا وهو يدفعني مصرا بأن الليلة انتهت وأنني يجب أن أخرج، وحين خرجت ألقى بالكتاب إلى فسقط من يدي هناك ليقع على الأرض فأحمله في هدوء كأنه كائن من

بللور، انزعجت بشدة، رغم أنها تركته ومضت، وهاهو ملقى على الأرض، وها أنا أمد يدي إليه، ألملمه وأحمله، ما الذي دفعني إلى ذلك، كيف لاحظت ذلك وأنا أفقد الوعي؟ رائع أن يفقد المرء ذاكرته لاعتراف سخيف من امرأة بأنها خانته، كانت (قاف) يتم اغتيالها على مهل، تم الاغتيال في نكسة ١٩٦٧، واستمر سقوط الضحايا منذ ذلك الحين، وكنت أنا واحدا من ضمن الضحايا، سقط ضحايا كثيرون، تذكرت أن "المسكوت عن اسمه الثاني" قد قتل منذ سنوات، وأنه بعد عشر سنوات من موته تم إطلاق شبكة الإنترنت التي دخلتها يومها ولم أخرج بعد ذلك، كان الجميع يدرك أنه ميت لامحالة، لكن متى وأين وكيف؟، بارانويا العظمة في تفسير البعض هي التي قامت بذلك، والجني الذي أطلقه من القمقم لمحاربة الشيوعيين هي السبب، وطموحاته في حكم أمريكا هي التي قتلته، كانت هناك أسباب كثيرة، لكن لم يكن من بينها على الإطلاق أن هناك امرأة خانته فمات، كنت أنا الذي ينطبق عليه هذا القول العجيب، كنت مدفوعًا لهذا الطريق دون أن أفكر في احتمالات أخرى، أخرجني قرني من ذكرياتي الممسوحة التي أحاول إعادتها باستخدام هذا النوع من البرامج الذي يمكنه أن يعيد دائما الملفات المهملة داخل الحاسب، بقوله،

"بص ياعم فتحي..إنت من النهارده هاتشتغل معايا.. مسألة الانتخابات دي مسألة موسمية صحيح.. بس الدنيا مابتتأخرش علينا كتير"!

كانت إذن هذه الحركة الثانية لي على الرقعة، وهي حركة

تتم في امتداد طولي، أكنت أخترق إذن قلب الرقعة، وسطها تمامًا، مشاركا في الهجوم الذي يقوم به المتحكم، ومحاولا التحرر من تلك الحركة التي ألزمتني بها حبيبتي والجرسون عبده في ستلا، ولما رفعت حاجبي مدعيا عدم الفهم.. والحقيقة أنني فعلا لم أفهم، ولم يكن الأمر تمثيلا، ولم يكن ذلك جديرا بي كمثقف ينتمي لفئة كتاب الرواية، وهو مالم يحدث حتى الآن، لكنه على الأقل سيحدث في زمن ما، وطالما أكتب، وطالما أنشر قصصا قصيرة في بعض المجلات التي لايقرؤها أحد، وطالما أحلم بكتابة الرواية، التي كتبتها بالفعل لكن بشك يمتد بجذوره حتى كليم الله، شك يلازمني دائما بأنني انتهيت من تلك الرواية بسبب حواراتي المستمرة مع راشد، كان راشد في تلك اللحظة يبدو لي ككتاب محاورات الشطرنج، محاولا فهم استراتيجية اللعب والحركة، كان مايفتأ يدفعني في شقوق مختلفة مع روائيي الدار لمناقشتهم فيما كتبت، أخضع لعمليات تعذيب دامية، أراجع نفسي أحيانا لكن المسألة كانت مختلفة تمامًا، لا أقتنع في كثير من الأحيان، لكنه يردد دائما، تحرر من موروثك في الكتابة، ولم أع أبدا ما هذا الموروث الذي يجب أن أتحرر منه، كنت أهز رأسي مؤكدا على كلامه، لكني أحيانا كانت تلتبسني كل عفاريت الشوفينية الإنسانية الراسخة داخلي، وأرفض الانصياع، فيدفع لي بزجاجة ما وهو يهز رأسه في حنو بالغ، أرفض بداعي داخلي أنه يجب أن أحترم نفسي – أمام الأجانب يعني – مصرا على أن ماكتبته هو الأفضل، إلى أن يحل الهدوء، يأخذنا الكلام في مسالك السياسة

البولية، لا خبر عن فهمي صالح للأسبوع العاشر، ولا أحد من أهله سأل عنه، وزملاؤه في الجريدة لايعلمون عنه شيئا، وأصدقاؤه الذين ينتمون للصعيد أيضًا يأتون ليسألوا عنه أحيانا عند راشد، ولكن لا خبر، ظلام مطبق، لا أحد يعلم، كلمنا مسعد فجر في الموبايل في قلب المعتقل، وكان يضحك كأن شيئا ما لم يحدث، كانت عدالة قضيته هي سبب كل التفاؤل الذي يملؤه، أشعر بالاختناق أخرج وأنا أرفص من الغيظ، أهيم في الشوارع المحيطة القريبة من أسود قصر النيل، أدور حولها مطفئا غيظي في أضواء السيارات بطوابيرها الطويلة التي لاتنتهي، كنت أرى تلك الومضات الحمراء الكثيفة التي تأتي من خلفيات السيارات، ألم يكن ذلك إيذانا لي بالتوقف، كان الخطر، إحساسي بالخطر ينتابني كثيرا وأنا أتطلع إليها، كان يجب أن أتوقف، وأعود إلى المربع الأول الذي بدأت منه وأستكين، إلى الجحر المظلم الرطب الذي خرجت منه منذ ساعات، لكني لم أفعل، ولم ألق بالا لكل إشارات الخطر الحمراء التي تومض في عنف، حارقا كل الهواء الذي في صدري بسيجارة سرعان ماتحترق حين أقترب من أسدي الجميل الذي لايتحرك، والذي تعلوه قذارة طيور الغربان السوداء التي تقف على رأسه في الفجر، حين يختفي الناس لدقائق قليلة، لايتبقى حينها ما أفعله سوى الهرب إلى دولة (بين السرايات) حيث يجلس الجميع للصباح يتجرعون الشاي والقهوة وحبوب التريمادول والفياجرا والحشيش والحديث عن النساء والخناقات التي نشبت مع بعض البلطجية الذين أصبحوا يسيطرون

على الحي، يفعلون فيه مايشاءون باتفاق مسبق مع الأمن، أو عدم اتفاق معه، وربما مع (العياذ بالله)، حيث يدفعون البلطجية للدخول في مناوشات مع الجماعات الإسلامية المنتشرة في الشوارع، أو للحصول على بعض الإتاوات من رجال أعمال التصوير الجدد، كانت الصورة مختلطة ومترنحة، البلطجية عرائس ماريونيت (العياذ بالله)، ناهيك عن أعوانهم وبصاصيهم الذين يهيمون في كل الشوارع، كان الأمر كله لعيناً، الحي الذي لم تعد الشرطة تدخله إلا نادرا، أفكر ساعتها في النوم، النوم الذي لايأتي أبدا منذ عرفت الطريق إلى (مينا!)..

كانت السياسة زحمة..

والأمن زحمة..

والدنيا زحمة..

ولم يكن هناك صوت لسمر واين!

سمر واين يا قرني!

الفصل الثالث عشر

(١)

تقول لي أمينة إنها لم تكتشف أن زوجها الطبيب مصطفى دردير أمين شاذ جنسيا إلا في نهاية الشهور الست، كانت قطعة شطرنج بلا لون، قطعة مثلية تتحرك مطيحة بكل أفكاري عن مبادئ لعبة الحياة!

بدأ صراع أمينة مع مصطفى دردير حين وجدته "أمونة" في وضعية لا تليق- وفق ماقالت- مع رجل آخر في حجرة كشف المستشفى التي يعمل بها، كانا معًا، لم تعترف بذلك لأحد، لم تكن تدري ماذا تقول، هذا هو الأمر في النهاية، الحقيقة التي عليها أن تواجهها، حقيقة حجر الشطرنج المثلي، في تلك الليلة رفضت الاستمرار في مهزلة الزواج وبدأت رويدا رويدا تفهم سبب انهيار زواجهما الذي ماكان يجب أن يتم، كان مصطفى دردير أمين المتشبه بممثل سينما قديم يخفي خلف شاربه وهيئته المقدسة شاذا من الطراز الأول، كانت تلك الحكاية هي القشة الأخيرة التي تركتها تسقط، فيسقط زواجها كله، قال لها أنه ربما يكون مريضًا، وربما أيضًا لا يكون مريضًا، وأن الحياة في مبدئها لم يكن فيها أنثى ولا ذكر، وقد يكون السبب جينات قديمة لايعلم عنها شيئا، لكنه يستمتع بذلك، وأن ذلك أمر طبيعي في الحياة أن يكون هناك

رجل شاذ، وأن الكلاب تفعل ذلك، حين قال لها ذلك، لاتدري كيف أمسكت بمقص الجراحة ودفعته في ذراعه وهي تقول له (الكلاب ياحيوان..الكلاب مش إحنا)، هل كان يمكن لي أن أغني أغنية أخرى بديلا عن سمر واين، التجربة الإنسانية العميقة المضحكة، ذو الشنب الدوجلاس شاذ جنسيا، هل كان يمكنها أن تصرح بذلك لأحد، نحن مجتمع يطمر سوءته بين فخذيه، الحقيقة التي لاجدال فيها هي أنني لم يكن يمكنني البوح بذلك لأحد، كيف يمكن لرجل قادم من الريف أن يتحول لشاذ جنسيا، وكيف يمكنني أن أتعامل مع الموقف في ظل رفض أمينة للكشف عن الأمر في المحكمة، كان هذا هو سر زوجها، ونحن لايمكن أن نتقبل ذلك بأي شكل، سألتها ألم تحاولي علاجه، تطلعت لي في وجل كأنها تقول لي هل أنت مجنون، كنت مجنونا فعلا أن أسألها ذلك، كنت أدرك أنها مع الوقت ستتحدث عن اكتشافها العظيم، كنت أريد أن أمهلها بعض الوقت، ليس لأني مثقف كما أدعي، وأحجار الشطرنج بطبيعتهم ليسوا مثقفين بالمرة، وليس لرغبة في إعادة العلاقة بينهما، فقد كان ذلك مستحيلا الآن، الغريب أنني كنت أردد ذلك دون أن أملك دليلا واحدا على ذلك سوى رفض أمينة، لقد بحثت أمينة في الطبيب مصطفى دردير أمين عن الرجل الذي حلمت به ببساطة فلم تجده، وإنما وجدت رجلا أحيانا وامرأة أحيانا أخرى معها في السرير، فهل كان يمكنها الاستمرار، أي تبرير آخر لمحاولة ردم المسألة كان مستحيلا، نحن مجتمع يؤمن بالعقاب الإلهي، فهل كان يمكن لأمينة أن تفعل شيئا آخر،

مخارجها الدينية والعقائدية والمجتمعية لن تنتهي، في الحي هناك أعرف رجلا شاذا يعيش حياته بشكل طبيعي مع زوجته، يبحث عن الأطفال والمراهقين ليقوم معهم بهذا الفعل لأنه من الداخل لن يمكنه القيام بذلك بشكل علني مع الكبار، هذه مشكلة كبرى في المدينة، عشرات من الذين تملك منهم هذا الأمر يفعلون ذلك مع المراهقين، إنهم يجوسون في المدينة، المدينة التي طأطأت رأسها لما يحدث، ليس لدي أي حكم أخلاقي، يمكنني من اختراق قلب الرواية الآن مادمت أنا كاتبها، لم يكن يمكنني أن أصنع بها أي شيء، والأمر كله ليس له علاقة بالشرف المزعوم الذي أبحث عنه، من ينتظر أن نصدر حكما أخلاقيا على ما يحدث يكون مجنونا آخر، لست معني بالأحكام الأخلاقية، لكني معني بالحياة، معني باستمرار الوجود، كان أحدهم يقول لي، إنها نهاية العالم، ضحكت وأنا أقول له لكن ذلك يحدث ياصديقي منذ بداية التاريخ! كانت هذه هي المشكلة، قالت إحداهن على الإنترنت أن ذلك بسبب خلل جيني، هاجمها الكثيرون بالقول بأن ذلك حرام، وبدأت معركة على الإنترنت، لم أكن معنيا بها لسبب أو لآخر، لكن القضية تحتاج لتعاملات أخرى خارج حسابات الحرام والحلال، إنهم مساكين لأنهم موجودون في مجتمع مثل مجتمعنا، حين يسير الرجل في الشارع، جميعنا يعلم أنه شاذ جنسيا وغريب الأطوار، نتلفت ونبصق على الأرض "خو..."، ونضحك في شماته، هل كانت تصدر إلينا الأوامر من "المتحكم" بالضحك والتريقة، أم كان ذلك نوعا من الغلاسة والتشفي، كانت هذه هي المسألة في نظرنا،

لم نكن معنيين بالاختلال أو بأي شيء آخر، بينما يقول شيخ المسجد وهو يشير إليه، "جهنم وبئس المصير"، فيما يقترب طفل صغير ويضع إصبعه في مقعدته ويركض سريعا بعد أن يشبعه شتائم، أشار الشيخ يوسف الشربيني في كتابه "هز القحوف" لشيء مثل ذلك ربما، لم يكن الأمر هناك أكثر من ذلك، كان الشارع دمويا في رفضه، إلى أن اضطر الرجل للرحيل، لم تعرف زوجته السبب في البداية، لكنها حاولت إلقاء نفسها من الدور الرابع بمنزلها هناك، حين صعدت لسور البلكونة غير المطلي، ولكن لأن ذلك كان مقدرا أن لا يتم فقد تم إنقاذها في اللحظة الأخيرة بسبب فأر رأته في البلكونة الأخرى فسقطت فزعة على رأسها إلى الداخل، المتحكم يفعل الأعاجيب في الأحجار التي تحاول التمرد على إرادته، وربما تكون قد حاولت أن تسكب على نفسها جاز وتوقد في نفسها النار، بعد أربعة عيال لايمكن الشك في الرجل، حتى أولاده وبناته لم يعرفوا بالأمر رغم كل ذلك، لم تستطع المرأة أن تبوح لأولادها بأن زوجها شاذ، لكنها عرفت، قررا الرحيل في النهاية عن المنطقة لمكان آخر لايعرفهما فيه أحد، كانت حياته حين أتطلع إليها جحيما لايطاق، أن تمضي على الرقعة العظيمة وقد اشتعلت فيك النيران تبحث دائما عن من يطفئها لأمر خارج عن كل تصور، ها أنا أواجه الأمر مع زوج أختي، أمينة كانت قد امتلأت بكل الأسباب التي تدفعها بعيدا عنه، وهاهو يحاول أن يعيدها، قائلا إنه لن يطالبها بمرتبها بعد اليوم وأنهم سيعيشون في (قاف)، وأنه سيبحث عن علاج، لكن المسألة

كانت قد تفاقمت، كانت حربهما قد انطلقت ولايمكن لها أن تتوقف!، أو هكذا ظننت!.

(٢)

لايمكن لأمينة أن تستمر مع رجل في نظرها مشوه، ليس رجلا على الإطلاق كما أسرت لي، هل كان يمكنني أن أتدخل في الأمر، حين ضربته في المستشفى، ضربته لاعتدائه على أمينة، وليس لسبب آخر، ما الذي دفعني لذلك، إنه رجل يدافع عن بيته، أكتب ذلك بفعل المثقف، لكني لست مثقفا فيما يتعلق باستمرار حياته معها، كنت أراه وبالًا عليها وعلينا، إخوتي ليسوا معنيين بالأمر على الإطلاق وهذا إفك مني، الأكبر يحاول إعادة أمينة له، بحجة أنه ليس هناك طلاق في أسرتنا، ويخفي السر الأكبر بأنه شريكه في قطعة الأرض الضخمة التي اشترياها بتراب الفلوس من الحكومة في طريق مصر الإسكندرية الصحراوي، هذا أعلمه من أخي – لحمة رأس– طرطش أمامي ببضع كلمات، قالها عرضا، وسمعها عرضا، فهمت الآن سر إصراره على عودة أمينة، كان الجميع يضغط على أمينة من أجل العودة لزوجها مصطفى دردير أمين بحجج كثيرة، وكانت أحلام أمينة جميعها قد انهارت، ولم تعد تملك سوى إبنتها وجحرها السري الذي تم اكتشافه سريعا من قبل الجميع، ولم أعلم إلا بعد ذلك بسنوات بأنني كنت السبب، حين ساروا خلفي وأنا أقفز من ميكروباص لآخر، كنت بطيئا وغبيا ولم أفهم أنني كان يجب أن أحترس،

لكني لم أحترس، وهاهو الأمر وعلينا حله الآن؟!

(٣)

حين عدت للفندق الكبير في المساء وجدته أمامي كان يصطحب امرأتين جديدتين، نفحني ورقة بمائة جنيه، صعدت معه وأنا أبتسم له، كان حليق الوجه يرتدي بذلة صيفية يبدو عليه أنه فلاح، لكنه أدمن مهنة القوادة، وجهه الدائري اللامع يشي بذلك، أميل عليه بأنني أحتاج إلى امرأة لعدة ساعات يقول ضاحكا،

"من عينيه.. هابعتلك واحدة بعد ساعتين بس ماتأخرهاش وراها شغل في حتة تانية"..

هل كان علي أن أبتسم فقط في طمأنينه بأنني سأروي عطشي تلك الليلة، تلك الليلة لن تزورني فيها ملكة البلاي بوي الحمراء اللامعة، التي تنعكس الأضواء على صورتها فتزيدني التهابا فوق التهابات قشرتي الدماغية، تلك الملكة العارية التي تحتل الغلاف كل شهر، أتابعها لمدة شهر على الوب سايت، إنها أسمى علاقة تاريخية يمكن أن تقوم بين امرأة ورجل لا تعرفه، أتذكر متى فعلت ذلك، فعلته في لحظة بين النوم واليقظة، فعلته في غيبة كثير من الأشياء، في غيبة حبيبتي التي تركتني لتتزوج من رجل آخر، رجل آخر لم أره، ولم يكن مهما أن أراه، ولم يكن حتى مهما أن يأتيني ليطلب مني أن يتزوجها، لم يعد كل ذلك مهما، لقد ارتفعت حبيبتي عن كل ذلك، قالت لي بنفسها إن الأمر انتهى وأن عليها أن تتزوج من الرجل الآخر الذي لم أكن في

حاجة إلى أن أراه أو أن أتعرف عليه، ولم يكن لدي فضول حتى لذلك، كان الأمر قد انتهى بالضربة القاضية لي، احتل رجل آخر الثقب الأسود لحبيبتي وانتهى الأمر، الثقب الأسود اللزج، كيف دخل وكيف خرجت لا أدري، لم أرد حتى أن أذهب إليها لأراها معه، كانت كلماتها تكفيني بأنها انتهت مني وإلى الأبد!

علي أن أتحمل كقطعة خشب مطلية باللون الأسود الذي بدأ في التقرح والسقوط هذا الأمر، لكني كما يبدو لي من واقع ما سردته لم أستطع، كنت أحارب معركتي، دون ذكريات، وبرغبة وحيدة، رغبة وحيدة في معرفة ما حدث، وكيف حدث؟!

كانت سمر واين هي الملاذ..

سمر واين يابشر..

سمر واين..!

الفصل الرابع عشر

(١)

هل يعرف "بافاروتي" الشطرنج، لا أعلم مدى صحة هذا الأمر، لكني كنت أستمتع للغاية بعقيرته السوبرانية حين يرفعها متحديا السماء، كأنه يدعو الملوك للاختباء على الرقعة المكونة من لونين فقط متضادين، بافاروتي أيها اللعين، كيف انحنيت أمام الملوك؟

كيف لم أفكر من قبل في السبب الذي من أجله طلبت حبيبتي أن أشتري لها أميرة الثلج؟، لم يحدث أن طلبت مني شيئا من قبل مثل هذا؟ لم أسأل وقتها لأني كنت غارقا تمامًا في مشاعري نحوها، لم أسألها ما الذي ستفعلينه بتلك القصة الغبية؟ لم أفهم وقتها ولم أفهم بعدها؟ لقد بحثت في الشبكة العنكبوتية عن كل ما كتب عن أميرة الثلج، وللغرابة وجدت أفلاما جنسية لها، ووجدت صورا لها كفتاة شاذة تعيش مع سبع رجال أقزام، يملكون شكمانات ذكورية فاضحة، وصورا لها في أوضاع مخلة، ومع ذلك ظلت أميرة الثلج جوهرتي المقدسة، كيف تعلقت بقصة الأطفال تلك فلا تبارح مربع الكوميدينو الخشبي بجواري، الكوميدينو الشيء الوحيد الذي ورثته عن أمي، ولكن لسبب ما، سبب ما غير مفهوم احتفظت ذاكرتي بالأغنية واحتفظ بصري

بتلك القصة المكتوبة حتى بالفرنسية، ولم أكن أدرك منها الكثير طلبتها من البائع ودفعت ثمنها، وخرجت أسير وأنا أحملها، أحاول أن ألفها في كيسها جيدا كي لا يراها أحد في يدي، كي لايرى أميرة الثلج الفرنسية والأقزام الصغار الذين يسيرون بجوارها، أميرة الثلج التي أتطلع إليها فأرى عيون حبيبتي القديمة كأنها لم تبارحني، كانت مرسومة بعناية فائقة، فستانها المزركش المبرقش بالألوان يبيح لي الاستغراق في بحر من الألوان التي تملأ عيني، اتطلع إليها في ود فأكاد أتلاشى من الوجود، لم أكن رومانسيا من قبل إلى هذه الدرجة، هاأنا أحتفظ من حبيبتي القديمة بذاكرة نصفها إنجليزي والنصف الآخر فرنسي، ليس لها ذكرى تنتمي لمحليتي المفرطة، لكنى أدركت أنني لم أفقدها تمامًا حين لمعت أمامي "زحمة يا دنيا زحمة"، كيف تركتها ومضت دون أن تأخذها معها، كانت إذن ترفض علاقتنا بكل مافيها لسبب ما ادعته وقتها، لكني كنت أعلم داخلي أن هناك شيء آخر خفيًا ومدسوسًا في هذه الحكاية!

فقط كان جلوسنا أحيانا في الناحية الأخرى من تماثيل أسود قصر النيل حيث يلتئم شملنا لنسرح على أرصفة التحرير ننتقي بعض البضائع الرخيصة من هؤلاء الباعة الذين يفرشون كل شيء على الأرصفة، وكلها بضائع صينية وهو أمر طبيعي الآن ربما ليس في (قاف) وحدها بل كل مدن العالم، نتضاحك مع الباعة وندخل في حوارات ليس لها مايبررها غير الاستمتاع بالأرصفة، والابتسام والضحك وحتى البكاء حين تنسد في وجوهنا

كل السبل، أو لندخل الأمريكين أو جروبي، رموز الملكية التي لم تستطع الثورة أن تقضي عليها، هاها، لم يكن إذن مقدرا لنا أن نخوض الثورة، لأن "المتحكم" وقوانين لعبة الشطرنج تتنافى مع فكرة الثورات، وبالتالي كان مقضيا عليها بالفشل منذ اللحظة الأولى، المؤسي في الأمر أننا استغرقنا وقتا طويلا، طويلا للغاية ياسمر، طويلا يملؤنا هذا الشك الفرعوني لنقتنع بأن الثورة لم يكن هناك لزوما لها، ما الذي كانت تريد الثورة أن تقضي عليه، فشلت، فشلت فشلا ذريعا، ها نحن خضنا تجربة طويلة، طويلة للغاية في حياة الشعوب لنعود للنقطة صفر، نقطة صفر اخترناها بعناية كاملة من العجز الذي فرض علينا،

صفر يافتحي..

صفر اسمه التوريث يافتحي..

صفر ضخم اسمه الملكية الجمهورية البعرورية يافتحي..

سمر واين يا فتحي..

أميرة الثلج يا فتحي..

سمك واين يا قرني..

سمك لبن تمر هندي يا فتحي ..

مرحى بالجنون الذي لا ينتهي!

(٢)

كنت قد اتفقت مع قرني على أن نبدأ الحملة الانتخابية للسيدة المليونيرة في المنيل، كان الاجتماع الأول في فندقها الذي تملكه

بالمهندسين، كنت أشعر بالخوف، لا أدري سببا له، فأنا لم أتعود هذا الإحساس من قبل، كان الإحساس الأكثر انتشارا في شراييني هو إحساس اللامبالاة إنه أكثر الأحاسيس انتشارا بيننا الآن، فلا شيء يعنينا مما يجري، ممكن أن نكون انتهازيين بشكل أو بآخر للحصول على أي مكسب من المرشح، لكننا غير معنيين بما سيفعله، طيبة ليس لها علاقة بالمرشحين، فقط ماسيأتي منهم من أكل وملابس ونقود وحشيش ونساء في لحظة محددة، لأنهم يعلمون جيدا بأن الأمر سينتهي بعد ذلك، ستمر السنوات الخمس دون أن يسمع أحد عنهم شيئا، عادي للغاية وسينامون على مقاعد مجلس الشعب (كانت لفظة الأمة قد تم استئصالها، منحتنا الثورة كل هذا الهراء ولم تستطع استئصال الأمريكين أو جروبي)، إنهم ينامون تمامًا ليس مثلما ينام المثقفون على كنبتي راشد في (مينا) حين تتعب رءوسهم من الحياة والكلام، فلا يبقى سوى الاستلقاء وانتظار الموت، أشعر بهم هناك إنهم في انتظار الموت، فلا شيء يتغير، وآلاف الكلمات التي كتبوها لم تغير شيئا، بحر من الندم المفرط، ومع ذلك فسيحصل أعضاء مجلس الشعب على مايريدون، بينما سيحصل المثقفون الجدد على..(طبعا أنتم تعلمون جيدا الآن ما الذي سيحصلون عليه!)، أما الأعضاء الذين يحلمون بأن تمر عليهم خمس سنوات فسيتم اختيار واحد منهم فقط، واحد منهم سيفعل ذلك، وعلى ذلك يجب اختيار الأكثر ثراء، لأنه أكثر من سيدفع لنا، إنها الرشوة الجماعية التي علينا أن نقبلها، فليس هناك مصير أفضل من ذلك لهذه الأموال الطائرة، الوعود

والأحلام تقال لإعطاء مزيد من الألوان للصورة الفاشلة التي على الجميع أن يخدع نفسه بأنها حقيقية، الأكثر فصاحة في الأمر أنني مقتنع بأننا جميعا مرتشون، نسير في شوارع المنيل المظلمة بعد الرابعة فجرا، وكنت قد أنهيت دوريتي بالفندق ومرت الليلة بشكل جاف ومأساوي تمامًا، ليلة أخرى تكاد تلفظ أنفاسها دون فعل إيجابي واحد، إنه مهزلة شكسبيرية كاملة، أن يسير حجرا شطرنج في قلب الليل في شوارع المنيل دون هدف محدد، هل كان "المتحكم" يرغب في ذلك!

(٣)

كان قرني ينتظرني لنذهب معًا، طلب مني عدم الكلام، سيقول لها إنني مساعده، إنه يريدني أن أردد بعض الكلمات الكبيرة التي عادة ما يتشدق بها المثقفون أمثالي، شوارع المنيل مظلمة وباردة، لا أحد تقريبا سوى بعض الباعة الذين يسيرون فجرا، وبعض الأتوبيسات التي تحمل الناس لأعمال لاتتم، إنها المدنية الحديثة من المنظور القافي، القافي تمامًا، عليك أن تعمل وأن تقبض وتجوع، فأنت في الحقيقة لاتعمل وفي الحقيقة لاتقبض، والحقيقة الأكثر مرار أنك تجوع، مازلت جائعًا فقيرًا، أنت موظف في صورة متسول أو العكس أنت تتسول في الحقيقة على صورة موظف، ولاتملك حلولًا أخرى، فأنت تحلم بالرفاهية، الرفاهية التي لن تأتي أبدا من عمل حكومي، العمل الحكومي الشريف – خذ بالك من هذه الكلمة– عمل حكومي شريف، مثل

أخي شريف تمامًا..هاهنا سمر واين ياحكومي ياشريف يامن لايوفر حياة كريمة، حتى الواد أخي لحمة رأس أدرك ذلك، عمله كسائق ميكروباص – سأستخدم هذا المسمى بديلا لمسمى سائق توك توك– لايجعله يتسول في الكثير من الأحيان، الأفضل الآن أن تتسول بعض الوقت من أن تتسول طول الوقت، إنه الشعار الجديد للحياة في (قاف)، وكل شعارات المساواة والعدالة الاجتماعية لم تتحقق، مادامت العدالة الاجتماعية لم تتحقق، ولن تتحقق، فما المانع من التنازل عن بعض الشرف..الشرف يا قرني أسوأ ما منحنا الأغنياء من ألفاظ، لنظل أسيري الفقر اللعين، الفقر شرف والشرف فقر، اللعنة على الشرف وعلى الفقر، الحرية تمنح لمن معهم، ولا تمنح لمن ليس معهم، الحرية تمنح لمن يعرف "سمر واين" ياقرني، وليس لمن لايعرفها، لم يستطع أحد القضاء على جروبي، وظهرت ماكدونالدز سليلة جروبي والأمريكين، التطور الجديد لهما، التطور الشرعي، وهاهي "سمر واين" لاتفارقني تحتلني هي الأخرى رامية على طول ذراعها كل أغاني عبد الوهاب أو عبد الحليم، لم يكن أهل طيبة معنيين بالحب، عدوية وبعرور لم يخدعاني حين غنيا عن الزحمة وعن "علي"! لكن كل شيء خدعني بعد ذلك ياقرني، "سمر واين" الوحيدة التي لم تخدعني، وأميرة الثلج الفرنسية نائمة على الكومودينو تلك القطعة ذات الاسم الفرنسي أيضًا، خائبون نحن أليس كذلك؟ كنت أريد توجيه السؤال لعمنا الروائي العجوز علي الفضالي لكنه كان فاشلا تلك الليلة، كان هناك شيء ما يدور في رأسه، وجهه

المتجهد وعيونه الأرنبية من خلف النظارة تتحرك في عنف، كأنه يريد قبض روح أحد ماء وفي النهاية استلقى مع خيباته الروائية أيضًا على الكنبة وأشعل سيجارة وتطلع لراشد الذي بانت عليه حيرة حقيقية أراها للمرة الألف، أمام علي الفضالي العجوز بالذات، كان هناك أمر ما غير مريح، أخيرا أدركت أن راشد لايشعر بالحيرة إلا أمام من يحبهم ومن منحوه جزءا من أرواحهم، حيث انسكبت ذكرياتهم جميعهم في قدح واحد، قدح من دماء، ذكرياتهم في مقاومة الاستعمار والديكتاتورية وجحافل الظلام، كان راشد في نظري قابضا للأرواح من نوع فريد، من النوع الذي تهبه روحك في ابتسام، أن تهبه لؤلؤة روحك وأنت تعلم أنك لن تخسر كثيرا، فقد خسرت الكثير من قبل أيضا.!

(٤)

في الظلام البعيد أجده واقفا ترتعش سيجارته بين شفتيه، طويلًا عملاقا، ذا رأس صغيرة وأذنين كبيرتين، يمتلك قدرة على صناعة أحلامه الآن حتى لو كانت أحلامًا قصيرة الأجل، إنه أفضل ممن لايملك أحلاما على الإطلاق، يضع يده في جيبه، أشعر بابتسامته، كنت قادما من (دولة بين السرايات) سائرا على كوبري الجامعة، متسللا بين السيارات الفارهة بنسائها اللاتي أعلم أنهن سيبتن ليلتهن بين أحضان الغرباء القادمين من مجرة درب اللبانة النفطي، من شارع الملك ..ومن شارع السلطان.. ومن شارع الأمير.. لم يبق سوى أن نسمي شارع لبن الإبل وحبة

البركة والإسخلة[8] والوانيت والنفط، والجمل، لتكتمل ملحمة الغزاة الجدد والقدامى، جروبي وفيصل، والأمريكين وعبد العزيز، احتلال كامل، دون مداراة، لا أدري السبب وراء عدم وجود اسم صيني أو ياباني أو كوري أو تايواني للشوارع، مع أنه لايخلو بيت من بضائع هذه الدول، حتى قنوات التليفزيون مثل "السي إن إن" و"البي بي سي" و"كان" ولحقتها أخيرا الجزيرة والعربية وغيرها وهي الأشهر، أتت من هناك وهي ما يحب مثقفو أهل طيبة مشاهدته، حتى السيارات والولاعات والبامبرز والفول والخبز كل ذلك لم يعد من صنعنا، إنه استعمار موجود أيضًا، استعمار يساعد على الحياة، أجمل مالدينا الآن ليس من صنعنا، اقترب من قرني وأنا أستمع لآلاف من زجاجات الشمبانيا التي تفتح دون مواربة، وهمس ضاحكًا يتصاعد، دخلنا أحد محال الكشري لنعاود مشاهدة واحد من أهم أسرار أهل طيبة في البناء، نتلذذ دائما بمسألة الطبقات في الطعام، طبق الكشري الهرمي الشكل، والمكون من عدة طبقات، ثم قطع البصل المقلي، الأرز ثم المكرونة ثم العدس أبو جبة وأخيرا الصلصة والشطة الحمراء السائلة، العامل الذي يناولنا الأطباق لابد أن يضرب المغرفة النحاس في قعر الطبق ليصدر ذلك الصوت المعدني الشديد الشبه بصوت صاجات راقصة شرقية، صوت ينم عن الفرح، فهاهو متلذذ جديد ينضم لمجموعة المتلذذين الذين يؤون للمقاعد داخل صالة الطعام في انتظار نصيبهم، الكشري صاحب الجوهرة

(٨) الماعز

الحقيقية على قائمة الطعام لدى أهل طيبة، أحد أهم الأطعمة الفقرية في العاصمة الجمهورية والعاصمة المجهولة وبضعة احتكاكات مع العاصمة الملكية لاتصمد كثيرا، لكنه غير مفيد في مسألة الشكمانات!

خرجنا وقد انتفخت بطوننا، نستكمل مسيرتنا مع دخان السجائر، نشاهد المرأة الصينية التي تسير وأضواء خفيفة تنعكس على ملامحها على كوبري الجامعة وفي قبضة يدها القوية حقيبة "رحلة سعيدة" التي تحتوي بضائعها السحرية رخيصة الثمن، كان الصينيون إذن يتسللون لرقعة الشطرنج التي أقف عليها فأشاهد جيوشا لم أرها من قبل، جيوشا جديدة، لكني كنت أثق تمامًا في المتحكم بأنني لن أواجه هذه الجيوش، أنا فقط أعبر عن سخطي، بأني لا أملك دعما كافيا للحياة، لاأستطيع أن أكره أحدًا، إنهم جزء من الحياة التي علي أن أتقبلها، جزءًا من تكوين الرقعة الأسطورية التي ولدنا فوقها وسنموت فوقها!

لماذا تتجمع هذه الأفكار الغريبة في عقلي الآن، تستوقفنا دورية شرطة فجأة، ربما لنتأكد بأننا نقوم بدورنا المنوط بنا كما ينبغي، يطل مساعد الشرطة برأسه الضخمة، يسأل عن ولاعة، يخرج قرني ولاعته ويشعل له سيجارته، تبتعد السيارة، يبصق (قرني) خلفها، يستوقف تاكسي، لنذهب هناك إلى المهندسين مقر السيدة عضوة مجلس الشعب المنتظرة!

(٥)

حين دخلت الصحراء مع المرأة الصينية المهندسة التي تعمل في مجال الجيولوجيا، أدركت الكارثة التي حلت علي، لقد كنت رفيق طريق صامت أغلب الوقت، تحدثت هي العربية بطلاقة صينية فكنت بالكاد أفهم بعض الكلمات، تمنيت لو يصيبها الخرس، دارت حول بعض المرتفعات، ورسمت بعض الأشكال لها، والتقطت صورا، وحين انتهت أدركت أنه ليس هناك ما أفعله، عدنا مع السائق الذي لايكف عن التطلع لي باشمئزاز في مرآة السيارة الداخلية، إنه يتعامل معي كدخيل، أو كحيوان مكانه الطبيعي بالوعة المجاري وليس تلك السيارة الفارهة، ربما نسى من كثرة تعامله مع الأجانب أننا طيبيون، للأسف يبدو أنه نسي ذلك، كما نسيت أنا!

اتفقت معها على أن نلتقي في المساء في الفندق قبل دوريتي بساعات، كان الأمر يبعث على النشاط، كنت أدرك تمامًا أنني سأحظى تلك الليلة بامرأة صينية، مثلما حظيت كثيرا ببضائعهم، لكننا لم نستطع التحدث لا بالصينية أو الإنجليزية أو العربية، كان اتفاقا شفهيا ضمنيا اعتمد على كثير من الرموز والحركات والإشارات، التي بالغنا فيها أمام نظرات السائق الذي كان الغيظ ينفجر في وجهه مثل بالونات أطفال تتعرض لآلاف الإبر وكنت سعيدًا بأنني نلت منه أخيرا حتى لو كان يمسك بيدها وهي تهبط السيارة تاركا لأصابعه تحسس مقعدتها بشكل مستفز، اتفقنا بناء على رغبتها في التعرف على معالم (قاف)، على الرغم من

إدراكي جيدا بأنها كانت تعلم عن تاريخي ومعالم (قاف) أكثر مما أعلم أنا، لكنها كانت مغامرة تستحق في نظري أن أدخلها، وكان يبدو أن ذلك مكتوب من قبل في لائحة الخطة التي أنفذها من قبل "المتحكم."

(٦)

في أحد فنادق (قاف) الشهيرة أيضًا – إنني أتحدث في الرواية عن ثلاثة فنادق يجب أن أركز جيدا وإلا فقدت مصداقيتي الروائية – لماذا أنا مهتم بهذا التسجيل إلى هذا الحد، لا أدري، ليس بسبب الرواية فهذا الفعل يمكن أن يتم دون نية وقصد، التفاصيل الصغيرة هي روح الأشياء في ظني لذلك أحاول الحفاظ عليها، استسلم للهواء البارد الذي يلفح وجوهنا، دخلنا الردهة المحشوة بضابط وجندي ورجلين من أمن الفندق، الأربعة يبتسمون تلك الابتسامة الصفراء على أساس أننا ربما نشبه إرهابيين قادمين من أفغانستان وجهاز أشعة إكس وإطار معدني ومنضدة لوضع أشيائنا المعدنية، لم يكن هناك أي جديد في السرد في هذا، ولكن تعطل الجهاز دفعهم لإيقافنا وتفتيشنا ذاتيا، إن ذلك جزء من المغامرة، مغامرة مواجهة شك السلطة وغبائها، هكذا الأمر في رأي أمثالي الذين بدأوا منذ قليل في فقد شرفهم، وتبريرا لذلك في ظل فقدان الجميع لشرف الحياة، اصبح الوجود كله مشكوكًا في شرفه!

(٧)

الشيء الوحيد الذي تذكرته تلك الليلة كان مرور "عبده مَرْحَبًا" ومعه إبنته الكبرى، كانت جميلة وفارعة، من نفس النوعية التي يحتاجها الأمراء، بيضاء لامعة بوجهها الدائري المشرب بحمرة خفيفة لاهبة، تشبه تمامًا لوحة " الفتاة ذات القرط اللؤلؤي"، لها وظيفة أزلية محددة تؤديها والسلام، لاشائبة فيها عدا إحساسي بأنها فلاحة أيضًا، هناك عدم تناسق ما في ملابسها وزينتها، لكنها تصلح للعمل الذي يعدها "مَرْحَبًا" له في ظني الملتبس، العمل الذي يجيده تمامًا كقرد مدرب على اقتطاف الموز، كانت تلك موزته الجديدة التي سيمنحها إذن للأمراء، من يمكنه أن يعترض، من حكم في ماله ما ظلم، فما بالنا بمقعدته أو بمقعدة ابنته ليس في ذلك ما يريب، أشار إلى أنها ستصعد معه، لم أفهم في البداية أنها ابنته، بعدها بساعتين حين قابلت كمال إسطفانوس وكان في كامل هيئته كمترودوتيل في الفندق، كان بجثته الكبيرة يشبه فيلًا صغيرًا، لم يكن يفعل شيئا سوى الحديث في تليفونات الفندق، والابتسام الدائم في وجه النزلاء، كان يتحرك بحدود متفق عليها في الطابق الخامس والعشرين، لم أكن يوما أتخيل أنه يسعى إلى التمرد على المتحكم إلا حين ذهب فجأة في زيارة للولايات المتحدة، كنا نتراسل على البريد الإلكتروني، قال بأنه يتنفس الحرية، لكنه لم يصمد كثيرا سرعان ماعاد خوفا على ابنتيه من الانحلال العظيم الذي شاهده هناك، وكان ذلك مما يؤرقني، فضل جحيم الديكتاتورية على جنة الحرية النيويوركية،

فقري!، عاد بعد شهرين هاربا من جحيم الحرية لجحيم الديكتاتورية مدركا للفرق التام بين البيئتين، قال "طيبة أم الدنيا يافتحي" وكان يضحك، وأكمل وهو يغمزني بتلك السيجارة المحشوة المقدسة "والآخرة يافتحي..هاها سمر واين يافتحي"، "سمر واين ياعم كمال نيقولا إسطفانوس"، وكنت أضحك معه، لم يتقدم باستقالته، وإنما عاد لنفس العمل القديم، كان "المتحكم" غير راض إذن عن حركته فأعاده للعبة القدر على الرقعة التي تركها فجأة، وأعتقد جازما أن"المسكوت عن اسمه" لم يكن معنيا كذلك بالأمر، أعاده في هدوء وبساطة وجلد يحسد عليه، أجبته بإيمان صادق كأحد تابعيه العظام حين سألني إذا ما كنت قد رأيت "عبده مَرْحَبًا"، أجبته بنعم وأن معه امرأة صغيرة السن تشبهه تمامًا، قال لي كمال بأنها ابنته، إنه يعرفها جيدا يطلبها الأمير، ولايتردد عبده في اصطحابها إليه، فما يدفعه الأمير لايمكن رفضه أو التشكيك فيه، هكذا أراد الأمير ابنة عبده مَرْحَبًا من خلف ظهري أيضا، آلاف الجرائم ترتكب، نشارك فيها برغبة شفافة تمامًا فليس هناك مايمكن رفضه، فحين لاتملك شيئا لايمكنك أن ترفض شيئا، كان هذا الفعل الوحيد هذه الليلة، حتى أن "مَرْحَبًا" مرق من جانبي هو وهي وظللنا معًا بالمصعد دقيقة تقريبا دون أن نتكلم، كان مكتئبا ومبتهجا في نفس الوقت، لكنه لم يكن مترددا، لم يتردد في اصطحاب ابنته إلى الأمير.. لم يتردد، ربما يكون قد حسبها سريعا، بمعنى لو تزوجت ابنته فإنها ستخرب بيته، لكنها لو اشتغلت في هذه المهنة فإنها ستمنحه مالم يحلم به، حسبة

براجماتية نفعية سريعة، لايستطيع أحد آخر أن يحسبها هكذا، من يحسبون بالشكل التقليدي فهم ضد الحياة، اختيار الشرف الآن يعني أنك ضد الحياة، ومن يحسبون كمَرْحَبًا فهم مع الحياة. هذا هو الزمن الذي يجب أن نفكر فيه كما يفكر "مرْحَبًا"، "مَرْحَبًا" الذي لم يتردد وهو ينفحني مائة دولار كاملة تكفيني لإشعال مائة حريقة في رأسي الموجوع أصلا.. لم يتردد!

لا أدري إذا كان الكلام عن الشرف هنا له معنى، لكننا نرى الشرف من وجهة نظر مغايرة بل بت أعتقد أن من يتحدث عن الشرف الآن لهو أثيم وجبان. إنه ينتظر اللحظة التي ينقض فيها على الشرف هو الآخر فيقتله ويستريح - ولا أدري عن تلك المقولة لو كان الشرف رجلا لقتلته، هل كان يتحدث عن الفقر أم عن الشرف أم عن كليهما معا- أو هو يتمنى أن يكون مكان الذي يتحدث عنه. أن يحمل الأموال بعد أن يبيع الشرف، علينا أن نتفحص المسألة في هدوء. إذا ارتبط الشرف بالفقر فمعنى ذلك أن هناك علاقة مقدسة بين اللفظين، وفي نفس الوقت لم يتحدث أحد عن أن هناك علاقة بين فقد الشرف والثراء، والكثير من الفقراء. يردد عن الأغنياء أنهم باعة مخدرات، وحين تسأله ولماذا لاتبيع مخدرات أيضًا لاتحصل على إجابة شافية، إنهم يتحدثون عن أفكار ضبابية، أولها أهمية الشرف في الحياة. مع أنك تعلم علم اليقين أنه يريد الاستغناء عن الشرف في سبيل الثراء، إنه يريد أن يقول صراحة الآن لو كان الشرف رجلا لشربت من دمه، ها ها ياسمر واين الشرف.. أم أنني أبرر لنفسي ماأقوم به، كان الأمر

سيان في نظري، ومع علمي أيضًا أنه ليس لديه شرف على الإطلاق فهو يمارس قلة الشرف في الظلام، المسألة محيرة تحتاج إلى دراسة أعمق لمفهوم الشرف، ولا أعتقد أن هناك أي روائي الآن معني بالبحث في قضية الشرف، جميعنا نتحدث عن الشرف، لكني لم أسمع أبدا الشرف يتحدث عنا في أوساط الأثرياء على الأقل، نحن لسنا أكثر من مجموعة من الأعضاء الجنسية المثيرة أو أيادي وأقدام يمكن أن توفر وسيلة أخرى للرفاهية، ولانشارك في الرفاهية إلا بالنظر،

نشارك بسمر واين..ها ها ها ها..
نشارك بشرف منزوع القشدة،
فقد حصل الأمراء والأثرياء عليها،
قشطة من نوع سمر واين .. ها ها ..
سمر واين ياقشطة .. ها ها ها ها..
قشطات ياسمر واين!

(٨)

في بهو الفندق الممتلئ بالأنوار وهذا أمر طبيعي أيضًا في أي فندق، لكن غير الطبيعي هي تلك المرأة الساحرة التي كانت تهبط من على السلم وكانت عيناها مركزتان على قرني الذي توجه نحوها فيما كان أربعة من "البودي جارد" يحوطونها لزوم الفشخرة والقنعرة والمنظرة في نظري البائس، أشارت بإصبعها فاختفوا هناك بعيدا، كانوا يتطلعون إلينا في شك، فلم يكن مظهرنا

لا قرني ولا أنا يوحي بأننا من الطبقة العالية، وإنما هي طبقة واطئة أبا عن جد، واطئة تمامًا ليس في ذلك أدنى شك، سلمت علينا والابتسامة لا تفارق وجهها، إبنة نعمة ياقرني، ابنة مجد منتظر، جلسنا هناك على الأريكة بعيدا عن زبائن الفندق، وأخذنا في حديث هامس، فيما كانت طلباتنا من المشروبات قد ملأت المنضدة، ورويدا رويدا لم أعد أسمع شيئا، كان قرني يتفاوض معها ببراعة يحسد عليها، كان يتحدث بطلاقة محامي يحسد عليها، وكنت أنا أنسحب إلى الخلف، إلى ذكرياتي اللعينة وأنا أتطلع إلى وجهها الذي أتى في لحظة ما من الجنة التي لاأعلم عنها شيئا، الجنة التي قابلتها على الإنترنت، أو هكذا تخيلت، ولكن لماذا خرجت منها يافتحي، سؤال مهم عليك الإجابة عليه أيضا، لماذا تركت الجنة من أجل تلك الحياة الرخيصة، من أجل أن تتحدث عن الشرف، ولماذا لم تفكر في الشرف وأنت هناك في الجنة، لأن صناع المعلومات لا تعنيهم أبدا تلك الكلمة التي ترددها الآن كببغاء!، والدليل هو قطرات المطر الطيبيات الجدد اللائي يرسلون برسائل عبر الإنترنت مقلدين ماتفعله "ميغان التي تركتها منذ صفحات طويلة تخرج من باب مطار "قاف" دون أن أهتم بسرد ماحدث!.

(٩)

الآن في هذه اللحظة التي هبطت فيها السكينة على قلبي أدركت بأن حبيبتي سرقتني مثلما حدث تمامًا في الأغنية، سمر

واين سرقت فيها المرأة مهماز الرجل، مهمازه الفضي، شرفه كراع بقر تم امتهانه، بعد أن باعته بعض من متعة رخيصة كانت في ظنه تستأهل، لم تسرق حبيبتي مني شيئا، لن أخوض في مسائل رومانسية توحي بالغباء، لكن هناك ماتم سرقته مني، كنت أنا "فتحي ابن السيد ابن الصياد" – عرفتوا اسمي كاملا الآن أرجو أن تستريحوا في مقاعدكم – كنت أنا فتحي الصياد أقف أمام (إيزائيفتش) عارفا تمامًا بأن سرقتي قد تمت، تمت سرقتي إلى الحد الذي ابتعت فيه بطيخة ذات يوم لأرفع درجة حرارتها في فرن البوتاجاز وأثقبها ثم أضع فيها شكماني الذي يئز ويزن وينز ويزني ويزين لي الهوى "الملوث"، كانت البطيخة الساخنة تماثل تمامًا مقعدة امرأة كشك شركة البيرة، في تلك الحجرة الضيقة المظلمة، وكانت شاشة الحاسب تبعث موسيقى الرجاءات التي حكى عنها صديقي الذي عرفته لمرة واحدة، عم سعد الروائي العجوز الذي كتب رواية واحدة عن رجل الموسيقى والخمر، لم يكن هناك شيء يرجى من أي شيء ياعم أحمد سعد، موسيقى الرجاءات ياعم أحمد تختلط بصوت لهاثي أثناء مطارحتي الغرام لبطيخة ساخنة، لم يكن لدي ما أندم عليه، لم يكن لدي ما أندم عليه حتى البيانو الذي كنت أعلم جيدا أنني فاشل تمامًا في دروسه، كنت مثابرا بشكل مثالي كهنوتي على الفشل فيه!

تحدث قرني عن استراتيجية المعركة الانتخابية وكيف ستتم، وقال بأن تلك المعركة ستبنى على مايلي:

١- الدعاية على الحوائط والمباني ولوحات القماش (قديم

ياقرني)

٢- الدعاية على التاكسيات واستخدام الميكروفونات(قديم ياقرني)

٣- الدعاية على التكاتك (جديد ياقرني)

٤- توفير تكاتك مجانية شهرين قبل الانتخابات وأسبوع بعد النتيجة لنقل الناس في الحواري(جديد ياقرني)

٥- توزيع (بتاتين) على أهل الحي جميعا (قديم ياقرني)

٦- توفير أجهزة نوكيا قديمة لكل سكان الحي ممن يمكنهم الانتخاب خصوصًا للنساء (جديد ياقرني)

٧- توفير عمرة لعدد ٥٠ امرأة من أهل الحي وهن أكثر تأثيرا على رجالهن ولنختار الجدات الطاعنات في السن ذوي العزوة من الأبناء والأحفاد الكثيرين (جديد ياقرني)

٨- توفير تذاكر مباريات كرة القدم لرجال المنطقة الذين لديهم بطاقات انتخابية (جديد ياقرني)

٩- عرض مسرحية في سينما المنطقة (جديد ياقرني)

١٠- توزيع حشيش وهنا تنحنح قرني (مهم جدا ده) (قديم ياقرني)

١١- زيارات لحضرتك (قديمة ياقرني)

١٢- حفلات لبعرور وياريت عدوية (جديد ياقرني)

أضفت

١٣- وب سايت على الإنترنت، وصفحتين على الفيس بوك صفحة شخصية وجروب، وبلوج، وبعض اللقطات المختارة بعناية

علي اليوتيوب وده للشباب (جديد يافتحي)

١٤- وياريت كام مقال ممكن أكتبهم بنفسي عن حضرتك في جرائد المعارضة زي الدستور والمصري اليوم بجانب طبعا الصحف القومية وده برضه للشباب والناس اللي ممكن تقرا (ممكن ياقرني)

ابتسمت وسألتنا ،

– ده من الخارج، طيب ومن جوه اللجنة،

ابتسم قرني وقال بأن الترتيب مع رئيس اللجنة والأمن دى مهمته هو شخصيا، وحين سألته عن ضمان الأصوات أجابها بأنه سيخبرها قبل الانتخابات بيومين، إذن قرني يعرف ماذا يفعل؟، جميل، والحقيقة أنني لم أستطع أن أخمن أبدا إن كانت وافقت على الخطة أم أنها كانت تستمع إليها فقط، لم يبد على ملامحها أي موافقة أو رفض، كانت تهز رأسها الصغير الخالي من التعبيرات، نَهَضَتْ بعد دقائق ونَهَضْنا قرني وأنا، بعد أن استمعت إلي خطة نجاحها المؤكدة في الانتخابات التي تلاها قرني على مسامعها، وساد هدوء بيني وبين قرني بعد انسحابها ولم يكن مسموعا سوى صوت خطواتها على أرض الفندق، اختفت وخلفها حراسها، سحبني من ذراعيَ وأنا غارق في تصوفات أحلامي وذكرياتي، تطلعت لوجهها الجميل المبتسم، كنت متأكدا أيضًا أنها لاتعلم شيئا عن الجنة الموعودة المسماة بالإنترنت، وكانت هذه ميزتي الحقيقية التي أدركها الآن كما لم أدركها من قبل، رغم أنني مجرد حجر شطرنج ليس له حول ولا قوة!

إذن فلتكن سمر واين عالية الليله..
عالية للغاية..
فليسمعها أهل (قاف) وأحياؤها..
وليسمعها أسدي الحبيب..
ليسمعها ويرددها من بعدي..
سمر واين ياخونة!

الفصل الخامس عشر

☹

(١)

لقد انتظرت خمسة ملايين سنة من التطور لكي أحكي لكم هذه الحكاية، ونعيد تشكيل العالم، نعيد تشكيل العالم الذي تبخر، من خمسة ملايين سنة لم تكن هناك رقعة شطرنج، جميعنا الآن نقف عليها، أحيانا أتخيل أننا خارج الرقعة وأننا لم ندخل الصراع أصلا، لم ندخل الصراع أصلا لأننا كنا أضعف من أن ندخله، وربما وهو الأكثر مذلة أننا كنا مجرد بعض من ذباب يطير حول الرقعة من بعيد فلا تأثير لنا.. خمسة ملايين سنة.. حين هبطنا من قمة شجرة عجوز لنقف على الأرض، نواجه مصيرنا الذي لم يكتب من قبل في كتب سماوية!

لم أهنأ كثيرا بإحساسي أنني مجرد قطعة شطرنج دخلت الألفية الثانية للبشرية لتتحول إلى شكل بشري مزعوم، كما أجد نفسي فجأة أيضًا في الألفية الثالثة في عالم جديد اسمه عالم المعلومات، قطعة شطرنج في عالم المعلومات، أي أنني يجب أن أشك بالفعل إذا كنت بالفعل موجودًا من عدمه؟، كما كنت أحاول الإجابة على سؤال يتعلق بالقيمة الحقيقية لتلك النقلة، الطيبيون لم يهنأوا بحضارة العالم الصناعي، فكيف بهم سيتصرفون مع العالم

الجديد، إنهم يلهثون الآن، يلهثون ويتمزقون، كيف ينفذون من عالم لعالم آخر دون أن يحصلوا على السعادة التي منوا النفس بها والتي مناهم بها "المسكوت عن أسمائهم الأول والثاني والأخير"، ينزلقون من العصر الزراعي هكذا إلى العصر الصناعي، يتحسسون مقاعدهم من أثر تلك الخبطة التي سارعت بنقلهم إلى عصر المعلومات، يجدون أنفسهم فجأة في عالم جديد لايعلمون عنه شيئا، أليس هذا السؤال مهم للغاية؟ وماأهميته أيها المخبول.. هاها سمر واين ياعالم جديد، استمر في كتابة التاريخ دون تدخلات شخصية!.

لا أستطيع بالطبع أن أفعل ذلك لقد عودتكم على ذلك منذ البداية، تدخلاتي الشخصية لن تنتهي، لم يفعل ذلك أحد في التاريخ، ولن يفعله أحد في الرواية مثلا بعد الآن، من هذه التدخلات على سبيل المثال أنه على الرغم من حديثي عن العاصمة الملكية في بداية الرواية، لكني لم أتحدث عنها على الإطلاق بشكل مباشر لسبب مهم للغاية، كنت أرى أن الملكية قد أصبحت ماضيا متوحشا في فناء "قاف" وهذا الماضي المتوحش لايسكنه الآن سوى الأشباح وظلال الذين رحلوا إلى القارة الجديدة (أوروبا)، ومن عاش فقد غرق في أوهام الماضي الذي أصبح سحيقا الآن، سحيقا بصورة محزنة، نقول عنه الآن بكل جليطة "الزمن الجميل"، لا أشاهد الملكية إلا في تلك المباني، كوبري قصر النيل نفسه وأسوده كلهم يعودون لعصر الملكية التي أخرجتهم من محبسهم ووضعتهم هناك أمامنا، لم تترك لنا الملكية

الشارع دون أن تبصق فيه، هذه البصقة لن تختفي، لن تختفي أبدا!.

أعود الآن إلى ميدان التحرير، هاأنا أقف الآن على تلك الصخرة الصناعية في قلب ميدان التحرير، كنت أراه بالفعل مقسما إلى مربعات، مربعات للعسكر، ومربعات للمواطنين، ومربعات للسيارات، ومربعات للمؤسسات، ومربع للجامعة الأمريكية، ومربع لمبنى التحرير، ومربع لعمر مكرم، ومربع يمتد لشارع السفارة الأمريكية المسدود، ومربع صغير للغاية لي، مربع لا يكاد يرى، وهو مسمى أجد أنه فاقد للإحساس تمامًا، كيف سمينا ميدان التحرير بهذا الاسم ونحن لم نتحرر مطلقا، أقف على الصخرة الصناعية أنادي على زمني الضائع، خمسة ملايين سنة ولم نتقدم كثيرا في منحانا البيولوجي، لم تكن هناك أيديولوجيات فصنعنا أيديولوجيات، ولم تكن هناك ثورات فصنعنا ثورات ولم تكن هناك مجتمعات رفاهية، صنعناها دون أن نبيحها للجميع، أصبحنا منقسمين، كحالتي معك، كيف لم أتنبه لكل ذلك مسبقا، كل ما أراه عبارة عن خراتيت وأفيال وخرفان ورجال آليين وخشبيين تركض في شوارع المدينة، وأنا لست أقل منهم حيوانية، فما هو هذا التطور البيولوجي الذي أدعيه، خمسة ملايين سنة ياقرني، خمسة ملايين سنة ياسمر واين.. خمسة ملايين سنة يازحمة، خمسة ملايين سنة ومازلنا نحن أهل طيبة نتراجع إلى الوراء، كأن القدر منحنا تلك الخاصية دون شعوب الأرض، ميزة الفلاشباك التي لا تنتهي، وإذا تقدمنا نتقدم فقط في محيط المأساة

المتكررة، تحوطنا الأتربة والذباب صديقنا في نفس المصير، الذباب نفسه خلع نفسه من مسألة التطور ونحن لم نستطع، أليس ذلك مدعاة لليأس!

(٢)

مرة أخرى ثاني أكبر شخصية في هذه الرواية هو خليل الحارس ربنا يعزه.. ربما لا يكون الثاني تمامًا، لكنه من المؤكد أنه مهم.. وربما هو شخصية قليلة الأهمية، وربما أيضًا لاأهمية له على الإطلاق لكنه يظل صديق عمري خليل الحارس، خليل الذي عرفني قبل فقداني لذاكرتي والذي استقبلني بعدها، لم يعرف سببا لاختفائي ولا سببًا لظهوري المفاجئ أيضا، حين حدثته عن حبيبتي المفقودة أجابني بأنني لم أحدثه عنها يوما ما، مثلما تركته وجدته، لم يتحرك خطوة للأمام، ربما تحرك للخلف، كرر على مسامعي أنه لايعرف عنها شيئًا، لايذكر سوى مظاهرتنا التي لم يكن معي فيها، لم أشك في صدقه، ولم أشك في صدق كل من حدثوني، لا أحد يعلم شيئًا، كأنني غرقت في ظلام مفاجئ أمام الجميع فنفقد ذاكرتنا جميعا، كلهم غارقون في هموم حياتهم، بعد أسابيع نسى الجميع هذا الذي اختفى، فلما عاد احتفوا به بضعة أيام ثم عاد كل واحد فيهم لما هو غارق فيه، يلهثون من أجل حياة وحيدة أو هكذا كنت اتخيل، كان خليل الحارس هو من يعزمني عند شلبي بائع الكفتة والكباب في باب اللوق قريبا من مقهي الحرية، مقهى الحرية الذي كان مكان لقائي الأول مع مصطفى

درديرِ، لا أدري كيف وافقت على مقابلته، وفي هذا المكان على وجه التحديد، قابلته ومعي خليل، لكن بعد وصول مصطفى أصر على أن يختفي خليل من القعدة، "يعني هو أنا هاأخفيه بطاقية الإخفاء ولا أرمي عليه حمض كبريتيك مركز، حاجه تعل.. معلش علشان الورد ينسقي العليق، اختفي ياخلو، خد لك لفه في الميدان الواسع، صحيح أنك خرتيت مقدس لكن يمكنك الاختفاء بقليل من التسامح مع صديقنا مكتمل الرجولة درديرِ، انسحب ياخلو من الرقعة الآن، فليس الآن مكان ولازمان يصلح لأن تكون فيهما"، المهم قبل هذا مباشرة، قابلت في الأسانسير بالليل البنت هناء، لاأدري لماذا قالت لي هذه الكلمة، "اسمع يا فتحي ..أنا هورني"!!

لا أدري لماذا توقفت فجأة، كان البهو أمام المصعد فارغا تمامًا كالعادة في المساء حين يحلو له أن ينحدر من أصول لم يأت بها علماء البيولوجيا بعد، تصنمت بينما كنت أعتقد أن إصبعي على زر الدور السادس والعشرين، كنت أعتقد ذلك بينما في الحقيقة كانت أصابعي تتناوب الحركة على زر فتح باب المصعد وإغلاقه، تتحرك أصابعي على زري الفتح والإغلاق بشكل تبادلي دون أن أشعر بذلك، الباب يتحرك مع حركة يدي على الزرين، فيما كانت إضاءة المصعد تختفي وتعلو أيضًا، تطلعت لها طويلا، وأنا أتذكر لبنى عبد العزيز في الفيلم وهي تقول ،

"أنا حرة" ..

ثم تأتي هناء بعد عشرات السنين لتقول وببراءة سحرية لاتلفت الانتباه كثيرا

"أنا هورني"

ها ها ها ها سمر واين ياكلاب الزمن القادم، "هورني" حتة واحدة، لاأدري لماذا تذكرت هذه الحكاية وأنا أستمع لمصطفي دردير أمين، كثير الرغي بدرجة مزعجة، بدرجة تنتمي لمقياس ريختر، فلاح بدرجة مزعجة، وزوج أختي الشاذ بدرجة أكثر إزعاجا، وعلي أن أرفض كل ذلك، أو أقبل كل ذلك، لم يكن هناك مفر إذن من أن نجلس بعد عدة مشاجرات، أتيت بناء على طلبه، ألح علي في الهاتف بدرجة مزعجة أيضا، ذهبت دون أن أذكر شيئا لأمينة، بدأ حديثه بالكلام عن رجولتي مما جعلني أقشعر، وأتحسس جسدي وأنا جالس أكاد أتقيأ، ياالله إلى متى سأتحمل هذا الضغط على أعصابي، علي أن أتأهب للمسألة، للدفاع عن حق أمينة في الحياة بعيدا عنه، وعن حقه في أن يتركها، إنه لايسمعني، يتحدث عن السبب وراء شذوذه، وأن أمينة مثقفة يجب أن تستوعب ذلك، لم أفهم كيف يتحدث عن شذوذه بهذه الطريقة الفجة، من المهم أن أتذكر أنني لايمكن أن أصادر رأيا، لكني أتحسس الطريق نحو مصادرته، ويجب أن أتعامل مع هذا الأمر بهدوء ولياقة، مهما كان الأمر يجب أن استوعبه، لكنني في الحقيقة لاأستطيع الاستيعاب، نفس هذا الأمر تكرر من قبل على مقهى زهرة البستان حين جلس الزوج الشاذ وزوجته، (بالمناسبة لقد تعبت من محاولة كتابة مصطلح آخر للشذوذ لكني لاأجده؟)،

كانا طبيعيين للغاية، لم يصدر عنهما مايثير الشك، عدا الحلق الذي يلمع فوق أذنه والأستك الذي يلملم به شعره، وكانت زوجته تشبهه في ذلك، كنت أرى وجهيهما كأنه سطح عجلة سيارة مطاطية سوداء تمتلئان بمربعات كثيرة ناتئة لاتوحي بأي شيء، في النهاية الأمر كله متشابك، إنها موروثاتي، فلأعترف بشوفينيتي، بانتمائي الأكيد لنيكولا شوفان، مثلي مثل كل أهل طيبة أو أغلبهم في هذا الأمر بالذات، الشذوذ تاريخه طويل لدينا، وكم من فتوات في السيدة والعباسية كانوا كذلك، وممثلين ومطربين وأدباء وصحافيين وعلماء، ومثقفين، لكن الأمر هنا مختلف عن التاريخ الوطني وغير الوطني، على أن أتحمل هذا الموقف حتى النهاية، المشكلة أنني لاأتحمل، وربما ليس من المهم أن أتحمل أو لاأتحمل، كنت أتساءل داخلي عن السبب الجوهري الذي دفعني لمقابلته، تدور عجلة الأسئلة داخلي بلا توقف، أراه جالسا أمامي يكاد يتملكني عرق الضحك، أعلم أن هذه الليلة لن تمر على خير، هاأنا أجلس وهو جالس أمامي يتجرع زجاجات البيرة ويحكي عن علاقته بأختي وعن أسباب شذوذه، وأنا حائر بين أوهامي الداخلية، أفطس من الضحك وأنا أتخيل أختي تمارس معه الجنس بشكل تبادلي، لا أتمالك نفسي من الضحك، لكن المسألة أقوى من الضحك، على أن أكون جادا فيما لاجدية فيه، كيف يمكنني أن أفعل ذلك، علي أن أكون شريفًا، ههه شريفا جدا في مسألة الشذوذ، ببساطة أنا أجلس أمام رجل يدعي أنه رجل، لكنني أقف حائرا أمام اللفظ، هل الرجولة دليل على اكتمال الأعضاء أم

الرجولة بمعناها المتعلق بالشهامة والشرف، أم أن هذين المعنيين أصبحا متاضدين الآن، أو أن - وهو الجدير بالتصديق- أن الرجولة فعل ينتمي للمرأة والرجل معا، حيث تمتلك المرأة هذا الجين الرجولي أيضًا الذي يدفع بها أحيانا إلى أن تكون أكثر رجولة من أنوثة الرجل، بهذه الطريقة ستفسد كل مصطلحاتي وسأقع كالعادة في فخ تلك المنطقة الرمادية التي لاحقيقة فيها لأي شيء، ها..ها.. سمر واين، سمار وااااين، زحمة يادنيا زحمة بألفاظك التي تتداخل فلايكون هناك حقيقة، انتهى عهد السينما الأبيض والأسود وحمل معه هذه الفروقات الصارمة في الألفاظ، السينما الملونة قتلت الشرف قبل أن يقتله أي أحد آخر، أحاول أن أزن الأمر، بينما على الناحية الأخرى تقع عيني على الزوجين اللذين قابلتهما ذات يوم في "الزهرة"، إذا نحينا الشكل جانبا، والتزمنا بثقافتنا، أو بادعائنا للثقافة، فالمسألة تبدو عويصة على التفسير، يا أولاد الزواني ماذا تعني لفظة الرجولة؟!

لم يقل مصطفى كلاما كثيرا محددا عن السبب لكن يمكن تخمينه إذا تطلعنا جيدا للأمر، لم يكن السبب في شذوذه رجل شاذ بل امرأة من النوع (الليسبيان) وهذا هو المحير، امرأة شاذة، امرأة من الصهباوات الإيرلنديات، الأمريكيات، كانت تصر حين ينام معها على أن تجبره على ممارسة الجنس معه بنفس الطريقة، كانت تدفع بشكمانها البلاستيكي الذي تربطه حول وسطها وتفعل معه مافعله معها، رفض ذلك في البداية، قال أنه تردد طويلا، مع الوقت بدأ يستمتع بالمسألة حتى ادمنها، أصبح لايمكنه أن يستمتع

كالبشر إلا إذا تمت العمليتان في نفس الوقت، على أن أضحك الآن وأن أستدعي صاحبه "بافاروتي" لكي يضحك على طريقته الأوبرالية، يسمع أهل الأرض والملوك والشعوب سر وقوع شبيه ممثل السينما في هذا المأزق الوجودي الخارق، هههههه، إنه لايستمتع إلا من الناحيتين، لكني أعلم أنه كاذب وقارح تمامًا، فها هو يحك أنفه كثيرا عندما يتكلم، وأصابعه تتقلص موجهة نفسها بشكل لا إرادي نحو أنفه الأحمر، إنه يكذب بكل تأكيد، ما الذي يدفعه للكذب الآن، عليه أن يتقبل الأمر بشكل طبيعي، طبيعي تمامًا، هاهاهاه طبيعي ياسماااااااار.. مثل "قطرة الماء اللذيذة" لايمكنها أن تعمل في مهنة أخرى مهما فعلت، تلك القطرة اللذيذة تهبنا المتعة دون إثباتات مؤكدة بأنها حصلت على نفس المتعة، يمكنها أحيانا حتى أن تتخلى عن المقابل، إنها تقوم بفعل مقدس، كان موجودا دائما في الحضارات القديمة، في المعابد التي كانت تكتظ بتلك القطرات ومعهن الكهنة، كان الكهنة أيضًا يفعلون معهن كل شيء، وكانوا يتركونهن أيضًا لزبائن المعبد، ومعنى ذلك أن "مَرْحَبَا" نفسه ينتمي لواحد من هؤلاء الكهنة، هاها سمر واين يا"مَرْحَبَا"، لا أدري كيف تطورت المسألة تاريخيا بحيث تم فصل الملاهي ودور الدعارة عن دور العبادة، أما هو فيحصل على متعة مزدوجة، تذكرت بعض الديدان التي تمتلك تلك الخاصية العجيبة في أن تكون ذكرا وأنثى في نفس الوقت، دردير سليل العالم الجديد، سليل التحولات العملية في حياة الحشرات الإنسانية، هذا هو موقفي النهائي منه، عليه أن يتقبل رأيي دون

أي شكل من أشكال الحساسية المفرطة من جانبه، وكنت قلقا بشكل أو بآخر، ارتباك ما يتلاعب بعقلي، أشعر بأن مصطفى دردير نفسه مدسوس علي هو الآخر، تنطق عيناي بشك وبهرتلات أكاد اصدقها، لم يكن منطقيا على الإطلاق أن تقع أمينة بالذات فريسة سهلة لمصطفى دردير ملك الحركات الإنسانية العتيقة!

كنت أعلم أنه أتى لمفاوضتي أنا بالذات، وكنت مدركا بأن العساكر والقطع والأحجار الخشبية ليس لها حق التفاوض إلا في حالة واحدة، حالة التعادل "الدرون يعني"، كان دردير يستميلني كي أوافق على عودته لأختي إذن، وكان مايفتأ يدعي أنني قادر على ذلك لأسباب تتعلق بعلاقتي بأمونة كما قال تحديدا، كان سمجا للغاية وكان يردد عبارات من نوع أنه يعلم مدى علاقتي بأمونة وحبي لها وتعلق ابنته بي، لم أفهم أبدا سبب إصرار دردير على العودة إليها، قال بأنه واثق تمامًا من قدرتي على إقناعها، كنت أهز رأسي وأنا أنهض واقفا، فيما كان يتطلع لي باستعطاف، لم أفهم أبدا سر هذا اللقاء، فلم أكن أملك شيئا يمكنني أن أمنحه له، لماذا يأتيني ولم يذهب لأحد من إخوتي؟ هذا الفأر الذي يلعب في عبي لايمكن له الاختفاء، خرجت من المقهى سريعا، ولم أنظر خلفي فيما كان صديقي الجميل "خلو" ينتظرني بالخارج على مبعدة، سرنا معًا دون أن نتحدث، ولم يسألني شيئا عن فحوى حديثنا، كان لقاؤنا حركة ليس لها ما يبررها على الإطلاق على الرقعة، كنت عسكري شطرنج لايملك القدرة على تخمين السبب

الحقيقي لإصراره على العودة إليها، كنت في السنوات الماضية أتذكر علاقتي بأمونة، انقطعت طويلا، بسبب غيابي الدائم، ماتت أمي وتخرجت أمينة وأنا مازلت غائبا، أستعيد وعيي وذاكرتي أحيانا، ذهبت إليها بعد أن فهمت سبب انفصالها في لحظة من لحظات خروجي من عتمة ذاكرتي، كانت ذاكرتي تعمل جيدا يوم لقائي بها وبنور، كانت تعتقد أنني لو لم أقف بجانبها فإنها ستنساني وستدعي أنني مت بالفعل، إنها لاتثق في بقية إخوتها، كانت تثق في عسكري الشطرنج الوحيد الذي لايمكنه أن يفعل شيئا على الإطلاق، عسكري الشطرنج الذي غاب عنها سنوات، تركها وعاد فوجدها على وشك الزواج، فجأة وجدته أمامها، غارقا في حكايتها المريرة المضحكة مع دردير، ومع مَرْحَبَا، ومع كل الأفاكين الذين يتناثرون بمتوالية هندسية على الرقعة المفصلة جيدا على مقاسي!

(٣)

حين قابلت "مَرْحَبَا" في نفس الليلة، كانت تبدو أنها ليلته الأخيرة، فنحن الطبيبون لدينا قدرة غريبة على قراءة الموت في وجوه الناس، وكنت أظن بيقين قدري أنها ليلته الأخيرة، ولم يخب ظني كثيرا، كان يصطحب كل بناته وزوجته، هل الأمير سيفعل بكل هؤلاء هذا الفعل الغريب الذي لم يرد في كتب الحضارات القديمة ولم يرد ذكره حتى على لسان هيرودوت، كان الأمر مركبا في عقلي، وهل سيفعل نفس الفعل في "مَرْحَبَا" نفسه، كان

علي أن أقلب الأمر في رأسي جيدا، كان "مَرْحَبَا" يسير وخلفه تلك الأسرة التي كونها، ليمارس بها فعلا قديما للغاية، فعلا يعود لآلاف من السنين التي مضت، ولم تكن كلمة الشرف قد ولدت بعد، أو أنه لم يكن لها معنى.!

كان "مَرْحَبَا" يخرج من الرقعة، كما خرج كل قاتل وأفاق، خرج لاينعيه أحد، وكنت متأكدا أن التاريخ المبجل لن يتذكره مثله مثل كل القوادين الذين يعيشون بيننا وكانوا دائما يتسمون بأسماء الشرفاء قصدا، وبأنهم المصطفون للعب ذلك الدور اللعين، إذ لم أره بعد ذلك على الإطلاق، قال أحد رجال الأمن إنه رآه مقتولا وغارقا في الدماء وأن أحشاءه تمتد على السلم تتجمع حولها قطط لا أحد يعلم من أين أتت، صرخ تلك الصرخة التي تنم عن مصيبة، حين انقطعت الكهرباء لدقائق، وحين أتينا راكضين لم يكن هناك أي شيء، كان السلم غارقا في لمعانه المعهود يتمطى في أحشاء الفندق كقط عجوز لايحفل بأحد، دخل "مَرْحَبَا" الدور السادس والعشرين واختفى، اختفى بعد ذلك تمامًا، لم يظهر أحد من أفراد أسرته، قلبنا الفندق عليه لم نعثر عليه أو عليهم، ولم أره بعد ذلك أبدا، انقطعت سيرته، وانقطع حبل النساء التي كنت أعيش معها بعض الأوقات في غرفة قرني، كنت أتخيل أن أجنحته كبرت وطار، طار بعيدا.. سمر واين يا"مَرْحَبَا"..

ربما من الأفضل الآن أن ألتفت لأغنية أحمد عدوية الذي تحمل مالم يتحمله بشر في الثمانينيات، لينتهي تمامًا مثل أغنية

سمر واين، لكنه غنى بديلا لها..

راحوا الحبايب بقالهم عام والتاني..

راحوا الحبايب ياعدوية..

راحوا..

الفصل السادس عشر

خليل الحارس وآخرون

لايمكن لعسكري شطرنج أن يحصل على رشوة مفاجئة تدفعه، رشوة من أي نوع، ليحصل على امتياز ما يجب أن يكون هناك في الخطوط الخلفية للعدو، حينها يتحول لأحد رجال الملك وحريمه، سكرتير مكتبه، أو زوجة سكرتير مكتبه، أو ماسح بلاط سكرتير مكتبه، وقتها يمكن له الحصول على امتياز من نوع ما، يدفع بهم الملك لكل شقوق الامتيازات، فيحلب البلد الذي ولي عليها بقانون أحمق اسمه قانون الصدفة العسكرية، أو بقانون آخر .. يعلمه أهل طيبة جيدا!

(١)

في حركة أخيرة ومفاجئة قرر خليل الحارس حين كاد ينخرب بيته في المطبعة، قرر اللجوء للبنوك التي تساعد الشباب، والبنوك في طيبة كثيرة، أكثر من الهم على القلب وكذلك الفقر، لاداعي أن أذكركم بذلك فأنتم تعلمونه جيدا، طلبوا منه أوراقا كثيرة وحين أنهى كل أوراقه، قرر الموظف القابع خلف الزجاج والذي يرتدي ربطة عنق ذهبية تبدو وكأنها لسان إله قديم تعود

إليه خاصية القدرة على الكلام في تاريخ البشر المنير وقميصا أحمر اللون ووجهه لايختلف كثيرا عن مقعدة امرأة كشك البيرة كما حاول خليل أن يصفه، والذي يعمل في الصندوق الاجتماعي أنه لايستطيع منحه القرض لأن المطبعة التي تملكها يا سيد خليل تقع في الشرابية، والشرابية منطقة خطرة وموبوءة لايمكن أن نضمنها، منطقة من ضمن ١٤٦٢ منطقة عشوائية لانصير لها في البنوك.. هاهاهاها ياخليل ياصاحب السمك واين .. هاهاها.. الصندوق ..السندوق الافتعالي على رأيك.. يقول لك وهو يخرج لسانه "أن المتبعة في منتأة موبيأة"..هاها..مو..بياه.. هاها..موبيأة.. موبوءة .. متبيأة.. بيئة ياخليل.. ضرب خليل كفا بكف وهو يتطلع للأوراق التي في يده.. كان يتطلع إليها وكنت متأكدا وهو يحكي لي أنه يستمع أيضًا إلى سمر واين.. سمر واين أغنية الحثالة والفاشلين.. وحين لجأ لتلك الشركة الخاصة التي دله عليها نفس موظف البنك، قالوا له إنهم يمكنهم أن يمنحوه القرض ولكنهم سيحصلون منه على خمسة وعشرين بالمائة من قيمة القرض نفسه مقابل تخليصه، الغريب أن خليل الحارس ربنا يعزه وافق، وافق وهو يبتسم فأخيرا ستفرج، وحين وافق، طلبوا منه أيضًا أوراقا جديدة، وحين قدمها طالبوه بستة آلاف "جوند" حتة واحدة قبل قيامهم بأي عمل، ضحك خليل تلك الضحكة الكتومة وجسده السمين يترجرج بفعل مومياء مائية استوطنته فجأة.. من أهم مبادئ الاقتصاد ياخليل في هذا البلد.. مبادئ الاقتصاد الحر ياخلو.. من أهم مبادئ الاقتصاد يابو الخلاليل أن تكون حمارا..

حمارا كبيرا.. كي تأكل وتمد يدك الكريمة على المائدة يجب أن تمد بيدك الكريمة أيضًا إلى كل الأفواه المفتوحة المثقوبة بفتحات لانهائية بالطعام الذي تتزين به المائدة، هكذا طيبة كلها الآن، لم يفعل خليل شيئا سوى أن سحب نفسه للخارج، وهكذا توليت أنا مسألة ذهابنا لشلبي بعض تلك الليالي، كنا نسير في المساء ونحن نضحك على الصندوق الاجتماعي وعلى شركة الخمسة والعشرين في المائة، هاهاها ياخمسة وعشرين وياستة آلاف وياشرابية، تلفت نحوي قائلا "هو لو أنا مثلا لو كنت من الزمالك أو جاردن سيتي يابو الفتوح كنت هاروح للصندوق"، تذكرت الضحكة القوية "لبافاروتي" الأصلع التي تمنحنا القدرة على التجلي والسخرية، تجلي يا عم "بافاروتي" في ميدان التحرير حين نسير الآن واضحك، اضحك ليسمع العالم توجهاتنا الجديدة نحو الحرية الرائعة التي تنتظرنا في أركان المعمورة، تجلي ياصديقي، يمكنك العودة من الموت الآن، امنحنا تلك الضحكة الأوبرالية، خمسة وعشرون في المائة وأحيانا خمسون، يقبضها كل صاحب سلطان في قاف الآن، السياسي والحزبي والسلطان وابن السلطان وامن الدولة وضباط المباحث، خمسة وعشرون في المائة لضمان المرور إلى عالم الثراء، اضحك يابافاروتي أنت وصديقك العتيد درديري، اضحكا، فنحن لانستحق الحياة!

قرر خليل أن يذهب للخليج، فاتحني في الأمر على أساس أن يذهب لعامين أو ثلاثة، طلب مني طلبا غريبا أن أتحدث للسيدة ملكة الانتخابات في منطقة المنيل، أو أتنازل قليلاِ وأكلم الأمير في

الطابق السادس والعشرين، حكيت لخليل كل شيء، لكن ربما لم يفهم، لم يفهم الحقيقة، أن الأمير مثل الملائكة لايمكن الحديث معه، وسيدة المنيل أنا بالنسبة إليها تابع رخيص لقرني صاحب الملكوت، تطلعت إليه، خليل وضع في جيبي كثيرا من النقود حين كانت الأمور "مبشبشة" معاه، لم يسألني يوما إن كان معي نقود أم لا، ناهيك عن عزومات شلبي!

كنت محصورًا.. محسورًا..

لاأدري أين يمكنني أن أتبول..

فاخترت الغناء..

زحمة..

زحمة يادنيا زحمة..!

(٢)

حين ترتد إلي ذاكرتي، التي تأكدت الآن أنها كانت تعمل جيدا أحيانًا ولاتعمل على الإطلاق في أحيان أخرى، أتذكر أنها تركتني هناك على المقعد الغارق في ظلام أسترا، قالت إنني لا أصلح لأن أكون زوجا لها، نهضت في عنف ومضيت أنا أمام إيزائيفتش، درت طويلا في الشوارع، ليس بفعل الصدمة فقد كنت أتوقعها، لا أدري السبب الحقيقي، لكني لم أكن غاضبا، ولم يكن بداخلي بالفعل أي إحساس يمكن تصنيفه، لكني كنت أسير على غير هدى، قابضا في يدي قصة أميرة الثلج، ومتذكرا فقط عبارتها الأخيرة، لقد انتهى عهدنا، كنت يافعا تمامًا، استكنت لحالة

الفوضى التي عشتها، عشت عدة أعوام من الفوضى الغامضة، ودون هدف حقيقي، آه والمصحف، ليس هناك هدف ما محدد، فليس هناك فعلا هدف، وليس له تحديد، أستيقظ لأجلس أمام الإنترنت، أبحث عنها، أو أدور في الشوارع حين يصيبني البحث بالفشل، أو أذهب لمركز الإسكان، أتعثر في مدام لمياء، تصر على كلمة مدام على الرغم من أنها غير متزوجة، أتحاشاها، أذهب وأعود دون إحساس ودون رغبة فلا أدري ما الذي حدث في الأمر أنهم قبلوا عودتي دون أن أدرك لماذا؟، حين ذهبت إليهم استقبلوني كما يستقبل المشفقون ضائع وحيد، استلمت العمل الذي لا لزوم له، الذي أثار ريبتي هو سؤال أتى من مدام (لمياء)، سؤال عارض لم أتوقف أمامه، سألتني إذا ماكنت أعرف أحدًا من الكبراء؟ اعتقدت أنه ربما أحد إخوتي الواصلين، لكني أعلم أخي جيدا، لا شريف ولا غيره يمكن أن يتدخل في مسألة إعادتي للوظيفة، لاأقع في دائرة اهتماماتهم الآنية، لم أسأل، تركت المركز وعدت إليه موظفا، لم أفرح ولم أحزن، كان جحرا لفأر يريد أن يستريح، منذ متى كان للفرح قيمة، الأحزان وحدها هي صاحبة القيمة الحقيقية في الحياة، فلتحيا الأحزان، وليحيا النسيان، النسيان هو ضميرنا الحي حين يموت كل شيء فينا فيتبقى النسيان وحده على قارعة طريق خالية من كل شيء، حين نصير نحن مجرد طرق ليس بها أحد، قريبة الشبه بالصحراء، كتلك الرقعة التي أقف عليها الآن، حين أهيم في الصحراء أغني سمر واين أو زحمة وأيضا أكون على يقين من أن لا أحد يسمعني، صدى

الصوت كظلالي هناك، أدخن سيجارة الحشيش في صحراء الهرم في الليل وأنا أستمتع بمرأى السياح هناك وهم يركبون تلك الجياد وأتمنى أن أكون حصانا، تمنيت كثيرا أن أكون حصانا أو هرما أو سيارة مرسيدس، نعم مرسيدس، وهي فكرة أثيمة تنبئ عن نوع من البرجوازية المتوطنة داخلي رغم حياة الضنك، لكني تمنيت مالم يتمناه أحد، أن أكون قطعة جماد، وهاأنا أكتشف أني كنت هذا الجماد فلم استيقظت من سباتي الجميل!! لم أستيقظ!!

فقط كان يراودني حلم أثيم بأن يدي كانتا ملطختين بالدماء وكذلك صدري، حين نهضت واقفا في الظلام، احاول أن أفتح عيني في ظلام دامس يدوم لسنوات طويلة، فيما كانت كثير من الرءوس السوداء تقترب مني لتهمس في أذني بكلمات كثيرة عن الوطن وعن حبيبتي وعن أمينة، ثم أغيب عن وعيي لأيام طويلة، شيء ما يحدثني بأن كل ذلك غير حقيقي!

سمر واين الآن..

سمر واين فقط!

(٣)

كنت ألف وأدور في الميدان، أدور كعقرب ساعة يلاحق ظلاله التي لاتنتهي، والميدان يفرز كل دقيقة من أمثالي كثيرين، وكان الفجر يشقشق والعصافير تغرد تغريدتها الصباحية، وكان واحد من هؤلاء عمال النظافة يكحت وجه الأرض بمكنسته التي صنعت من سيقان سباطة البلح لتحتمل احتكاكات الأسفلت بها فلا

تبلى سريعا، وهذه المكانس أعتقد أننا فقط وحدنا في العالم الذين اخترعناها دون أن نثبتها في براءة اختراع على الأقل لندعي الآن أمام العالم أننا اخترعنا شيئا مفيدا نستخدمه وحدنا فقط دون العالم، لم نتطور بعد لنستخدم المكانس الكهربائية، مازلنا نعيش في العصر الزراعي، وحين توقفت عامدا لأسأله كيف يحصلون على هذه المقشات، تلاقت نظراتنا. اتكأ على مكنسته وأزاح طاقيته للخلف، وتطلع في وجهي مليا، وخاطبني بلغة أعرفها جيدا، طلب مني سيجارة ووقفت أنا وهو في الميدان ندخن سيجارتين وليعترف لي بأنه يكتب قصة، عامل النظافة الذي يكنس الميدان كل فجر يكتب رواية، يأتي من تلك المنازل الشبحية المجهولة التي تسكن أطراف المدينة، حيث عليه أن يجتاز ابناءه الخمسة النائمين على الأرض، ويجتاز المقهى الصغير أو الغرزة بروادها من العجائز الذين لاينامون كاسرين كل ماهو متعارف عليه في الكتب الطبية عن عدد ساعات نوم بني الإنسان، أو الشباب الذي لايهوى عملا محددا غارقين في خيالات لاتتحقق، وبائعة الخضار التي تبيع بقايا تجار الخضار التي تبدو "مشننتها" كحديقة مهجورة، وبائعة الدجاج التي تأتي من قريتها بعد منتصف الليل بقليل لتفترش الأرض بجانب قفصها تنام كملاك يراقب البشر، والجنوبي بائع الفاكهة على عربته الخشبية المتهالكة الذي يتظاهر بالنوم نصف نائم ونصف مستيقظ أيضا، كلهم أمام المنزل، وعليه أن يفتح أذنيه جيدا لصوت البلطجي القادم عبر الزقاق ليجبي عشرة جوندات من كل واحد منهم نظير تركه يبيع وإلا عليهم أن

يتنازلوا عن بضاعتهم، إنها اصطباحتهم اليومية، يسمع صوت أم كلثوم مختلطا بصوت لهاثه تغطيه سحابة سيجارته الكيلوباترا، التي قد يشحذها من أي شخص يراه إذا لم يكن معه ثمنها، أو يحتفظ ببقيتها من الليلة الماضية ليدخنها في الصباح، ولذلك لم يكن عجيبا أن يطلب مني سيجارة، كان يكفيه أن ألقي عليه تحية الصباح وكنت قد أنهيت نوبتي في الفندق وقادتني قدماي للميدان الشهير، كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة في حياتي التي أقابل فيها أحد هؤلاء الذين ينظفون الشوارع ويكتبون الروايات في مدينتي، قال بأنه حين يأتي المساء يجلس على الأرض وفوق صفيحة سمن شهيرة يقوم بالدعاية لها ممثلان كبيران في السن، يلمح عروقهما النافرة وهي تضج بالإخلاص لنوع السمنة التي يقومان بالدعاية لها، وترن ضحكاتهما أمامنا على شاشات التليفزيون، أمام هذه الصفيحة التي تبدو كقدر لايمكن مقاومته، يجلس ليكتب قصصه المختارة بعناية من العاصمة البعرورية، كأني كنت أستمع لسنوحي في ملماته أمام الملك، ولم يقل أبدًا إنه ينشر منها شيئا، يقول صديقي ذو السترة الخضراء وهي دليل حي على انتمائه للعصر الزراعي_ بأنه لا يهتم بأن ينشر مايكتبه، إذ – ربما– ليس لما يكتبه قيمة، "فلا أحد يهتم بالفقراء، أو لماذا يهتم أحد بجامع قمامة؟ ربما هناك الآلاف مثلي، لست مستاء أحصل على ما أريد وأفعل ما أريد.. أليس هذا هو منتهى الحياة!" .

يهرش في مقدمة رأسه أسأله،

"كيف أنجبت خمسة أولاد في مثل هذه الظروف؟"،

يبتسم بحكمة أعلم تاريخها جيدًا،

"ليس هناك سعادة في العالم يمكن أن تكفيك إلا حين تفعل شيئًا خارجًا على القانون، القانون الذي سنه أمثال "المسكوت عن اسمه"، أن تخلد للنوم في هذا الجو القاتل ومعك زوجتك، لترى أن بطنها تتكور بعد عدة أيام لتهديك تلك الصرخة الطفولية لكائن جديد أبيض برىء وملائكي، تلك اللحظة هي الحياة ..الحياة الحقيقية.. التي لا يمنحني إياها أي إنسان آخر في الوجود، لا أفكر في المستقبل على الإطلاق، لو فكرت في المستقبل لاخترت الانتحار، كما تعلم أهل طيبة يفكرون في الماضي السحيق وفيما بعد المستقبل، اختاروا تاريخهم، واختاروا مابعد مستقبلهم، لايضارعهم في ذلك شعب آخر في العالم، لكن حاضرهم دائما أمر مكتوب بأيدي الآخرين، لكن هذا الحاضر لم يكتب أبدا التاريخ، أهل طيبة يعلمون كيف يكتبون التاريخ جيدا، هذه اللحظة الوسخة من عمر الزمن ليست لحظتهم، هم يعلمون ذلك جيدا، وبامتياز لايحصل عليه أعظم علماء التاريخ، يمنحون "الماسك بالكرسي" ما يرغب، ليصدق، ثم يموت في النهاية وينتهي تاريخه، أعظم الشعوب في الإنسانية التي قدمت للعالم كل التجارب، المأساة تكمن في أن تجاربهم عميقة للغاية لايستطيع شعب آخر إدراكها، أعلم أن ذلك سينتهي يوما ما، أنا في انتظار تلك اللحظة، بأبنائي الخمسة وفقري الذي يجعلني أتسول منك تلك السيجارة، لكني غير حزين، الكتابة، آه الكتابة هي التي تجعلنا أحرارًا، صدقني لا أشعر بحريتي إلا مع القلم والورق، وبشكل

أعظم مع المقشة التي تكنس وساخات "قاف"،

يحرك المقشة لإزالة ورقة شجر ميتة لايعلم أحد من أين أتت!.

يسألني بشكل مفاجئ كمن نسى شيئا مهما،

"ماذا كنت تريد؟"

ابتسمت تلك الابتسامه التي لاتحمل ضغينة، وأجبت،

"لا أدري!"

ابتسم هو الآخر، مددت إليه بسيجارة أخرى، تناولها بعد تردد متمتما بعبارات مبهمة، يبتسم تلك الإبتسامة الطيبية الصافية التي تعلن عن سرنا الجميل في قبول كل منا للآخر دون شروط مسبقة للحب، وسرت أمامه أبحث عن شيء آخر يستوقفني، شيء ربما يعيد لي الذاكرة، بينما عاد هو للملمة الوساخات التي تخترق قلب "قاف"!

عند راشد، وبعد عدة سلامات مع جميع الجالسين، وكانت رواية فهمي صالح تبدو منيرة بين الرفوف، ولم يكن هناك أي خبر ما عنه، فلا نعرف هل هو حي أم مات، لاأحد يعلم، ولم نكن نتساءل، نخاف أن ياتي لنا خبر ما أسود فيعكر صفو الحياة اللعينة التي نعيشها!.

عند راشد أيضًا قابلت عم حسن العطشجي على قطارات الصعيد، كان قصيرا ضئيلا ذا أذنين كبيرتين وشفاه ضخمة ووجه صغير، صغير للغاية، وجه أسمر جاف، وسحنة صفراء خفيفة تعلوه، وذقنه الناعمة التي لاينبت فيها شعر، بحذائه البني الفقير

المتشقق واللامع عن قصد، يسعل ويشعل سيجارته وينتظر جرعة البيرة التي سيحسن عليه بها "راشد"، يجلس بعيدا كأنه يدرك أن الحياة منحته الكثير ليكتب وأنه يعرف مقامه منها، كان يكتب عن الحب والقطارات، عن سائقي القطارات على الطرق الطويلة، عن زوجاتهم، عن عشيقاتهم في المدن الأخرى، كان مولعا بالحديث عن الحب، يكتب كفأر وينام كفأر ويحب أيضًا كفأر، دائما يختلي بنفسه في عربة القيادة "الجرار" خلف السائق، يأخذ في الكتابة في هذا الضجيج، يكتب عن الحب، عن الحب الذي لم يره ولم يعشه، عن الحب الذي يتمناه، كان سعيدا في حياته رغم كل ذلك، رأيته حين أصدر له راشد قصته الثالثة، كان سعيدا يتمنى على أن أقرأها، قرأتها، واكتشفت أننا لدينا حصيلة ضخمة من الروائيين العظام الذين لن يسمع عنهم أحد على الإطلاق، شغوفا بالكتابة، ومات وهو يكتب في تلك الليلة الباردة، وقيل إنه قابل فيها المرأة التي منحته كل شئ، مات ولم ير قصته الأخيرة التي كتبها، لكنه كان قد دون فيها المرأة الأولى والأخيرة التي قابلها في حياته في ليلة واحدة ومنحته كل شيء، ومات بعد أن تحققت نبوءته ولم يسمع به أحد بعد ذلك، كان يكتب رواية أيضا، حين تناول جرعة كبيره من البيرة انتفخ وجهه وتحول لونه إلى الأحمر اللامع، وأخذ يغني في همس، شعرت أنه يطير في سماء الغرفة، كانت الإضاءة الصفراء الآتية كنافورة من السقف تسقط فوق رأسه الصغيرة وهو واقف في منتصف الغرفة لايعرف ماذا يفعل بعد أن توقف عن الغناء، ربما شعر بحرية ما تتدفق في عروقة، قال

أنه الكاتب الوحيد في العالم الذي يكتب للصبامتين الذين يتحلقون حول رأسه الآن، هم كثيرون، كثيرون جدا، يملأون الغرفة ينحشرون على المدخل وحتى السلم وينهمرون في الشارع، يملأون ميدان التحرير وطيبة كلها، إنه سعيد سعيد للغاية، إنها ليلة سعادته، قال ذلك ثم بعد لحظات عاد لمقعده في الزاوية لايبحث عن شيء آخر!.

قابلت هناك أيضًا سعيد رئيس الجمعية التعاونية التي تقبع في أطراف قاف، كان يسرق الفراخ والسمك منها ليكتب الرواية أيضا، قال وهو يتحسس أصابع قدمه المشوهة والتي أخرجها من الحذاء، نصف موظفي قصور الثقافة يكتبون الروايات، نصف الشعب يكتب الرواية، قابلت بلطجية يكتبون شعرًا، وحرامية يكتبون أيضًا، الكتابة مهمة جدا لأهل طيبة، أبناء سنوحي يعالجون أمراضهم بالكتابة، "المسكوت عن اسمه المنتصب والجالس على الكرسي" ليس معنيا بالأمر، الدولة كلها ليست معنية بكتبة الروايات والقصص، الدولة متفرغة لبيع الأراضي وديون طيبة وغازها وبترولها وانشاء القرى السياحية وتهريب الدولارات عبر اسرائيل وبيع الخادمات للدول البعرية والقوادة السياسية، وهؤلاء الشباب الذين يعملون جرسونات وحلاقين ومصورين وفي الفاعل، يتسكعون في الشوارع يبحثون عن قطرات المطر اللذيذة الرخيصة في الأزقة الخلفية، أو عن علاقات حب لاتدوم طويلا لكنها كافية لأن تمنحهم الحياة، الكثير من هؤلاء يكتبون روايات.

كنت أفكر فيما يقول كان كتبة الروايات يزدادون عددا، كان

ذلك يؤكد لي أن الشرف لم يغادر المدينة بعد، وأنه يتحقق في العاصمة البعرورية التي يخرج منها هذا العدد الكبير من الروائيين، دون أن يحققوا أمجادا تذكر لكنهم كانوا يتمسكون بالحجر الأخير من مدينة كاملة اسمها الشرف كانت تنهار فوق رءوس الجميع حجرا بعد آخر، حققوا أحلامهم في الكتابة دون أن يعنيهم أن يقرأ لهم أحد، كانوا قد فرغوا من مهمتهم، وكانوا يعلمون جيدا أن التاريخ وحده هو الحكم، لكن التاريخ أيضًا - وهو مالم يدركوه - كان التاريخ قد فقد الشرف، كل التاريخ فقد الشرف، التاريخ مصرف مجاري الأفكار العظيمة، مصرف مجاري الشرف البعروري الذي لم يعترف به في أي عصر من العصور وإن ذكره التاريخ اللعين، يذكره على مضض وفي جفاء منقطع النظير، ابتلع التاريخ كل تلك الخيالات العظيمة كمرابي أصيل، منذ تحول العالم إلى قبلية قاتلة لاتؤمن بالمواهب وإنما تؤمن بالأبناء، الأبناء فقط يحتلون كل شيء دون أن تكون لديهم موهبة تذكر، كأن البعروريين كلهم يسعون لتسجيل اللحظة التاريخية التي نعيشها الآن. الطبيبيون يقفزون إلى عالم المعلومات بالبراشوتات، يكتبون آلامهم، أصبحت الرواية مكمنًا لكل من يريد أن يتحدث عن ألمه، ليس من المهم أن يقرأ أحد، المهم أن يكتبوا ألمهم، أن ينتقموا من الآخرين الذين نكلوا بهم، أن يفعلوا الفعل الوحيد الذي يشعرون فيه بحريتهم، حريتهم الحقيقية، أن يكتبون الرواية هاهاهاها زحمة، كنت مؤمنا الآن بأنني فعلت الشيء الوحيد والصحيح في حياتي، كتبت الرواية وتخليت عن إحساسي

كقطعة شطرنج، وليذهب "المتحكم" إلى الجحيم، كانت قطعة الشطرنج داخلي تتمرد دون أن أدري، منذ تلك اللحظة التي فتحت فيها عيني وأنا أقف في ميدان التحرير.!

(٤)

حين قابلت عم "على الشماع" عامل النظافة كاتب الرواية والشاعر، وسمعت ماقاله لا أدري لماذا فكرت في تلك اللحظة أن أكتب الرواية، روايتي على الأقل، قد تكون روايتي الوحيدة لكنها على الأقل ستكون شيئًا ما يمكنني أن أمنحه للعالم، إصبعًا غليظًا مفعمًا بالكراهية للعالم، أو شيئًا يذكرني بما عجزت عن تذكره، على الأقل سأضعها في الليل بجانب ألف ليلة وليلة وأميرة الثلج والأقزام السبعة لأتطلع فيهما قبل النوم وبجوارهما شاشة الحاسب الرملية الميتة التي لا أريد أن أفتحها، ولأتذكر حبيبتي التي هتكت عقلى ونثرت قطع مخي على أرصفة التحرير حين ادعت بأنها حامل من رجل آخر، كنت أبتعد عن عم علي في قلب ميدان التحرير وأنا أعلم أنني قد لا أراه مرة أخرى لكنه منحني الحل لإعادة شعلة مقدسة خافتة إلى ذاكرتي المتفحمة، أن أكتب وأن أكتب بلاهوادة، أن لا أحاول حل المعضلة، وحين كتبت أدركت بأنني أواجه زحمة شديدة، زحمة حقيقية، كانت آلامي تزداد كجرذ صغير يقف وحيدا فوق بالوعة ضخمة للمجاري مقفلة وموصدة، ويطير فوق رأسه بعض العقبان، الوقوف يعني الموت والحركة تعني الموت، قررت أن أموت وأنا أتحرك، كان ذلك خياري

النهائي، لعلني ألتقط بعض المشاهد التي يمكنها أن تعيدني للحياة أو أن أتعثر في أحد الملائكة، او أستيقظ من كابوسي الدموي، برز "على الشماع" كنبي لم يرسله إله، وانما أتى من هناك، من تلك العاصمة الصامته ولم يأت من أي عاصمة أخرى ..

ابتسمت في طيبة متناهية، وأدركت بأن اللعنة قد حلت علي، لقد منحني الشماع اللعنة الكاملة، رغم أنني لاأذكر كلمة واحدة الآن مما قال، لم يكن الدافع مهمًا بقدر الفعل الذي أقوم به الآن.

(٥)

خليل الحارس صديقي الجميل يريد الذهاب للخليج وعلي أن أتحدث إلى واحد من اثنين إما أميرة المنيل، أو أمير الطابق السادس والعشرين، علي أن أختار أحدهما، على الرغم من عدم معرفتهما بي شخصيا إلا أنني يمكن على الأقل أن أحدث قرني في المسألة حتى لو اضطررت أن أغني له سمك واين ياقرني..

ههههههههههههههههه سمك واين..

(٦)

حين أتت معي الصينية "تشي"، وبعد أن كلت قدمي في شوارع (قاف)، كانت تشاهد المباني القديمة والمتاحف والآثار والأسبلة والأبواب الخشبية القديمة الضخمة وأبواب الأحياء المملوكية، كانت تتفرج على الشعب الطيبي الذي يحاول الحياة في المجارير التي تركها التاريخ وأصر "الجالسون على الكراسي"

المفعمون بالموت أن يدفعوهم دفعًا إلي الموت هناك، لكنهم كانوا يتعاملون مع الموت بحنكة متناهية، كانوا يتعايشون معه ويستمرون في الحياة، ولم يكن يعنيهم في كثير أو قليل هذا الجالس أو هذا المسكوت عنه، كانوا يعلمون دائما أن التاريخ ملاذهم الوحيد، يعلمونه دون دراسة ودون مدرسة، كانوا يصنعون مدرستهم الخاصة دائما، أكنت أسير وأنا أعي بأننا نملك حضارة هائلة، وكنت أتعجب ونحن في المتحف الطيبي الفرعوني مما تركه لنا الأجداد، وبين مانفعله نحن اليوم، في نهاية اليوم كنا في غرفة قرني في الفندق، وبعد احتساء الزجاجة التي تركها لي قرني وسيجارتين من الحشيش المعتبر ثم أعقبتها بأكلة "عكاوي"[٩] محترمة، والعكاوي ياسادة ليس لها مثيل في العالم فأهل طيبة فنانون حقيقيون في تلك الأكلة، إنها أذناب البقر والجاموس التي تتبقى في النهاية ويتم تنظيفها ثم توضع في بعض الصلصة القوية ويتم غليها لفترة، ثم يتم تناولها كمثير أخلاقي للشكمانات، كان لابد من ذلك بعد أن منيت نفسي بليلة صينية حمراء، كان يجب أن أكون مستعدا لكل الاحتمالات، دخلنا الغرفة، خلعت ملابسها، كانت ترتدي فيبتايا سميكا وتحته لاشئ تقريبا، ثم توقفت تتطلع

(٩) لايمكن الجزم بأن اسم "عكاوي" قد أتي من فعل معين، ولكن يلاحظ أنه ينتمي لاسم "عكا" ربما، ويقال في المثل الطيبي "يعني هاتفتح عكا ياخي" بمعنى أنه فعل يكاد يكون مستحيلا، أعني مسألة فتح عكا، إذ لم يقم بذلك سوى صلاح الدين الأيوبي، فتح عكا فعل لايمكن أن يتكرر الآن، كما أن المثل يحمل رمزا جنسيا ما داخله،، وقد تكون "عكاوي" قد أتاها النسب من هنا، أي تنتسب لعكا قولا، وفعلا لأهميتها في المعاشرة والله أعلم.

إلي، طالبتني بارتداء الواقي الذكري، ولم أكن قد فعلت ذلك من قبل، خرجت لقرني وسألته عن واحد، قال لي أنه يباع في محطة البنزين في محل داخله اسمه " أوم زا رم" ضحك طويلا، وهو يقول " أول حاجة هاتشوفها هناك.. قدام الكاشير على طول"، ناولتني هناء واحدًا من حقيبة يدها وهي تكاد تسقط على الأرض من الضحك "بنت الكلب"، عدت إلى "تشي" حاولت التفاهم معها، ولم تكن هناك لغة في العالم قادرة على التقريب بيننا، سوى القبل وإطلاق سراح الشكمان الحديدي مباشرة، كانت تلهث دون أن تتكلم، أحاول مجاراتها لكن كان هناك مالم أفهمه، فجأة فقدت الإحساس تمامًا، وتركت نفسها لي، حاولت إفهامها بأن الأمر بهذا الشكل لن يتم على الإطلاق، كنت أقلب فيها كأني أقلب في مخدة، ليس بيننا كلام ولا ذكريات مشتركة، كانت تنظر للأمر بأنها مجرد فتحة عليّ أن أدخلها وأنهي المسألة، كانت مستوية تمامًا على السرير، فيما بدأت أنا أتحول إلى قطعة شطرنج فعلية ليس بها أي إحساس، نهضت من فوقها وألقيت بالواقي الذكري عليها، خرجت حيث هناء التي كانت تعرف جيدا ما ينتظرني!

قالت هناء وهي غارقة في ضحك متواصل،

"يابو الفتوح..فيه نظرية بتقول الست الصينية زي البضايع الصينية تمامًا، لاتصلح إلا لمرة واحدة..هاها"،

كنت خجلا، ولكن بعد خروج "تشي"، أدركت المسألة برمتها، لم أكن أكثر من قطعة شطرنج حاولت أن ينتابها إحساس مزور، كيف كنت أقوم بهذا في المصعد مع هناء، وكيف قمت به مع

صاحبات "مَرْحَبًا"، وكيف فعلته مع أرق قطرات المطر في التاريخ على صفحات "البلاي بوي"!

كان أمر التقاء حضارتينا على سرير مسألة فاشلة تمامًا، لديهم الوقت يعني كل شيء، يعني المال، نحن فعلا اللحظة الحاضرة ليس لها معنى لدينا، حين خرجت تشي توجهت مباشرة للباب، وانطلقت ضحكة هناء،

"على فكرة أنا مش مستبعدة إنها تكون عملت كده علشان تقيس حجمك، الواقي بتاعك مناسب تمامًا لهذه العملية، لو دورت عليه مش هاتلاقيه"

قفزنا أنا وقرني نحو غرفة النوم، قلبنا كل شيء داخلها ومع ذلك لم نعثر للواقي على أثر، "يابنت الكالب، حتى البتاع.."

هاهاها سمك واين ياقرني..

سمك واين .. هاهاها..

قررت الصين إذن أن تفعل ما فعلته الولايات المتحدة..هاها..

السوق الحرة..عالم المعلومات الأمريكاني..

والصين توفر كل حاجه في العالم..

وإحنا نقضيها فرجة وتجريب عينات..ولا إحنا العينات..

هاهاها..سمر واين يابوْ الفتوح!

هل كان هناك معنى لهذه الحكاية عن أحد النكرات في دولة بين السرايات، الحكاية الأخرى البديلة التي كانت لهناء تلك النكرة الأخرى التي قابلتها في المصعد، ففي أحد الليالي التي بلا هوية في عرف أمثالي من أصحاب التعليم الحكومي، حين اعترفت

بأنها كانت بنت شوارع، وأنها بدأت حياتها الصاخبة وهي طفلة في أحد جبال القمامة في ضواحي (قاف)، قالت بلا تردد إنه تم تخزينها في أحد جبال القمامة هناك!

لم أفهم تمامًا الجملة، وربما لن أفهمها لسنوات كثيرة بعد ذلك، لكنها مازالت تخترق عقلي، "اتخزنت"، أنا أيضًا تم تخزيني ياهناء، تم تخزيني في شوارع (قاف) اللئيمة التي لم أعد أعرفها بسبب تغيراتها السريعة، (قاف) قريبة الشبه منك ياهناء تغير ثيابها كل ليلة، وتمنح زبائنها بلاحساب وتحرم أهلها بلا شفقة!

"اتخزنت" مامعنى اتخزنت ياهناء؟؟"

تطلق ضحكة طويلة، بينما يضحك مني أيضًا قرني قائد عصابتنا المدرب على التعايش السلمي مع كل بذاءات (قاف)،

"ماتعرفش اتخزنت ياأبو الفتوح..

ياراجل ده أنا كنت فاكراك راجل فاهم كل حاجة..هاهاها..

طلعت سمك واين صحيح..

سمك واين يافتحي..هاهاهاها"

نضحك جميعا، لكني مازلت أنتظر كأبله حقيقي معرفة ماذا قصدت، سكتت قليلا وتخلصت من الكأس الذي تشربه بعد أن تجرعته وهي تتطلع إليه..

"التخزين يابو الفتوح ..ماتعرفش التخزين.. ماتعرفش يعني إيه تتخزن في مقلب زبالة، إنت عارف شكل مقالب الزبالة يافتحي.. شفتها قبل كده.. شكلك ماتعرفش حاجه عن المقالب.. ههههه.. إنت عارف ياأستاذ فتحي طالما إنك ماتعرفش مقالب

الزبالة.. يبقى هاقولك ياأستاذ.. أنا عشت مع نص العيال المتشردين اللي في (قاف) وحدها.. كان عمري يمكن عشر سنين أو حداشر..كان الرمان طلع.. مافيش واحد سابني.. كنت متضايقة في الأول.. وعيطت كتير.. بعد كده بقى عادي.. شهور طويلة مرت يابو الفتوح.. لحد ماكله بقى ألسطه.. لحد ما أدمنت أنا كمان، مع أي حد.. مش مهم ريحته ولا شكله أعور ولا أعرج ولا حتى مكسح أو مشوه بمية النار.. كلهم تقريبا كان عندهم جرب.. لكن الميزة اللي بقت موجودة وده مهم جدا في حياتنا.. إن مابقاش عندي حاجه إسمها الحرام والحلال، وسابوني بعد كده، سابوني وهم عارفين أني ماليش مكان تاني يافتحي.. مقلب زبالة يا فتحي هو أول مواجهه لي في الحياة، مش فاكره حد من أهلي دلوقت، لم يتركوني إلا بعد كده بكذا سنة، أنا نفسي هربت، شربت كل حاجة، أنا جمل يابو الفتوح ماتغركش الحلاوة ده كله من بره.. اختفيت شهور عند ست في الزمالك كانت ليها في الصنف، اتعلمت حياة جديدة، سنتين تلاته وبعدين عرفت السكة.. الطريق سهل لما بتمتلك حاجتين الفلوس أو الجمال.. كان الجمال بيفتح والفيزيتا بتزيد مع الوقت.. أنا قاعده معاكم لأن قرني بقى صاحب وأنت كمان..هههههه"..

أطلقت تلك الضحكة الطويلة، قطرة المياه اللذيذة، أطلقت ضحكة طويلة، طويلة للغاية، لا أعلم لماذا شعرت بأنها بكاء، ربما خيل لي ذلك، لكني كنت متأكدا أنني لم أسمع ضحكا على الإطلاق، وأنني أمر بفترة تفقد الأفعال والأشياء مظهرها ومعناها

الحقيقي، كانت تختلط وتنصهر وتعود بمعرفة جديدة تمامًا لم تكن موجودة من قبل!

حين ضاجعت هناء في المصعد، كنت أظن أن ذلك حدث فجأة لتتخلص مني، لكنها تحب، بل تعشق أن تفعل ذلك في المصعد ومع أي رجل، تفعل ذلك عن سبق إصرار وترصد، تفعله باستمتاع، فعلنا ذلك عدة مرات في المصعد، وكانت تكتم صرخاتها، لكنها في النهاية حين تنتهي، كانت تبصق، ربما كانت تبصق علي، وربما على ماضيها، وربما على (قاف) بمن فيها، كانت تفعل ذلك في تلقائية، ملابسها ورائحتها لاينمان على الإطلاق عن تاريخها الطويل في منح المطر لمن يريد، كانت وجها مألوفا تمامًا، وجميلا تمامًا، لكني كنت متأكدا أنها امرأة بالملامح فقط!

سمر واين ياهناء..

سمر واين ياقطرة المطر الشهيدة..

سمر واين!

الفصل السابع عشر

للمرة الثالثة لم أكن أعلم أن هناك أحد الأعمدة البارز

في دولة بين السرايات لم أتحدث عنه

(هل يوجد مجنون ما على قطعة الشطرنج!)

علي أن أتدخل أحيانا بديلا عن فتحي بوصفي الكاتب الحقيقي للرواية، مدعيا بعض المعرفة التي قد يغفل فتحي عن سردها في ظل الازدحام الذي يملأ عقله أحيانا، والأكونتس التي ينقل منها أحيانا أخرى.

أحد أهم الأشخاص الذين نسيتهم في الزحام، هو المجنون الثالث، لا أدري هل هو مجنون، أم أنه فقد عقله بالفعل، وهل لم يكن مجنونا من قبل، لكنه أحد رموز دولة بين السرايات، حين تراه يسير في الشارع مرتديا بيجامته الشتوية المقلمة، يسحب قدمه خلفه كأنه ذكر بط انتهى لتوه من حفله ماجنة وعارمة فترك شكمانه الأغر معلقا ومتدليا خلفه على الأرض، ثم بحركة مسرحية لاتصدر إلا عن ممثل "قِراري" ينحني برأسه أمامك في استعطاف وتتحول ملامح وجهه لكتلة بائسة على الرغم من ابتسامته التي كانت تتهيأ للارتسام على وجهه قبل أن يأتي وجهه في وجهك، لكنها تتحول إلى شيء آخر يقف في جذل بين

الاستعطاف والمذلة وهو يتحدث إليك بصوت مبحوح كمطرب مقاهي عريق ويطلب منك السيجارة، وهو لايأخذ أية سجائر، إنه يطلب سيجارة كليوباترا تحديدا، كليوباترا سوبر وكأنه يدعم الصناعة الوطنية عن إيمان راسخ، وإلا سيرفض وربما يمنحك سبابته يعقبها سباب لايمكنك وضع تصنيف محدد له لكنه من المؤكد سيثير ريبتك فتمنحه أنت الآخر سبابا ضاحكا، وحين يتناول السيجارة يتطلع إليها في لطف شديد ثم يقطع عقبها كأنه يقطع رأس أرنب ويرميه بعيدا، يشعلها في ترفق. ويأخذ في نفث الدخان بتلذذ شديد، أو يضعها خلف أذنه إن كانت في يده سيجارة والعة، ثم يبتسم في وجه من منحه السيجارة وإذا شعر أنه يمكنه أن يطلب منك شيئا آخر سيفعل دون تردد، سيقرأ عينيك ومدى رغبتك في منحه الطلب الثاني والذي لن يزيد عن شلن وهي عملة أصبحت الآن من العملات الأثرية، لكنه يصر على الشلن على أساس أنه البديل الآخر والوحيد للسيجارة الكليوباترا، وحين تناوله السيجارة والشلن سيذهب بعيدا، قد لايكون مهما كثيرا أن نعرف حكايته، لكنه أحد ضباط حرب أكتوبر، شظية في الرأس مسحت معرفته كلها وتركته هكذا يمرح في الشوارع ليبحث عن سيجارته المفقودة، يقول البعض بأن شظية أصابته أثناء طلبه لسيجارة من أحد أصدقائه وهما جالسان بجوار شجرة كبيرة في الدفرسوار، وأن القنبلة حين انفجرت لم تترك سوى حفرة ضخمة ثم ذراع صديقه الممدودة بالسيجارة وحين انتهت الحرب لم يتبق من ذاكرته سوى الذراع الممدودة والسيجارة وبعد حين لم تترك سوى

السيجارة فقط التي تعلقت بها عيناه، هذه السيجارة، كانت اللحظة المعرفية الأخيرة في علاقته بالعالم، وهذا قريب إلى حد بعيد مما يدعيه البعض من أن الميت حين يموت فإن آخر صورة يشاهدها ترتسم على مقلته، ربما لايسأل عن أكل أو شرب، ولايمكنني أن أدعي أنه أصبح يفكر في أي معنى أخلاقي للشرف مثلا أو العدل أو الرفاهية وإلا سيكون ذلك ضربا من الجنون من جانبي، إنه يسأل فقط عن سيجارة كليوباترا سوبر طويلة ليستطيع أن يلقي بعقبها دون أن يشعر بأن السيجارة قد نقص منها شيء ما، يطوحه في الهواء لتحمله الريح كروح بيضاء صغيرة، أو كرأس أرنب أبيض صغير بالفعل تجلب الأسى، يتطلع إليه قبل أن يشعل سيجارته ونتطلع إليه جميعا، تحمله الريح بعيدا لعدة أمتار ثم يسقط بين أقدام السيارات والمارة، يشعل السيجارة ويسير على الرصيف نافثا دخانه في الأعلى كأنه ينتقم من السماء التي لم تمنحه سوى معرفة وحيدة بسيجارة كليوباترا!

دولة بين السرايات كانت المهرب الحقيقي والمنفى المختار لفتحي، بعد عدة سنوات من الاختفاء غير المبرر، هو نفسه لم يستطع تبريره، وإخوته سألوا عنه في كل مكان دون دليل واحد على وجوده، أمينة بالذات سألت عنه في كل ركن ممكن أن يأويه في "قاف" دون أمل واحد في المائة، ثم ظهر فجأة بعد سنوات كأنه أتى من الجحيم، ليسكن بين السرايات وليصبح مع الوقت جزءا منها لايشعر به أحد، بدأت علاقته تعود بإخوته، دون أن يحصل أحد على إجابة منه أين كان؟، ودون أن يحصل هو على

إجابة منهم تتعلق بحياته المسكوت عنها، فقط مزكز الإسكان وغرفته الوحيدة التي حافظ له رمضان عليها، كان ماضيه كله لغزا لايتضح فيه سوى إخوته وغرفته ومركز الاسكان ولا شيء آخر، وكانت بين السرايات التي تركها وعاد إليها تتسع كمحيط هائل تحت عينيه! بين السرايات حيث عالم المعلومات، ماذا كان يفعل في تلك الليالي التي لايستطيع أن يحصل فيها على امرأة من المجتمع البشري، التجول في المجتمع المعلوماتي ممتع للغاية، يمكن من هناك أن يحصل أي شخص في طيبة على مايريد، تكفلت بذلك مايكروسوفت، والولايات المتحدة ووصل صيتهما إلى دولة بين السرايات الشقيقة، حيث يمكن لفتحي تحت بير أي سلم أن يستمتع بعشرات النساء وأن يختار منهن من يشاء، والحقيقة أنهم وفروا على الإنترنت كل شيء للحصول على ما يريد البشر الطامحون إلى الحصول على ما لا يملكون، وفرت لهم الخيال العميق، يمكن لأي من كان أن يبحث عن المقاعد السمراء أو الحمراء السمينة الدائرية، أو الصدور المرمرية التي تغنى بها الشعراء، وحتى غلمان أبو نواس ودافنشي ومايكل أنجلو وغيرهم، إنها متكأ اللذة الافتراضية، وهم أنواع وأشكال مختلفة، لم يعد يهم الحصول على امرأة ثم الزواج والأطفال، الحياة هكذا أكثر جمالا وطمأنينة، بلا أدنى شك سيحصل أي كائن على النتيجه النهائية، صحيح أن فتحي أحيانا ما يمقتها كبيضة حجرية حين يكون جوعانا ويجدها على مائدته، لكنه لايملك غيرها فعليه أن يتخيل أنه يأكل حتى الشبع.!

سأتوقف هنا لأنني أعتقد جازما أن فتحي يمكنه أن يستكمل هذا الاعتراف في روايته:

"حين يهب ليل (قاف) بسحابته السوداء التي تتناثر فتعمي العيون لايكون هناك أجمل من أن أقلع "بلبوصا" أمام شاشة الكمبيوتر التي تقبع بجوار سريري وبينهما كوميدينو ألف ليلة وليلة وأميرة الثلج وأختار أحلى النساء – من وجهة نظري – وأحلاهن بالطبع الأمريكيات الجنوبيات إذ يتميزن بمقعدة تم رسمها بمسطرة لاتخيب الأبعاد، مسطرة من مساطر الهنود الذين اخترعوا الجنس، إنهم يقبعون هناك في تلك الأجهزة التي لاتوحي بمن يختبئ فيها، مواقع مجانية متعددة للممارسات المجانية، كأنها صنعت لنا في دول العالم الثالث حيث نقضي أغلب أوقاتنا في ممارسة الجنس، أما الحمار الأول في التاريخ الذي اخترع الساعة فلم يكن يدري أنه اخترع شيئا بلا قيمه لنا هنا، وأن الحروب التي نخوضها في الشرق الأوسط أصبحت سيئة السمعة لخساراتنا المتتالية بلاهوادة وعلى ذلك تبقى حروبنا في الخيال والفياجرا والتريمادول هي شغلتنا الشاغل، أما الحشيش والبانجو فتكفلا بالباقي، مركبات ووصفات مدهشة لملء عشش الفراخ بأمثالنا، هاها سمر واين، فلتهرب هي بما تبقى من رجولتي، فلأعيش في خضم معاركي الذهنية، هناك على شبكة الإنترنت حيث أرتوي بلا مقياس حراري، النهر حين لاينضب يصبح قبلة للجميع، هذا هو السر في إقبالنا هناك، المرأة تنضب بعد عدة سنوات، على الإنترنت تصبح شابه دائما لا تنتهي خصوبتها، تكرر ما تفعله

بشكل دائم، يمكنها أن تتكرر كل ليلة، الحقيقة لاتتكرر بنفس الجمال كل ليلة، ويبدو أنني اكتسبت تلك العادة حتى في الكتابة فأنا أكرر أحيانا ماسبق وأن قلته، إذن استمرار حياة الصور والأفلام التي أراها كما هي كل يوم أكسبني القدرة على عدم التغيير، فلم أتغير كثيرا منذ عشرين عاما، أليس هذا سرا دفينا لكي نقبل على عالم المعلومات، أن تضرب سيجارة حشيش وتجلس لتتابع، هناك امرأة تتكرر بشكل مستمر، كيف تترك ذلك لإمرأة تعرف كل شيء عدا أن تكون لها رغبة مستمرة، كما أنها لاتعرف كيف تكون جميلة، تعتقد أن بعض المساحيق والأطفال وغسل الكعوب "ومرشها" يمكنها أن تحقق هذا الجمال، الجمال الحقيقي هنا على تلك الشاشة المسطحة حيث أملك القدرة على تكرار المشهد ملايين المرات، كما أنهم يمنحوننا طرقا كثيرة للحصول على مانريد، كل طرق البحث وأشكالها، إنهم متقدمون، متقدمون للغاية، متقدمون بشكل مرعب، متقدمون في مؤسسات البيزنس أكثر مما هم متقدمون في جامعاتهم، بينما نحن خاملو الذكر لانعرف شيئا عن تقدم البيزنس وتقدم الجامعات، هذا هو المحك الحقيقي أن تخلص لشيء ما حتى لو بيت دعارة على الإنترنت! لم يجعلوني أحتاج لشئ آخر، فكل كلمات البحث متاحة من أصغر وأضعف كلمة أو فكرة تأتي على البال إلى أعصاها على التخمين والاحتمال، قائمة بهذه الكلمات قد تبين مدى تقدمهم في هذا الأمر، إن خمر الصيف تزيح الوعي، تتركه عاريا أمام الحقيقة، مثل هذا الوب سايت الذي يمنحك ملايين من الكلمات

المحتملة التي تفكر في البحث بها، كل نوع نسائي على الأرض ستجده هناك، إنها أنثروبولوجيا متقنة بشكل جديد، لم يترك عالم المعلومات شيئا للصدفة وعلينا أن نتعاطاه، أصبح الأمر خارجًا على السيطرة، بمرور الوقت أصبح لي قاموس خاص للبحث على الإنترنت، كنت أضيف إليه كل يوم، لكن كانت هناك كلمات بعينها هي التي كانت تستوقفني،

أبو بوش

أبو نواس

أحمد عدوية

أحمد عز

الإخوان

الأسد (اللي تحسبوه)

إسرائيل

الإسلام السياسي

الأقباط

اللي جايبين بوش

اللي ماجابوش بوش

أم بوش

أمن الدولة

أنس الفقي

الأهلي

أوباما

المجهولة
محمد علي
المقعدة السمراء = بلاك آس
المقعدة الضخمة
المقعدة الهائلة = تيتان آس
الملك فاروق
ميغان
النيل (النهر)
اليهود

إنه تصنيف هائل للرغبات التي لاتنتهي، على كل إنسان أن يبحث داخله عن رغباته المدفونة هناك، سيجد أن الإنترنت ستمنحه تلك الرغبة بلا مقابل، ويمكنه أن يكرر المشهد ويعيش فيه، إنه اختياره، لاتقبل الحياة باختيارات متعددة، الإنترنت كذلك، تمنحنا المشاهد فقط التي نكررها ونجدها أجمل ما في الحياة، الحياة سهلة للغاية هناك وبسيطة، ويمكن عبر الوب كام مقابلة كل النساء الغربيات والفلبينيات واليابانيات والطيبيات والإفريقيات والمغربيات، كما يمكن مقابلتهن في (قاف) أيضًا، ببضعة جوند من العملة الطيبية يمكن التخلص من رهاب الشكمانات، وحتى الشواذ أيضًا – لعنة الله عليّ أحاول أن أجد بديلا لهذا المصطلح – يمكن العثور عليهم هناك.

حين كنت أتلمس الطريق إلى الشاشة في الليل وأبحث عن

رفيق لايمكن لأحد أن يمسكه، أشاهد تلك الدعوة لوقفة احتجاجية ضد "المسكوت عن اسمه" أو ضد وزيره للفنون، خارج دار الأوبرا، أشعر بحنين مفاجئ لاأعلم له تفسيرا، شيء ما غامض يدفعني لن أقرر الذهاب إلى تلك الوقفة، لكن هناك خوفًا ما، خوفًا ما راقد في أعماقي، كأن ذهابي إلى هناك سيدفعني للقاء عزرائيل، أنفض تلك الأفكار وأعود لما كنت فيه، وحين أتعب من اللف على الإنترنت والقراءة، أذهب إلى هناك تحت بير السلم الافتراضي أبحث في وجوه قطرات المطر اللذيذة، لأعيد تشكيل الصورة في ذهني، إلى أن أجدها صورة المرأة التي أحببتها يوما ما والتي اخترتها لأنام معها داخل عقلي، هكذا كان الأمر كل ليلة، أجلس بالساعات أتابعهن، أتابع تكرار المشاهد عشرات المرات حتى أصبحت أنا تكرارا للمشهد، تكرارًا بلا نبل ولا شرف!

ربما من المهم أن أذكر أن هناك خديعة ما قد تعرضت لها، لم أكن أدري حتى هذه اللحظة سببا محددا وراء قيام حبيبتي بإيقافي عن أن أتوغل داخل ثقبها الأسود في المجرة العظمى، الحقيقة أن ذلك لم يكن حقيقيا، الآن يمكنني أن أتذكر الأمر، أتذكر الأمر في جدية تامة، لم يحدث على الإطلاق أن حرمتني هي من كل ما أريده منها، منحتني كل شيء روحها وجسدها وثقبها، كانت ترتدي هذا الحجاب الأبيض البسيط دائما، كانت حين تدخل شقتي الصغيرة فتجدني نائما، ترى جهاز الكمبيوتر المفتوح، وغالبا ماكانت تشاهد معي تلك الصور والأفلام العارية، تخلع حجابها وتدخل معي تحت ملاءة السرير الممتلئة بالبقع، كانت تصرخ،

تصرخ في أذني بأن أمنحها المزيد، المزيد من الحياة، كنت أمنحها بلاتردد، ربما لم أمنحها روحي تمامًا، لست متأكدا من ذلك الآن، ذات مساء بعد أن كنا على موعد هناك، كنت جالسا في "أسترا"، أجلس إلى طاولتي، في الموعد المتفق عليه،، وأمامي أميرة الثلج وألف ليلة وليلة، أتطلع إليها في براءة يوسف، أنتظر حبيبتي، "سلوى"، نعم نعم.. هذا هو اسمها، لم يكن اسمها غير هذا، نعم.. هذا هو اسمها.. كيف لم أستطع تذكره من قبل، وكيف قفز فجأة أمام ذاكرتي، فتعرضه كشاشة سينما أمام عيني، كيف قفز فجأة اسمها من الركن المظلم، لكن.. لكن.. ربما لم يكن سلوى، ربما كان اسما آخر، لايمكنني التأكد من ذلك على أية حال، لايمكنني، أعود لنفس الطريق، كان الوقت يمر وأنا مستمر أتجرع أكواب البيرة واحدا بعد الآخر، الليل يشتد ظلمة دون أن تظهر، يعلو صخب رواد الحانة وينخفض، وأنا مازلت في انتظاري المزري، فيما بدأ وعيي يجف شيئا فشيئا، أمضيت الليلة جالسا على المقعد دون أن أفعل شيئا آخر، إلى أن طردني عبد الجرسون، خرجت وتناولت أميرة الثلج وألف ليلة وليلة بعد أن ألقى بهما على الأرض.

أتطلع دون إدراك للسماء حيث ذابت أضواء الليل الأخيرة في عتمته اللامبالية، وهبت نسمة باردة لم يمكنها أن تعيد لي عقلي، نسمة واحدة من تلك النسمات العليلة التي تختزنها جيدا ذاكرة "قاف"، حين يلوح لضوء القمر أن يلاعب تلك النسمات التي لم أعثر عليها أبدا إلا في "قاف" خصوصًا في شهور الصيف،

ينسدل الضوء الفضي على تلك الريح الخفيفة، يلعبان معا تلك اللعبة السحرية التي لم ترد في كتاب مقدس من قبل، وتظل السماء ملعبًا إلهيًا للضوء الذي ينسكب في تؤدة في قلب الريح، مشهد يتجدد في صيف "قاف" منذ ملايين السنين، وحين تتململ الشجيرات تبعثر أوراقها على الأرض، تفرش المستنقعات السوداء التي صنعناها بآلاف من تلك الحيوانات الإلهية، التي تركض دون أمل إلا في أن تسمعنا أصواتها الرقيقة وهي تتدحرج على أرضية الكوبري المستسلم لما تفعله برضاء تام.

ذاكرتي تترنح، وحين تنتصب في أحيان نادرة، أتوجه مستكينا إلى تلك المنطقة العشوائية في نهاية قاف، بالقرب من الجبل، أبحث عنها، لا أحد يعلم عنها أو عن أسرتها شيئا، لم أكن متأكدًا عما أسأل عنه، لم يكن لدي اسم ما مجرد وجه من ملايين الوجوه لا يعني لأحد شيئا ما، أبدو كمجنون أمام تلك العيون التي تتكسر ومضاتها أمامي فيزداد الطريق عتمة، كانت الطرق تزداد انسدادا كل يوم، وسط حكايات شتى مابين زواجها من أمير جماعة، وما بين زواجها من رجل يعيش في أوروبا، ومابين مرضها، كانت كلها أقاويل، فيما أنا أتردد على "أسترا" كل ليلة، إلى أن أصبح الأمل يقف أمامي في نهاية الكون لاسبيل للوصول إليه، وكانت خلايا عقلي تزداد تلفا، كانت كل خلايا عقلي المغناطيسية يتم مسحها واستبدالها، أسطوانات ذاكرتي تمسح ويعاد بناؤها كل حين بذكريات جديدة لا تحتمل حركتي، فأعيد كتابتها من جديد، أتسمع صرخات وأشاهد حفرة عميقة ممتلئة

بالجماجم، جماجم تصرخ، ثم ظلام دامس، لأصحو على ذاكرة جديدة لاتحتمل الحياة لأيام معدودات، تنهار، وأعيد بناءها، دون إثباتات بأنها ذاكرتي الحقيقية، كيف ركضت خلف حبيبتي في كل الأماكن،، كان الأمر انتهى، وكنت أنا قد انتهيت، عشرون عاما أدور في ميدان التحرير بحثا عن ظلالها هناك، كيف تحت وطأة شيء ما، وطأة رغبة ما، فشلت في الاحتفاظ بحبيبتي!

هاهاهاها ..سمر واين

.. سمر واين

لا.. زحمة.. زحمة يادنيا زحمة..

زحمة باشتياق هائل..

زحمة بلا ضغينة..

زحمة بلا أمل..

زحمة بلا ظل.. زحمة يادنيا زحمة

ههههههه..

.. سمر واين يافتحي!

الفصل الثامن عشر

كش ملك

لاتنتهي لعبة الشطرنج إلا بعد أن يتنحى الملك ثلاث مرات، ليسقط بعدها ولايعود للرقعة مرة أخرى.. الملوك يؤمنون بقدرتهم على العودة دائما.. لم يثبت أبدًا في التاريخ أن ملكا ما فعل ذلك.. فقط ملك الشطرنج

لم يكن يجب أن أتكلم أو أتدخل على الإطلاق، كان يجب أن أترك الأمور كما هي، كما سردها السيد فتحي، بوصفي كاتب الرواية الحقيقي الآن، لقد دفعتني الحكاية لأن أتدخل لإماطة اللثام عن تلك المسائل (تمامًا كما كان يفعل شرلوك هولمز حين يجلو القضية، لكني بالطبع لا أملك مهارة هولمز ولا قدرات أرسين لوبين ولا حتى أجاثا كريستي أو ألفريد هيتشكوك، لكني سأحاول) لابد لي إذن أن أتدخل لأجلو الغموض عن القضايا التي يحكيها السيد فتحي، من المهم أن أتدخل، أتدخل بصفتي أستاذ الجامعة الذي يعشق كتابة الرواية، بصفتي أستاذ الجامعة الروائي العاشق للمنهج والعاشق للفن، بصفتي أملك الحقيقة، فتحي لم يحك الحقيقة، وأنا لا أملك من الحقيقة إلا ماكتبت، فتحي يشبه تمامًا أبطال روايات الستينيات وهو يعيش بهذه العقلية، هؤلاء الفاتحون

العظام للرواية في العالم العربي، هؤلاء الذين تركونا بلا أنبياء أو مرشدين، لم يختلف عنهم كثيرا سوى أنه قال جزءًا من الحقيقة، ادعى مثلا أن خطيبته تركته لزواجها من أمير جماعة أو من أي رجل أرادها، وهذه كذبة هائلة لم يكن يفترض أن تصدر عن مثقف مثله، إنه من النظرة الأولى لم يقدم لنا هذا العمل المتماسك الكاتدرائي كما ندعي، قدم لنا إن صح التعبير مجموعة من الدوائر، ربما نقتنع بها وربما لا، على أية حال لقد تكلم مثلا عن الشرف، والشرف كما تعلمون جميعا هي القضية الأساسية التي قامت عليها الملكية في جميع أنحاء العالم، الملكية التي لم تظهر في هذه الرواية بالشكل المأمول، لكني أدعي أنها ظهرت كما ينبغي، فالملكية لم تكن دائما بشرا، لقد أتت مسألة الشرف في معرض حديثه عن كتاب الروايات، وربما في معرض حديثه عن زوج أخته المثلي، وفي يقيني أن المعني بالشرف كان فتحي نفسه، فلم يكن تعرضنه لإغواء ما مادي سببا كافيا لأن يترك حبيبته، لقد تعرض فتحي وهو مايجب أن يفهم هنا بأنه ليس دفاعا عنه على الإطلاق، تعرض لتنكيل ما من قبل أحد هؤلاء الغامضين الذين لايمكنك تحديد هل هم فاسدون بالطبيعة، أم أن النظام العالمي أراد منهم أن يكونوا فاسدين، أم أن الأمر يتعلق بالنظام المحلي، وهي أشكال متعددة للإدانة، فكل من ذكرتهم هم جزء من النظام، ولايمكن للنظام في أي دولة من دول العالم الثالث أن يعيش بدونهم، فهم كالبنيان المرصوص لافائدة في نظام ما إلا بهم، وينتهي النظام بنهايتهم، وهم قادرون دائما على التوالد بشكل جديد

تمامًا ومتخفي، وتحتاج الشعوب لسنوات طويلة من المراقبة لكي تتأكد من أنه تم خداعها والتنكيل بها.

لقد تعرض لما يمكنني أن أقول عنه لغسيل دماغ، في مكان نائي في قلب ميدان التحرير العظيم، أجبر في نهايته على أن لايتذكر سوى شيئين،

الأول أنه لايعرف كيف ترك حبيبته، ولا متى، ولا اسمها حتى أو أين كانت تسكن، وأنه يعيد قراءة نفس الحكاية من زاويا مختلفة، إنه يرى مايريد أن يراه وهي ليست الحقيقة على الإطلاق.

الثاني أن ذاكرته محبطة ومشوشة، يتذكر أحيانا أنه سعيد وأحيانا يتألم، وهو يراوح دائما بين هاتين المنطقتين، لكن لديه مايريد قوله، لكل إنسان في طيبة مايريد قوله.

فتحي عاش منعزلا عن أخوته، أمينة لم تدرك أبدا في ظل مشاكلها أن فتحي به عيب ما بعد اختفائه لسنوات ثم ظهوره فجأة، أرجعت العيب لفقدان جزئي للذاكرة، عيب مرضي، فهو يكرر نفس الكلمات ولكن كل مرة بترتيب مختلف، لم تمنحه الحياة كثيرا من نفسها بل منحته فقط مايمكنه من التنفس، ودون مفاجآت في أن تمنحه يوما ما مايريده، الحياة كشجرة الوردة ليست هناك مفاجآت تقوم باقتلاع أوراقها، الزمن فقط هو الذي يقتلع أوراقها، فقط أخيه رمضان الذي يطلق عليه لحمة رأس، سائق التوك توك الذي يشبه الكلاب البلدي العجوز، رأس ضخم لا يتذكر شيئا، فهو تارة بلطجي، وتارة مجاهد، وتارة عدمي تمامًا، لكنه يعود لرشده

أحيانا ويتحول لسائق جيد للتوك توك، وهو أمر يبعث على الضحك، رمضان هو الوحيد الذي لم يسأله يوما ما عن ماحدث له، كان يمارس الأخوة كما ينبغي أن تكون، يمنحه أحيانا بعض الطعام، هو الذي حافظ له على حجرته في أحد شوارع بين السرايات، هو الذي عرفه على كمال إسطفانوس، ورغم كل الصفات المريرة التي يطلقها عليه، فهو لايمكنه تخيل الحياة دون وجوده، وأمينة نفسها تعلم ذلك جيدا ولكن علاقتها برمضان علاقة أخت بأخ لاتراه ولا تكاد تعرف عنه شيئا، وهذا الأمر يعد من مصائب الحياة تقريبا في (قاف)، كثير من الأخوة لايعلمون شيئا عن أخوتهم فتتبعثر كل العلاقات التي خلقتها البشرية عبر آلاف السنوات، أما مسألة ذاكرة فتحي فهناك بعض الشواهد التي تؤكد بأن المسألة كلها تم حشوها في ذهنه، حشوا علميا ممنهجا، كما يفعل أساتذة الجامعة تمامًا في طلبة الجامعة فيقتنعون بتلك الكلمات الفارغة التي يرددونها أمامهم كالببغاوات!

ومعنى ذلك أن كثيرا من حوادث هذه الرواية غير حقيقي بالمرة، الشيء الذي يجب أن أتوقف أمامه في حكاية فتحي حادثة صغيرة للغاية ذكرها عرضًا، وهو أنه كان يمكنه أن يغير أجهزة الكمبيوتر كل عدة سنوات، معنى ذلك أنه كان يملك مالا ما، وهو ماقد ينفي تأكيدي بأن حوادث هذه القصة حقيقية كلها، لكني أؤكد بحكم انتمائي المهني أن ذلك كله مختلق، تمامًا مثل عالم المعلومات المختلق الذي أقوم بتدريسه في الجامعة، فلا شيء حقيقي بالمرة، وهو مايعيدني لنقطتين ذكرهما فتحي في الرواية،

النقطة الأولى تتعلق بأفكاره عن عالم ميدان التحرير.

والنقطة الثانية عن الكلب الذي يبيض ومنطقة بين السرايات، ميدان التحرير لايختلف عن ميادين دول العالم الثالث التي زرتها واكتظت برجال الأمن، هذه الحقيقة المؤكدة، ومنطقة بين السرايات لاتختلف عن بقية مناطق كثيرة من الدول العربية والإفريقية التي ترتع في الفقر، أما الكلاب التي تبيض فإنني أؤكد أنها الحقيقة المؤكدة التي في الرواية، وهذا أمر طبيعي حين يتحول الوطن لسلخانة باسم "المستشفى الكبير للأمراض العقلية"!

إذن فتحي كان يبحث عن المفتاح الرئيسي لعودة ذاكرته، لكنه لم يكن بعيدًا عن الطريق، ربما على أحد القراء أن يدله، ولا يمكنني أن أدله شخصيًا لأنه لايعرفني تمامًا!

لم تكن الدولة هي التي قامت بتعذيبه ليترك حبيبه، فالدولة ليست في حاجة لأن تفعل ذلك بهذا الشكل الفاضح، صحيح أنها تتخلص من المثقفين على اعتبار أنهم ليسوا أكثر من صداع في رأسها، وقد دفعت إليهم بمن يزيل هذا الصداع نهائيا، ليس مثلما فعلت ألمانيا مثلا في الحرب العالمية الثانية فمهدت الطريق لجوبلز لكي يقوم بالواجب معهم، وهذه بالطبع طرق كلاسيكية وفجة قديمة، الآن الأمر مختلف، فالدولة تمهد الطريق فقط لوضعهم في سلال المهملات، التخلص مثلا من المثقف يتم حاليا عن طريق كسر العين، وفتحي كانت له تلك المحاولات في الكتابة فيما مضى، وكان من المدركين جيدا لأهمية الاشتراكية وبسقوط الاشتراكية سقط يقينه، لقد اختار غورباتشوف وأمير الطابق

السادس والعشرين - الذي لم يره على الإطلاق - اللحظة المناسبة لينكلا به، أحدهما نكل بعقله، والثاني نكل بجسده، لكن من نكل بما تبقى منه، بشرفه على الأقل؟، ولأن حبيبته كانت مثالا رائعا للجمال وهذا هو سر احتفاظه الدفين بكتاب أميرة الثلج، وبتعلقه به، إنه يذكره بشيء ما لايمكنه أن يدركه تمامًا، لكنه أصبح متعلقًا به، كانت حبيبته تمثل هذا الجمال الخالد الذي يمكن أن يطمع فيه الكثيرون، فقد تخيل أيضًا مثلا أنه ذات يوم رآها أحد الأمراء الذي قرر أن يتزوجها، أن يحصل عليها بأي ثمن، كان الثمن هو رشوة فتحي وهو مالم يحدث لكنه قابل للحدوث على أية حال، بهدف التخلص منه، وهو أمر طبيعي يحدث الآن كثيرا، أو أن يسلك الأمير الطريق الثاني الذي تخيله أيضا، الطريق الأكثر تأثيرا، لقد قام بخطفه لعدة أسابيع، ثم تعذيبه فيها، وحقن رأسه بتلك الأفكار، حيث تم تخليصه من إحساسه بالرجولة لذلك هو دائم السؤال عن الشرف، وهو أمر تكرر من قبل أحد أمراء المخدرات المعروفين والذي حاول إنهاء حياة أحمد عدوية بعد أن غنى "راحوا الحبايب"، كأنه كان يعلم ما الذي سيحدث تمامًا، فكان يغني هو أيضًا "سمر واين"، هل هذا تفسير مقبول، لا أعلم؟، كما أنه تم ترسيخ مسألة أنه باع حبيبته فيه، لذلك هو أحيانا يصل لتلك النقطة، لكنه يتخيل أنها الدولة والأمن هما اللذان فعلا فيه ذلك، بينما الحقيقة أن الأمور تطورت كثيرا عن ما كتبه صبري موسى في حادث النصف متر، لذلك فإن عداء فتحي للآخرين واضح تمامًا، إنه يكره الجميع ويكره نفسه،

وجنته كلها انحصرت في عالم المعلومات، جنته التي يراها دائما، ويكرر مشاهدتها بنفس الترتيب على شبكة الإنترنت.

هل هذه نهاية ملفقة لكي أجلو الحقيقة، إنها تبدو كذلك للوهلة الأولى، لكن إن تم إمعان النظر فيها ستجدون أن الأمر يستحق النظر والتمعن بالفعل، الفقر والقمع متلازمتان يدفعان البشر للتهاوي والسقوط كأحجار الشطرنج حين تأتي النهاية، حين ينتهي الدور الوحيد لك في لعبة الحياة، حين يجردك النظام من كل شيء، حتى من القدرة على الخيال، يمنحك النظام خيالا دائما بائسًا، فتتحول لقطعة شطرنج فقط تلهث خلف الميكروباصات ويتعافى عليك مجتمع المعلومات، ستجد تلك الكائنات التي تطمع فيك، كأنها حرب مستمرة بين الصقر والجرذ والفخ الآلي الذي يمكنك أن تقع فيه، إن سقوط الحياة كان موجودا قبل فكرة الحياة نفسها، الحياة تحتاج لمقومات تدعمها، إن انتفت هذه المقومات يصبح الأمر نوعًا من السريالية التي نعيشها فنفسر الأمور كما نهوى، ونستمر في الحياة بأنفاسٍ مترددة، إنها تلك المعاناة التي نعيشها جميعا ونحن نلهث بحثًا عن المقومات الأساسية وحدها، فلا نرى الحياة على حقيقتها، نحن محصورون في تلك البيوت الواطئة الباردة والرطبة ووميض مصابحها الخشن وتمردنا الوحيد يبنى على ارتفاع فكرة الوجود لدينا وازدهارها، هذه الفكرة التي لاتتحقق إلا بالكتابة، فحين يكتب فتحي فهو يبحث عن تحقيق وجوده، أعلم أن هذه الجمل جافة للغاية، وهي تحتاج شروحا أخرى، ربما أوفرها في مكان آخر وربما لا، لكن كل شيء تم

شرحه فيما سبق من صفحات امتلأت بالكذب والدهاء والتخيلات.

ما الذي يمكن أن أضيفه أيضا، لا شيء الآن، وقد تكون هذه نهاية غير منطقية لأحداث غير منطقية، يمكنك الآن عزيزي القارئ أن تتوقف عن القراءة وتفكر معي في تلك النهاية، هذه النهاية لبعض القراء، أما النهايات الكلاسيكية فستأتي في الصفحات التالية، هذه كش ملك الإجبارية الأولى التي أتركها أمامك، يمكنك الآن أن تستريح وتتوقف وتنام نوما هادئا، ويمكنك إذا كنت من أصحاب النهايات السعيدة أن تستكمل الحركتين الاجباريتين التاليتين لأن الملك قد مات بالفعل، لكنه لايصدق، مثلما يفعل "المسكوت عن اسمه الماسك في الكرسي"، يجب أن يدرك أنه مات بالفعل، أو حين يعتقد بأنه تحكم في كل شيء، أقوى الأقوياء من المتحكمين هو الذي يظن أنه في لحظة ما، لحظة ما من عمر الزمن يظن بأن ما يسوقهم ضعفاء وميتون لا محالة، وأن اللعبة ستسير كما يهوى هو، هنا تكون الخطيئة الكبرى قد حدثت، وهنا دائما وعبر دراسة التاريخ السري لأهل طيبة، غالبا ما يقع المتحكم في هذا الخطأ، وهو لا يتعلم أبدا ولن يتعلم، أن الصمت أسوأ أشكال العصيان، ربما يكون ماذكرته أيضًا نوعا من الكذبات التي تمت مداراتها بمنطق يصعب رفضه، كذبات تجعل القارئ يتشتت بحثا عن الحقيقة، ولأني أحب هذا القارئ فإنني قد حاولت التدخل، وهو تدخل هادئ من أستاذ جامعة يعشق الخيال والحرية كما يدعي!

الفصل التاسع عشر

كش ملك

الحركة الثانية

أفسح الضابط النوبتجي لعيسى المكان لكي يبيض بيضته، جلس عيسى إذن على الطاولة وحاول، حاول بكل مايملك من قوة أن يبيض تلك البيضة اللعينة المقدسة أيضًا، لكن ذلك لم يحدث، فما كان منه سوى أن طالب كل من بالغرفة أن يحاول مساعدة عيسى على الإتيان بتلك البيضة، دفعهم بقوله صارخا،

" يللا ساعدوه.. انتوا هاتقفوا تتفرجوا"،

كانت الكلمات التي تخرج من أفواههم لمساعدة عيسى ممتلئة بخوف مكتوم، لقد أدركوا الآن المأزق الذي وقعوا فيه جميعا، كانوا من داخلهم يسبون الشيخ ذا المعطف الأخضر والشعيرات النابتة في ذقنه كسافانا إفريقية، الشيخ الذي أوقعهم في هذا الموقف المثالي وكان الكلب الصغير جالسا الآن على قائمتيه الخلفيتين الصغيرتين يبتسم في داخله، على الأقل لم يعد هو المطلوب منه الآن إخراج تلك البيضة، كان يهز ذيله في مرح، حين دخل مأمور القسم، كان المشهد يبعث الآن على الضحك، كل من بالمكتب يحاولون مع عيسى أن يبيض، لم يعد هناك من هو

مفصول عن المكتب الذي يجلس عليه عيسى، بينما تتصاعد الصرخات والابتهالات لعيسى أن يأتي بتلك البيضة، المأمور نفسه لم يستغرق أكثر من دقيقتين ليطلب من عيسى أيضًا تلك البيضة، فيما قفز الكلب الصغير، وانسل خلف صاحبه ذو المعطف الأخضر، وفجأة رن الهاتف المحمول للمأمور، كان الصوت من الناحية الأخرى واضحًا، طلب منه الصوت نقل الكلب والشيخ ذا المعطف الأخضر إلى أحد القصور القديمة التابعة "للمسكوت عن اسمه الماسك في الكرسي"، كان الأمر حاسما ومفاجئا، وتم إنزال ستارة المشهد بسرعه فعاد عيسى للقفص وخرج الشيخ وكلبه مع المأمور الذى بانت على وجهه إمارات الانزعاج، وتوقف الضحك في فم الضابط الصغير، بينما تم إيداع المرأة العجوز والشاب والفتاة الحجز لحين انتهاء التحقيق في المسألة، ومعلوم في طيبة أنه إذا بدأ تحقيق في قضية ليس لها أصل، فإنه لن ينتهي على الإطلاق، سيستمر للأبد، وكانت علامات التعجب ترسم دوائر كثيرة.

لم يترك لي قرين السيد زين عبد الهادي الفرصة لأتحدث، "أنا ياسادة الكلب الأسود الصغير الذي عليه أن يبيض تلك البيضة المقدسة التي يتحدث عنها سيده ذو المعطف الأخضر، كأنه ولي أحلام جديد لهؤلاء الناس الذين يتكاثرون حولنا كضفادع برك الماء التي ألاعبها حين يتركني سيدي قرب قناة الماء التي ينام بجوارها حين يشتد القيظ هو هو.."

" هو .. هو.. سيدي ليس مجنونا، وأنا لست كلبا يبيض،

المسألة ومافيها أنه أيضًا حلم ذلك الحلم بأنني أبيض، ويبدو أن ذلك قد وقر فيَ وجدانه، وإذا شرحت الأمر كاملا فإن سحر البيض سوف نفقده جميعا، ولذلك سأدعي أنني أخرجت للحياة بيضة صغيرة ذات ليلة منذ آلاف السنين وكانت تلك الليلة هي ليلة تعميد ملك طيبة، منذ هذا التاريخ أصبحت سلالتي سلالة مقدسة، أعيش مع كاهني، سلالتين التصقتا ببعضهما منذ هذا التاريخ، لكني لست متأكدا الآن إن كانت بيضتي أو كانت بيضة مخلوق آخر يطير بجانبي فسقطت منه، لكني على يقين أيضًا أنني يمكن أن أبيض، الديناصورات نفسها كانت تبيض والبيض يفقس، ربما على بعض علماء علم الحيوان ومعهم نخبة من علماء الوراثة عليهم أن يبحثوا جيدا في تاريخي الأسري نظرا لانتمائي لنوع من الكلاب النادرة، فلاتحسبوا أنني مجرد كلب بلدي شموطي زلوطي، وإنما أنا أنحدر من سلالة أصيلة، لكن من المؤكد أنه كان في هذه السلالة من يبيض منذ ملايين السنين، واستمرار البيض من عدمه مسألة تتعلق بصفة وراثية أصبحت متنحية الآن، يمكن إعادتها بشكل علمي تمامًا، المهم ماأرعبني حقيقة هو هذا الضابط بالقسم الذي أصر على بيضة السيد عيسى، ربما كنت مؤهلا بحكم انتماءاتي التاريخية لأن أبيض، ربما في دولة مثل "قاف" يمكن لبعض البشر أن يبيضوا بحكم الممارسات والضغوطات التي يمكن أن تمارس عليهم، وأعتقد أنه جائز في مثل حالتهم والضغوط التي يقعون تحتها أن يبيضوا أيضا، ومحاولة صديقي ذى المعطف الأخضر قد تجدي نفعا يوما ما،

بحكم أني مازلت صغيرا، كان الهواء اللطيف يداعبنا على القطعة المقدسة المسماة كوبري قصر النيل، وهي دائما كانت أرض ميعاد تلك البيضة، كان الزحام قد بدأ يخف، وكنت أشعر بأن زمن البيضة قد أتى!.. هو.. هو"

" كانت العربة التي نركبها أنا وصديقي الكبير ذو المعطف الأخضر، بالأحرى الكاهن الفرعوني، الذي يملك القدرة على التحول إلى كاهن، أو شيخ، أو قسيس، أو رجل من الطرق الصوفية، أو حتى أحد الرهبان الذين يعيشون في الصحراء، دائما ماكان كذلك، إنها مهنته الوحيدة التي يدركها والتي يستخدمها دائما في مساعدة الآلهة، أو الحكام الذي يأتي بهم الزمان، سواء كانوا آلهة للشمس أو القمر، أو للنهر، أو حتى لمضاجعة النساء، مر على قاف آلاف منهم، إنه يساعدهم دائما في تحويل أحلامهم الواقعية في توريث الحكم إلى ابن من أبنائهم، هذه حقيقة الأمر، ولايمكن أن يتم ذلك إلا من خلال تلك البيضة التي آتي أنا بها، هذا التحالف القدري بين رجال الحكم وبين الكهنة القدامى، لم يتغير يوما ما، منذ بداية التاريخ غير المكتوب حتى الآن، لايمكن التوريث إلا من خلال تلك البيضة، وفي قاف لايمكن التوريث إلا من خلال تلك البيضة، فهي التي يجب أن تأتي لكي يأكلها الوريث، وإذا أكلها الوريث فإن القدر يمنحه القدرة على استتباب الحكم لأسرته ولقرون طويلة، هذا هو المكتوب في لوحنا المحفوظ، وإذا لم يتم ذلك، فإن القدر يأتي بأحد أفراد الشعب لتعاد الكرة مرة أخرى، هذا الكشف لكم أنتم فقط، أنتم فقط يامن تقرأون

وتفهمون وتدركون، أنا الكلب الصغير الذي يمنح الوريث القدر.. هو..هو.. هل فهمتم الآن!"

" إن جمجمة الملك التي عليها الكتابة، صحيحة لايمكن الشك فيها، وجودي ذاته يعود إلى ما قبل تلك الجمجمة، لكن الملوك لا يفهمون دائما، لا يفهمون أن الحياة مهما أعطتهم فإن هذه العطية تتم بشروط، الشروط لايدركها أحد غالبًا، غالبًا ما لا يلتفتون للشروط، الشرط الوحيد أن تتمسك بالشرف حتى لو منحت الملك لوريث، لكن مسألة الوراثة مسألة لايحكمها الشرف على الإطلاق، كانت العطية تحمل في ذاتها نقيضها، لكنهم لايفهمون، الآن علينا أن نمنح الوريث الجديد بيضته الخالدة.. هو هو"

" ليس من حقي أن أتكلم كثيرا فيما أعاني من مخاض ظهور البيضة، كل رئيس يأتي يعلم ذلك، هذه الوصية التي أحملها وحدى ويعلمها سيدي، أنا الكلب الأسود الصغير سيد القدر، وحامى حمى التوريث في طيبة منذ مينا وحتى الآن، انقطعت عنكم ستين عاما، وهاأنا آتي إليكم ياأهل طيبة الكرام، أمنحكم القدر، فماذا أنتم فاعلون.. هو.. هو.."!

الفصل العشرين

كش ملك

الحركة الأخيرة

(إلى ذكرياتي التي لم تتعلم أبدا أنها مجرد تاريخ)

(١)

يكمن شرف قطعة الشطرنج في صندوقها حين تسقط في النهاية على الرقعة، فقد فشلت في حسم نتيجة المعركة لصالحها، بعد أن تخوض كل التمردات الممكنة وكل الاستراتيجيات المحتملة يكون الأمر الحتمي أن تلقى في النهاية في صندوقها الخشبي، لن يطول الزمن كثيرا وستلحق بها القطعة المنتصرة، لن يطول! هل كنت مخطئا؟!

(قاف) تغيرت..

وأنا تغيرت..

كان الغضب يتسرب أيضًا خارجي ولم أكن كذلك قبل الآن.. ولم أكن أعلم أن نظرية الطفو التي اخترعها أرشميدس يمكن أن تطبق بحذافيرها حتى خارج العلوم التطبيقية لتصبح لها واقع اجتماعي بائس وقميئ.

أما حبيبتي فقد نسيتها.. أدعي أنني نسيتها.. أدعي بنية خالصة لوجه الله تعالى أنني نسيتها.. بعد معركتي الأخيرة معها، معركتي التي لم أخضها معها على الإطلاق، لم أرها بعد ذلك، لكنها تعلقت بذاكرتي، لم يكن بذاكرتي سواها، كنت ألاحقها على شبكة الإنترنت، ألاحق اسمها وصورتها وروحها لو استطعت، ألاحق كل شبيه بها، ألاحق وعيي الذي يتسرب مني، ولم أكن أعتقد أبدا أن ذلك يمكن أن يساعد في إيقاف نزيف ذكرياتي التي لم تتعلم أبدا أنها مجرد تاريخ.

وكان أسد قصر النيل هو الوحيد الذي يقف أمامي في غباء شديد.. يتحداني أن أغير شيئا في الواقع.. لم يكن هناك بد من تكسيره، كانت الحرب معلنة الآن بيني وبينه، بيني وبينه فقط!

(٢)

لقائي الأخير في بين السرايات كان مع مجنونها الجديد، كان طويلا يقف على ناصية أحد الشوارع، شعره المفلفل ووجهه الصغير وقامته الفارعة والبنطلون الجينز الذي يرتديه والمعطف الجلدي الرخيص وكلب بلدي صغير يسير بين قدميه وكان هذا عجيبا في ظل اعترافي بانتهاء عهد الكلاب البلدي، كما كانت هناك أضواء شتى تتلاعب على وجهه الأربعيني، طأطأ رأسه وهو يتقدم نحوي بخطى ثابتة ويطلب مني بكل تواضع أن أمنحه ربع جوند، ربع جوند فقط من أجل العشاء، ثم توقف لحظة وتلفت حوله وهمس لي "لاتعتقد أنني مجنون.. لكني في حاجة فعلا إلى

الربع جوند" .. لقد فاجئني، فاجئني تمامًا، وكنت أتساءل هل يعلم المجنون أنه مجنون، ألا يظن بعضنا أن العالم بأكمله مجنون ونحن العقلاء الوحيدون، لا أدري لماذا أحسست بأن هذا الماثل أمامي هو التطور الخلاق الطبيعي لكل ما مَرّ على بين السرايات، لم يكن في مقدور بين السرايات أن تنسى نبلاءها الذين منحوها تاريخا عظيما مضمخا بالفكاهة، الآن أدركت أنه عقل هادئ يمنحنا بشكل مختلف مجموعة من المقدسات التي ستظل محفورة للأبد، ثم مضى بعيدا عني في ترفع كأنه لاينتظر هذا الربع جوند، ابتسمت أنا الآخر وأنا أسير خلفه لأمنحه مجموعة كبيرة من الجوندات التي أعلم أنه سيلقي بها في جيبه دون أن ينظر إليها، لكن ابتسامته هذه المرة كانت أوسع الابتسامات التي رأيتها، وكان الكلب البلدي الصغير الذي يجري بين قدميه يبدو كنجمة قديمة يعاد نسخها لتمنح المدينة شبابها القديم، كان المستقبل إذن لايفكر على الإطلاق في التخلص من هؤلاء العلامة المسجلة!.

(٣)

كان يوم الوقفة الاحتجاجية المقررة سلفا، عبر الإنترنت علمت بذلك، كنت أشعر بأنني يومًا ما كنت أقف هنا، نفس الوقفة التي نحمل فيها تلك الأيقونات، جميع الكتاب الذين قابلتهم يقفون هناك خارج دار الأوبرا، يواجهون الأسد الواقف على الناحية الأخرى من كوبري قصر النيل، كانت همهماتنا مختلطة بأصوات رجال الأمن المركزي، كنت أرى راشد وسعد عابد حتى عم علي

الكناس وسعيد حرامي السمك والفراخ وشبح عم حسن العطشجي الذي كتب ثلاث روايات تفيض بالرومانسية التي يجدها في القطارات القديمة، وعم أحمد سعد صاحب الآلة الكاتبة وموسيقى الرجاءات، حتى عم كمال إسطفانوس وأخي رمضان سائق التوك توك وخليل الحارس، وغيرهم العشرات كانوا يمثلون كل من عاشوا في العواصم الأربع تقريبا، يقفون صفا واحدا في مواجهة الأمن المركزي، كأني كنت أسمعهم "لن نبيض"، كانوا قد تحولوا في نظري لمجموعة من بيادق الشطرنج المتماسكة، كأنهم قطعة واحدة، كأنهم حصان مثلا على رقعة الشطرنج، حصان يصهل، يصهل بعنف، أو شيء من هذا القبيل، وكانت الفأس القصيرة الملفوفة في ورق (الدستور) في يدي، كنت أتوجه إليه متطلعا في عينيه الغبيتين، كان الحماس والضغينة يملآنني ككأس امتلأ حتى الحافة فبدأ السائل يتسرب خارجه، كان كل شيء في تلك اللحظة يتسرب خارجي، أصبح وزن السائل المزاح أكبر من وزني واحتمالي، كان علي أن أتفجر، لم يعد مهمًا الآن أن أتذكر ما حدث، وكيف حدث، كيف تركتني حبيبتي - مللا مني ربما- للزواج من رجل آخر بملء إرادتها، وكيف اختفى عبده "مَرْحَبَا" أمام مصعد الدور السادس والعشرين هو وبناته وأسرته بأكملها، ولم يعرف أحد عنهم شيئا، كأن اختفاءهم قدر يتصالح معنا، وكيف احترق الطابق السادس والعشرون برمته (أيضًا ليس هنا معناها كله بقدر معناها الثاني الذي ذكرته في مقدمة الرواية) وكيف قامت أختي بالعودة بملء إرادتها لزوجها الشاذ جنسيا،

وذلك حين وجدت أن العالم أكثر وحشية من عالم زوجها الشاذ خصوصًا بعد تحالف أخي الأكبر معه وفق نظرية المصالح المشتركة، وكيف أصبح أخي شريف وكيل أعمالهما الجديدة، ثم كيف أصبح أخي الأكبر وزيرا للصحة، بعد أن كان يجري عمليات الترقيع والإجهاض وإزالة شحوم الأغنياء، وكيف أنشأ مستشفى باسمه، مستشفي كبير، وكيف ترك كمال إسطفانوس البلد كلها، وذهب للولايات المتحدة، تراسلنا عبر الإنترنت لأيام ثم اختفى، لأجده واقفا أمامي بعد شهرين بالتمام والكمال، كان يبتسم في وجهي حين منحته أنا سيجارة حشيش محترمة، حشيش اشتريته بنقود هناء وغيرها، اشتريته بنقود هناء التي تأخذها من الأمير القابع في الطابق السادس والعشرين، أو ربما من غيره، لم أعد أهتم بتفسير كلمة الشرف، فالشرف مصطلح داخلي تمامًا، لايعني شيئا في ظل عمليات مستمرة وسريعة لاقتلاع الشرف من كل أهل طيبة، أهل طيبة الذين يختفون في الظلال وغابات البشر وفي مؤخرات العربات وفي ظلام البيوت والحارات وفي بطاطين القطاع العام وطوابير الخبز المحشو بالمسامير، وطوابير التموين للحصول على السكر والزيت، وطوابير المرتبات الهزيلة أمام البنوك، وطوابير الميكروباصات والتكاتك، وطوابير البطاقات المدنية التي افتكستها الحكومة، وطوابير الهم والغم أمام موظفي الحكومة، وطوابير أمام الحكومة الإلكترونية، وطوابير أمام مستشفيات السرطان والكبد والقولون والكلى، وطوابير المدارس الحكومية القاتلة، وطوابير أمام أقسام الشرطة للاعتراف بأنهم لم

يسرقوا أحدا هذا اليوم، وطوابير أمام شيوخهم للحصول على بركاتهم، وطوابير أثناء نومهم في غرف لم يرد ذكرها في التاريخ، وطوابير الإفطار في رمضان، وطوابير دخول الجيش، يفعلون كل ذلك برضا لكنهم يراقبون في صمت موعد اندلاع الحريق!

كان عم الحاج كمال إسطفانوس يضحك وأنا أناوله سيجارة الحشيش الضخمة، يضحك، يضحك ويهتز وكنت أضحك معه ونحن واقفان فوق الدور السادس والعشرين نفسه في تلك الليلة، سألته من فوق أعلى مكان في قاف، ما الذي دعاك للعودة لقاف مرة أخرى بعد أن قررت الهجرة؟، استمر في ضحكه قائلا،

"أنا رجل مجنون، كرهت الضباب، هناك لم أر الشمس في المدينة مدة شهرين، حين ظهرت قررت العودة، "قاف" أم الدنيا، سألته، هل أنت غاضب لعودتك ياحاج كمال، ضحك قائلا إنه ليس غاضبا لكنه يشعر بالقهر، القهر من "قاف"، "قاف" التي لم تمنحه أبدا مايستحقه، لقد عمل كثيرا دون أن يحصل على مايستحقه، وحين هاجر لم يستطع الصمود أكثر من شهرين، ضحكت طويلا وأنا أردد،

"ياحاج كمال لامسيحي ولا مسلم في "قاف" حصل على مايستحقه.."

ضحك طويلا وهو يتطلع نحوي وقال أخيرا،

"عندك حق يا فتحي.. عندك حق"

ثم ساد الصمت بيننا وفي الصباح كان الدور السادس

والعشرون يحترق كله دون أن يصل أحد للفاعل الحقيقي، كانت الأضواء الجديدة للحريق ترقص فوق سطح النهر، رقصت ساعات طويلة، وكنت أعلم جيدا بأن الدور السادس والعشرين في الفندق لن يعود أبدا كما كان، الغريب أن كل الوجوه هذا الصباح كانت تضحك، تضحك رغم الخسارة الهائلة التي ستعود علينا جميعا!.

(٤)

خرج لنا العميل الإنجليزي الأريب بالجزء الأخير من الكتابة التي كانت موزعة على الجماجم، نشرها على أحد مواقع الإنترنت، ولم يستمر نشرها سوى عدة ساعات ثم أزيحت من هناك وقيل أن "المسكوت عن اسمه" اشترى الموقع كله، وقيل أيضًا بأن بعض الهاكر الحكوميين سطوا على الموقع، وقيل أيضًا بأن هذا العميل مدسوس على طيبة من تنظيم (القاعدة)، المهم استطعت التقاط بضعة سطور منها وكانت كالتالي،

سيستيقظ الميتون.. الأحياء

ثلاثة من الشرفاء

سيخرج منهم ألف..

وسيخرج من الألف مليون..

سيقومون ....

....

....

....

بعد ان تمتلئ بالملح و الشقوق

تزهر البردى

لتعود المدينة من جديد

....

....

وقيل بأن السطور المنقطة هي كلمات غير ظاهرة ولايمكن حل طلاسمها، كانت النبوءة جاهزة، لكنى متى تتحقق، لا أحد يمكنه التنبؤ!

(٥)

"ميفان"، تودون أن تعرفوا ماحدث؟، أليس كذلك، حين انتظرت أكثر من أربع ساعات بالمطار، عدت خائبا، جلست على الإنترنت لأجد منها رسالة، تعتذر لي فيها عن عدم استطاعتها مقابلتي في المطار حيث ينتظرها، أحد ما، لم تذكر من هو، لكنها قالت إنه سيأخذها إلى قصره الملكي هناك، لاأدري لماذ انقبض قلبي، كان ذلك آخر عهدي بها، لم أدرك أبدا أن حاسبي مراقب من"العياذ بالله"، وأن كل ما أفعله مراقب، وأن أفضل الأشياء كانت دائما هي أن لا أفعل أي شئ، هل كانت ميفان مجرد حيلة لإلهائي عن الطريق، لم أعلم ذلك ابدا، لكنني لا أملك سوى الشك فيه، بعد استتباب الأمر لذاكرتي، كان علي أن أؤمن بأن "ميفان" كانت صناعة "العياذ بالله"، كنت مدفوعا إلى اليقين بذلك بسبب هذا

التماثل الخرافي بينها وبين حبيبتي، كأنها هي، كأن الأمر المقصود منه القضاء على ذاكرتي قضاءا تاما، واثبات جرم الخيانة الذي لم يحدث، هكذا ولدت "ميغان" وهكذا انتهت دون تأكيدات من جانبي مجددة، أو هكذا أعتقد، شكي دفعني للظن بأنها ستظهر يوما ما، ربما ليس لي، ربما لأحد آخر لتقوم بنفس اللعبة المجيدة!

(٦)

أما كيف ابتسمت أو عبست الحياة لأخي "رمضان"، لأن حياة التوك التوك أصبحت هي الأخرى جحيما لايطاق، خصوصًا في ظل مطاردات الشرطة من جانب والإتاوات التي يفرضها عليه البلطجية من جانب، وازدياد عدد سائقى التوتوك من جانب آخر، كيف يمكن لقطعة اللحم الطيبة تلك أن تعيش دون أمل، أي أمل في حياة أفضل، يستمر في الجلوس على المقهى، يأكل البقسماط بأن يغمسه في الشاي، ويلتقط حبات السمسم، يترك لحيته مرة، ويحفها مرة، يقود ميكروباصا قديما مرة، ومرات يقود التوك توك في حواري "قاف"، تطارده زوجته أحيانا ويطاردها هو أحيان أخرى، لم يكن أحد معنيا به، لكنه كان سعيدا بشكل أو بآخر كحالنا جميعا، كان طعم الحياة في فمه هو كل ذلك، لكنه أدرك أيضًا أن هناك في الحياة خصما ما، خصما قاتلا، كيف أدرك ذلك، لايمكن أن يتم ذلك فجأة، وشعوره بالحياة الزائفة التي يعيشها لن يختلف كثيرا عن شعوره بالموت الذي ينتظره في كل

ركن من أركان الحياة، كان يستمع لكلماتنا ويرددها، يستمع للجميع، يحاول أن يدرك طبيعة هذا الخصم الذي يقف بعيدا غير مبال بكل مايحدث، لم تفلح المطاردات الكثيرة التي تعرض لها في دفعه للسكون، كان يغلي على طريقته، يحاول أن يعيش في المستنقع الذي اختاره له القدر، حتى المستنقع نفسه كان يمتلئ بالثعابين القاتلة التي تتبع نظام"المسكوت عن اسمه"!

(٧)

كيف نجحت أميرة المنيل في كسب الانتخابات بروشتة "قرني"، وكيف اكتشف قرني وأنا معه أن كل روشتاتنا خائبة، وليس لها علاقة من قريب أو بعيد في نجاح عضو ما في أي انتخابات، كان القانون المقدس الذي فرضه "المسكوت عن اسمه الماسك بالكرسي". وخليفته المنتظر هو أن النجاح في الانتخابات مكفول بموافقتهما، وأن قيمة النجاح تبلغ مليونين من الجوند الأمريكي المسمى أحيانا بالدولار يدفعهما المرشح، وهكذا اكتشف "قرني" أنه ليس أكثر من يافطة، وهناك مصطلح بلدي يلقبون به هذا النوع من البشر بلقب عبقري حيث يسمونه "كَحُول" مراية أعني، وكنت أعتقد أنه يعلم ذلك مسبقا لكنه لم يكن مهتما، كان مخلصا لما يفعله، وحين أدرك هذا المساء بأن الأمر كله لم يكن أكثر من لعبة هو أحد عرائسها المختارين بعناية، ثار، قال لها أنه يفعل ذلك من أجل الشعب، لكي يحصل الشعب على جزرته من الانتخابات، كان الخلاف على عدد النساء الذين سيذهبن للعمرة،

أصر "قرني" على سفر ٥٠ امرأة، قالت الأميرة إن ٢٠ فقط فيه الكفاية، قال لها بأنه لو رجع عن وعوده للناس فإن الأميرة ستسقط في الانتخابات، قالت له إن الانتخابات النجاح فيها ليس بيده أو بيدهم، وإنما بيد كبار حاشية "المسكوت عن اسمه" وأنه ليس أكثر من أراجوز انتخابات، حين واجهته أميرة المنيل بالحقيقة، ثار في وجهها، حين قالت له بأنه ليس أكثر من أراجوز ينفذ فقط ماتطلبه، انفعل وكنت أقف بالخلف، انفعل وأرغى وأزبد وثار وقال أنه ليس أراجوزا، وأنه لن يكون أبدا أرجوزا، كنت ابتسم حين ألقى بنا حراس الأميرة للخارج، وأنا معه، كانت ليلة سوداء، أدركت تلك اللحظة أن عهدنا مع الانتخابات أصبح على كف عفريت، قال إنه في الصباح سيذهب للشوارع لكي يقول للناس الحقيقة، تركته وذهبت للفندق، في الصباح ذهبت إليه، حين خبطت الباب طويلا لم يرد، ناديت على سكان المنزل، كسرنا باب الشقة، كان قرني يرقد هناك وسكين عمياء تقف منتصبة مخترقة صدره، كان غارقا في دمائه، كنت أصرخ وأنا أحاول إفاقته، مات قرني على طاولة الجراحة، كرغيف خبز معبأ بالقمح المسرطن وبالمسامير الموصى بها، يرفضه الجميع ويعشقونه ويتهافتون عليه في ذات الوقت، انتهت بنهايته سلالة أصيلة من باعة الانتخابات دون أن يترك وراءه وريثا ما من أي نوع!.

تزوجت أميرة المنيل عضو مجلس كبير ثم قيل إنها تركت المجلس، وانتهت علاقتها بالشعب، الشعب الذي طلب منها وهو يبكي أن تستمر، لكنها كانت قد قررت الانضمام لجحافل من

يقتلعون العيون والشرف، اختارت الانضمام لكل من يحرقون الشرف في "طيبة"، اختفت على سرير أحد هؤلاء الأعضاء الأعزاء الذين لم يتورعوا عن ذبح كل من يخالفهم أو يتخيل أن هناك من يمكن أن يحميه، كان السرير فخما وكانت البائنة عظيمة، لكن المكلومين كانوا كثيرا، أكثر مما يمكن تخيله!.

(٨)

في تعلم البيانو، كنت على يقين من أنني سأستطيع تعلم عزف البيانو، كانت الدروس الأخيرة مثمرة إلى حد كبير، لم تكن المشكلة في أصابعي الغبية، كانت المشكلة في أذني، في عدم قدرتي على التواؤم مع منهج الموسيقى في التعلم، المنهج أصل كل الأشياء، أجدت المنهج، يعني أنك أجدت التعلم، فعلتها فجأة حين بدأت أقوم بالتركيز، كنت أذهب طاردا لكل أفكاري ناسيا حياتي السابقة، أريد أن أعزف بيانو دون ذكريات وضيعة أو حالمة، دون فلسفة من الآخر، حين عزفت طلعت يامحلا نورها لسيد درويش، رغم كل أخطائي كنت أسمع عزفي وصوت دقات البيانو كأنها صادرة من عالم آخر، وأنني نفسي بأصابعي التي لعنتها منذ لحظات ونعتها بالغباء كنا طائرين يغردان أمام شمس الشفق، أدركت أن علاقتي بالبيانو انتهت، لقد نجحت في تحقيق أمل ما، أمل بسيط وتافه للغاية، لن يهتم به أي أحد، كنت أريد أن أعزفها أمام حبيبتي، بكيت في تلك الليلة وأنا أسير مرتاح البال على الكوبري المقدس دون أن تقع عيني على أي شيء، كنت

متسامحا تلك الليلة، متسامحا فقط مع كل أعدائي، متسامحا مع ذاكرتي حتى الخائنة، سرت حتى الصباح، لأرى ضوء الصباح ينتشر على طيبة، ينتشر دون أوامر من أي أحد بإطفائه.

(٩)

"منال" تركتها ونسيتها عن عمد، فبعض الأشخاص الذين لايتركون تأثيرا ما لا يستحقون الحياة ولا حتى الظهور في الروايات كما يدعي النقاد، "منال" هي التي جعلتني أترك عملي هناك في الإسكان، و"تشي" قطعت رجلي نهائيًا من هناك، كانت الحياة في الفندق هي الباقي لي، وكان ذلك جيدا لأستطيع أن أمارس الحياة على الأقل، عثرت عليها يوما ما تسير مع زوجها الذي كان يشبهها كثيرا، تدافعت نظراتي بينها وبين زوجها بلحيته ووجهه الغليظ الملامح، وقيل بعد ذلك إنها ارتدت نقابا بأمر من زوجها، شكرته كثيرا لأنه منع عن الناس مكروها كان لابد أن يطالعوه كل صباح ولأعوام طويلة ماضية، استراحت هيئة الإسكان من "منال"، ليحتل "شاكر" مكانها ولينتهي تاريخ طويل من العبث، وقيل إن هداياه إلى رئيس مجلس الإدارة لم تنقطع، كانت الحياة تسير باعتيادها الذي لا مفر منه.

(١٠)

في تلك الليلة التي مات فيها "قرني"، استعدت ذاكرتي، حين لطختني دماء قرني، كانت روحه متوقفه على هامش باك للحياة

دون أن أستطيع أن أفعل شيئا، كنت أصرخ، أصرخ بحنجرة قوية، كان "قرني" يغمض عيناه النبيلتان وكنت أنا أخترق آلاف الايام المجهولة والتي تم محوها من ذاكرتي جيدا، تذكرون جيدا أنني حدثتكم عن ياسمين وحبظلم بظاظا في بداية الرواية، تظهر ياسمين لحبظلم بعد موتها، هناك عبر البحر المتوسط في مدينة أخرى، وفي زمن آخر، لقد كرر حبظلم المشهد ذاته لأنه لايستطيع الحياة بدونها، حين تطلعت في وجه حبيبتي القديم، مخترقا حجب ملايين الصور التي شاهدتها على الإنترنت آلاف المرات، وجدت صورة حبيبتي، كانت الدماء تملأ وجهها وهي تنام على الأرض بعد أن اصطدمت بها واحدة من قنابل الدخان في ساحة ميدان التحرير، كنا سويا، وكانت المظاهرة عارمة، كان ذلك أمام ايزائيفتش، وكان جمعة يقف بجانبي يحاول اسعافها معي، سقطت الأميرة واقزامها على الأرض، وسقطت ألف ليلة وليلة، كنت أنصت لصوت أقدام الموت الثقيلة، ولم أكن أرى شيئا آخر، هكذا كان الأمر إذن ولم يكن شيئا آخر، أخذها الموت أمام عيني، ولم تذهب لرجل آخر، بل رحلت لسماء أخرى، كان صوتي يضيع في ضباب دخان القنبلة، لم يكن هناك صوت آخر سوى صوت نحيبي، وهكذا بدأت المدينة تنهار داخلي، ربما أنا أيضا، كانت يداي مخضبتين بدمائها الذكية، آه..

يسحبني بعض الناس، لأجد نفسي في خندق في أحد المباني الباردة المعتمة التي لا تعرف من حروف الهجاء سوى صرخات مكتومة أحيانا مكونة من حرفين فقط هما "آه"، شهور وسنوات

مرت وأنا في تلك الغرفة الباردة لا أبرحها، أشاهد فقط تلك الجماجم الميتة معصوبة العينين، فاقدا لذاكرتي على مهل، محشوا بذكريات جديدة أحاول تصديقها دون فائدة، لم تلائمني على الإطلاق، لكنها كانت بداية جيدة لأبدأ معكم تلك الرواية، أطلقوا سراحي حين لم أعد صالحا للتمرد، أخرجوني حاملا أميرة الثلج وألف ليلة وليلة، عدت لبين السرايات بعد عشر سنوات فقدت فيها الانسان بداخلي، لأتحول إلى واحد من تلك الكلاب البلدي الضائعة، التي تسكن أحراش "قاف" ومناطقها العشوائية.

كنت أرى وجهها في كل الوجوه، هكذا كان الأمر إذن وهكذا انتهى، لماذا حملتها آثاما لم تفعلها، لأنها تركتني هكذا وببساطة للموت، تخلت عني وعن الحياة، تخلت عن الوهم وتركته كله لي، كل الوهم كان لي وحدي، وليس لأحد آخر.!

(١١)

كنت أرى أن هذا الأسد الغبي الذي قبل أن تتبرز الطيور والحدآت فوق رأسه، وأن تمارس الدعارة تحت عينيه، وأن تتمحك فيه النسوة اللائي يردن الحمل، وأن يتحمل دروس الدعارة اليومية التي تجري أمامه من الطيبيات والعربيات والصينيات والأمريكيات وشبكة الإنترنت التي ساهمت إلى حد كبير في إزاحة الهم عن كاهل أهل طيبة في أن بإمكانهم تحريض شكماناتهم العاجزة مع الأجنبيات عبر الإنترنت وعبر الوب كام، أو أن باستطاعتهم مقابلتهن عبر الإنترنت والأتفاق على الأماكن

التي يمكن أن يلتقوا بها، كان المكان المفضل أمام عيني أسد قصر النيل، الأسد الرابع لايمكن أن تخطؤه العين، كنت أدور حوله أتحقق من وجوده في هذا المكان بالذات، كان أنفه شامخا في ابتذال، كل ذلك كان فوق طاقتي، حين سرت بجانبه أنا وراشد أثناء الوقفة الاحتجاجية في الانتخابات الأخيرة، وكان الأسد هناك يتطلع إلينا كأننا غير موجودين، كأننا لانعني له شيئا، كأنه كان يهمس لي بأنه سينجب شبلا جديدا وسيحتل مكانه، وستتكرر مأساة التبرز فوق لبدة الأسد الجديد.

ليس لنا قيمة تذكر لدى هؤلاء، مات "قرني" ومعه ماتت أحلامه، سقط كل شيء بموته، الثراء السريع، وأصبح تزوير الانتخابات لايحتاج لأمثال قرني، يحتاج فقط لصوت "المسكوت عن اسمه الماسك بالكرسي" وإبنه الكريم، المسئول عن ملفات بيع ديون طيبة، وبيع غاز طيبة، وبيع آثار طيبة، وتهريب فلوس طيبة، وبيع أصوات الناخبين في طيبة، هل هناك أسهل من ذلك الآن، هل هذا ما كافحت الثورة ضده، استمرت الثورة خمسين عاما تسرب للناس أخبارا عن السعادة، وحين انتهت تماما عدنا لما تركناه، موت عصر الشرف، وقيام عصر هلامي، عيني عينك، هذا هو المجتمع الرأسمالي الجديد، هل يمكننا الوقوف ضده مرة أخرى، انتهى إيزانيفتش، وليحيا ماكدونالدز، إنها حقبة تتكرر، لن ننتهي من ذلك أبدا، لا أدري سر صراعي مع الأسد الساكن، كنت أقترب بالفأس، وكان الميدان ممتلئا عن آخره بالأمن المركزي، اخترت لحظة غير مناسبة لعمل مناسب..

أردد سمر واين ياكلاب..

سمر واين..

سمر واين..

ولا حتي سمك واين "يافرني".. استجمعت كل أطيافي وتركت لفتحي أن يقوم بتلك المهمة، انسحبت أنا المدعو زين عبد الهادي عن أداء المهمة التي كانت موكولة لي بأمر من مكان ما.. أمر لاحقني في أحلامي، كان يهمس به إلي أحد هؤلاء الأشخاص الذين اخترعتهم، كان يأتي من تلك الجماجم التي تسكن الحفرة التي كان فتحي دائما يحلم بها، همس وفحيح يلاحقني في كل وقت، فحيح تلك الشخصيات المتمردة داخلي، التي تلاحقني في منامي وفي يقظتي بأن هذا هو الأمل الأخير في الحياة، تركت لفتحي الشخصية البعرورية الافتراضية التي اخترعتها أن تقوم بتلك المهمة بدلا عني، كان هادئا تمامًا حين رفع الفأس في الهواء، وكان الشيخ صاحب الكلب جالسا هو و"كلبه" – الذي أظن أنه كلب لكن موائه يكشر عن أنيابه ليقيني، فأظن أنه قط من تلك القطط المقدسة بسبعة أرواح وهو خاصية أصيلة في حياة الشعب الطيبي تركت آثارها عليه– ومعه "المسكوت عن اسمه" في تلك السيارة السوداء التي تسير على مهل في قلب نهر طريق كوبري قصر النيل، كان القط يئن، يحاول إخراج تلك البيضة التي ستشهد مولد" المسكوت عن اسمه الثاني" الذي سيتربع على عرش طيبة، كان الشيخ يتمتم وهو على يقين بخروج البيضة، وكان كل ذلك يتم خلف الأسد المليح، في تلك اللحظة كانت "أمينة" قد قررت

العودة أخيرا لشبيه ممثل السينما القديم، كأنما أدركت أن هذا قدرها، كانت تفتح له الباب ليحمل ابنتهما فتسير خلفه بحقيبتها مدركة أن لا أحد من إخوتها بما فيهم أنا يمكنه أن يقف أمام التطور البيولوجي والأنثربولوجي، فيما كانت تمتمات الشيخ تتعالى إيذانا بظهور البيضة العظيمة، كانت تخرج من خلف القط الصغير على مهل، كانت المعجزة تتحقق، وكانت الأسود الثلاث تزأر معلنة عن بداية حلول اللعنة، كانت صفحات الإنترنت قد امتلأت بالثورة، وكانت الشوارع مزدحمة بأبناء طيبة صغار السن، الذين كانوا يتكاثرون في كل الأنحاء، كان كوبري قصر النيل يحملهم جميعا دون أن يئن، كأنه كان ينتظرهم بلهفة وشوق، الأسود نفسها كانت تزأر وكانوا يسمعونها، كانوا يدركون جيدا أنها معهم،

كان الناس والشباب والكتاب والأدباء والفنانون يبدون من بعيد كأنهم حصان شطرنج جامح، يصهل يحاول أن يتمرد، وكنت أنا أبدو كقطعة شطرنج متمردة تفوح برائحة الدم الذي يغلي داخلها، وكان الأسد الحبيب يبدو أيضًا كقطعة شطرنج جليدية، أتطلع إليه مركزا عيني في عينيه المصنوعين من زجاج هش، قطعة شطرنج مصنوعة من زجاج، عينان زجاجيتان جليديتان لا أثر فيهما للحياة، كعين ضابط "العياذ بالله" الذي كان يحاول تلقيني تلك الذكريات عن خيانة حبيبتي، وكنت أردد تلك الكلمات وراءه سنوات طويلة، لكني في تلك اللحظة كنت أعلم جيدا أنهما سيتحطمان سريعا!

كنت أعلم أن كل ذلك وهم حقيقي أعيش فيه وحدي وأن أيا من ذلك لم يحدث على الإطلاق لكني كنت على يقين من أنه يحدث الآن، كنت أعيش بأمل أن ذلك يحدث وفي تلك اللحظة، وكانت الأسود الثلاث قد نفضت ركام التاريخ وبدأت في الحركة مطيحة بكل شيء، لكن ماحدث أنها أي الأسود بدأت تتشقق ليظهر منها هؤلاء الصغار، كانت الدماء تملأ شوارع المدينة وضواحيها، لكن الحياة لم تنته كان هؤلاء الأولاد الجدد قد خرجوا من باطن الأسود على وجوه بعضهم ألوان الحرب، الحمراء والسوداء والبيضاء، يتوالدون ويتفرقون ويتجمعون من العاصمة الملكية، والجمهورية، والعاصمة المجهولة، وكانت رأس الحربة مكونة من عاصمة المعلومات، أشبه بكهان قدامى، تاركين شعورهم الطويلة تتراقص على ظهورهم، وغالبا ما يسيرون يقتادون كلابا صغيرة أو كبيرة كأنهم أدركوا سر اللعبة الأسطورية التي مارسها كهان "قاف" منذ قديم الأزل، لكنهم كانوا ينتمون لشيء جديد ساخن وقاتل لم يوجد من قبل، منذ قفز أبانا الأول إلى الأرض، كانوا يقفون هناك يضحكون وينزفون ويموتون ويعودون للحياة، أبناء المدينة الجدد الذين سيعودون لإحيائها بمفاهيم جديدة لم توجد من قبل في التاريخ، هؤلاء الذين ينتمون لعالم الحقيقة، فقد احترق عالم الأوهام من خلفهم، باختفاء الناس والأرض والمظالم اختفى الوهم، وبقيت حقيقة وحيدة، هؤلاء الأولاد الجدد الذين يعيدون تشكيل الحياة الجديدة التي ينتظرها العالم في طيبة، وكنت أسمع صوت عجلات سيارة شبيه

ممثل السينما مختلطة بضحكاته وهو يتطلع لأمينة منتصرا، كان يقودها سعيدا وبجانبه "نور" تلك التي أدركت معنى العالم الجديد، كانت تبتسم وكانت "أمينة" أيضًا تبتسم ابتسامة غريبة، أشبه بابتسامة حبيبتي التي قررت الموت منذ عشرين عاما، تركتني والدماء كهالة مقدسة تفترش الأرض حول رأسها الصغير، تركتني لأوهامي التي لم أخرج منها، تركتني ومحت من داخلي طعم ثورتي على ذاتي قبل أن تكون على أي شيء آخر، وكان فهمي صالح مختفيا تمامًا، لايعلم أحد إن كان مازال حيا أم مات، لكني كنت على يقين أنه سيعود يوما ما، فاقدا لذاكرته أيضا، ليحاول استعادتها وسط هذه الموجة الهائلة من اللامبالاة المنتظرة مرة أخرى وسيسأل عن حبيبته التي سيقولون له عنها أنها ماتت، هل سيفعل مثلما فعلت، أم أنه سيأتي لحياة جديدة مختلفة، لاأدري، كانت الكتابة هي الطريق الوحيد لأعود لذاتي المفقودة، كنت أعلم أن الحياه لاتمنحنا إلا ما نريد، نحن الذين كنا نمنح الحياة معناها الأخير الغامض، طيبة تقاتل من أجل أن تمنح لوهمها معنى، أن تقاتل من أجل وهم يمكن تحقيقه خير من أن تعيش بنصف حقيقة مات نصفها الآخر، وهم اسمه الحرية والخيال لايمكننا التخلي عنه، هكذا نحن في طيبة، وهكذا أنا الآن في طيبة!

(البداية)

ديسمبر ٢٠٠٧ – يناير ٢٠١١

كل أسماء الشخصيات والأماكن في الرواية على الرغم من
تشابهها مع بعض أسماء في الواقع إلا أنه ليست لها علاقة بها
على الإطلاق .. وطبعا هذه بعض كلمات المؤلفين، الحقيقة
لايمكنني التأكيد على ذلك.. أنتم تعلمون الحقيقة

وثائق الرواية

حادثة موت عمرو موسى عبد اللطيف
على كوبري قصر النيل
(كما هي في الأصل)

الساعة تقترب من العاشرة صباحا .. شارع الكورنيش كما هو.. سيارات تنطلق بسرعة وشباب وفتيات يقفن قرب الشاطئ ..المشهد أيضا ليس به جديد أعلى كوبري قصر النيل .. فجأة وبدون مقدمات.. يظهر شاب ويعتلي سور الكوبري ويلف حول رقبته حبلا.. ويلقي بنفسه في النيل ..الشاب لم يصل إلى مياه النيل.. اشتبك طرف الحبل الملفوف حول رقبته بحديد الكوبري ليتدلى على بعد ٥ أمتار من الكوبري وعلى بعد ٣٠ مترا من مياه النيل.. يلتفت البعض إلى "المشنقة " والى شاب لفظ أنفاسه على الفور وتتلقى شرطة المسطحات المائية بلاغا من بعض أصحاب المراكب.. وحضر رجال الشرطة.. وقف البعض منهم في "لانشات " أسفل الجثة التي تدلت قرابة ٢٠ دقيقة وهرول آخرون إلى اعلى الكوبري وقطعوا الحبل لتسقط الجثة في اللنش ويتم نقلها إلى الشاطئ قبل أن تأتي النيابة للمعاينة.. المفاجأة تظهر.. الشاب كان يضع في ملابسه خطابا.. كتب فيه عن ظروفه القاسية وفشله في إتمام الزفاف وأنه اتخذ قرارا بالانتحار لأنه لا يستطيع الحياة بدون خطيبته.

«المصرى اليوم» التقت احد شهود العيان ويدعى «أحمد محمد» يعمل على المراكب الموجودة بالنيل أسفل مكان الحادث مباشرة؛ أكد أنه أول من شاهد الشاب عندما قام بلف حبل حول رقبته والقى بنفسه من اعلى الكوبرى.

وأضاف ألقى الشاب بنفسه من أعلى الكوبري إلا أن الحبل الذي شنق به نفسه تعلق في السور الحديدي للكورنيش وظل معلقا حتى أبلغنا رجال الإنقاذ النهري الذين حضروا على الفور وقاموا بقطع الحبل المعلق بالشاب في السور الحديدي بالكورنيش والتقطه رجال الإنقاذ داخل أحد اللنشات الخاصة بهم، قاموا بفك الحبل من رقبته لكنه كان قد فارق الحياة متأثرا بجرح ذبحي بطول الرقبة. . حالة من الهياج والذعر سيطرت على المارة فور مشاهدتهم الجثة غارقة في الدماء الراقدة على الأرض دون حراك .

وقال مصدر أمني كان متواجدا بمكان الحادث أنهم حضروا بعد دقائق من إبلاغهم على أمل إنقاذ الضحية إلا أنه كان قد فارق الحياة وأضاف المصدر لـــ«المصرى اليوم»:انه قام بتفتيش ملابس الضحية للعثور على ما يثبت هويته فوجد خطابا موجه لحبيبته التي لم يذكر اسمها في الخطاب أكد فيه انه سينتحر من أعلى كوبري قصر النيل لأنها تخلت عنه بسبب ظروفه الصعبه وانه لا يستطيع الحياة بدونها ؛أضاف المصدر عثرنا أيضًا على بطاقته الشخصية التي تؤكد أنه يدعى «عمرو موسى عبداللطيف» يعمل سائق تم إخطار اللواء مساعد الوزير لأمن القاهرة بالواقعة وانتقل لمكان الحادث اللواء مدير إدارة الإنقاذ النهري وعدد من القيادات الأمنية وتم استدعاء رجال النيابة

وبمعاينة الجثة تم نقلها من مكان الحادث بواسطة عربات إسعاف القاهرة لمشرحة زينهم وتم إخطار أهل الضحية للتعرف عليه وتسلمها وإنهاء إجراءات الدفن.

حضرت سيارة إسعاف لتنقل الضحية إلى المشرحة ..وعادت الحياة إلي طبيعتها في شارع الكورنيش واعلي كوبري قصر النيل وحرز رجال الشرطة خطاب الضحية الموجه إلي حبيبته :"لا استطيع أن أعيش بدونك فقررت أن أموت والقي بنفسي من أعلى كوبري قصر النيل.. ظروفي المادية السيئة هي السبب."

..

السؤال الأول:

لماذا اختار كوبري قصر النيل؟

السؤال الثاني:

لماذا انتحر النحات صانع أسود قصر النيل؟

السؤال الثالث :

لماذا سجل هؤلاء الروائيون حوادث الانتحار من على كوبري قصر النيل:

١- الرواي في قصة شروع في انتحار في مجموعة: العجوز والحب. عباس خضر

٢- بطل قصة متوازي المستطيلات. في مجموعة خريف الأزهار الحجرية. ماهر شفيق فريد

أغنية زحمه يا دنيا زحمه لأحمد عدوية
(من الفولكلور الطيبي)

زحمة يا دنيا زحمة وتاهوا الحبايب
زحمة ولا عادشي رحمة مولد وصاحبه غايب
آجي من هنا زحمة وأروح هنا زحمة
هنا أو هنا زحمة
زحمة يا دنيا زحمة

زحمة وأنا رايح له وأنا وسط الزحام
عايز يسمع وأقلوه ما بيوصلشي الكلام
بيني وبينه معاد وحيروح المعاد
آجي من هنا زحمة وأروح هنا زحمة
هنا أو هنا زحمة
زحمة يا دنيا زحمة

زحمة ومعطلاني وإن رحت وما لقيتوش
أخاف أروح له تاني في معادي وما ألقاهوش
كتير الناس كتير وأنا عايز أركب وأطير

آجي من هنا زحمة وأروح هنا زحمة
هنا أو هنا زحمة
زحمة يا دنيا زحمة

الساعه إلا تلت ومعادي معاه تمانيه
لا من السكه دي رحت ولا لاقي سكة تانية
كتير الناس كتير وأنا عايز أركب وأطير
زحمة يا دنيا زحمة وتاهوا الحبايب
زحمة ولا عادشي رحمة مولد وصاحبه غايب
آجي من هنا زحمة وأروح هنا زحمة
هنا أو هنا زحمة
زحمة يا دنيا زحمة

أغنية خمر الصيف لنانسي سيناترا ولي هازلوود

كتبها لي هازلوود
غنيت عام ١٩٦٧
(فولكلور طبعا مش طيبي)
Summer Wine
Nancy Sinatra & Lee Hazlewood
WROTE BY Lee Hazelwood
(نانسي):
الفراولة والكرير وقبلة ملاك في الربيع
خمرتي الصيفية صنعت حقيقة من هذه الأشياء
إخلع مهاميزك الفضية وساعدني لقضاء بعض الوقت معا
وسأمنحك خمرك الصيفية
أووو – أوه سمر واين
(لي):
عيناي اللتان أصبحتا ثقيلتان وشفتاي اللتان لم يتكلما
حاولت النهوض لكني لم أجد قدمي
أعادت التأكيد علي بشكل غير مألوف
وأعطتني مزيدا من خمر الصيف

أووه ..أوه..أوه.. خمر الصيف

(نانسي):

الفراولة والكرير وقبلة ملاك في الربيع

خمرتي الصيفية صنعت حقيقة من هذه الأشياء

إخلع مهاميزك الفضية وساعدني لقضاء بعض الوقت معا

وسأمنحك خمرك الصيفية

ممم —مم سمر واين

(لي):

عندما استيقظت كانت الشمس تشع في عيني

مهاميزي الفضية اختفت وكانت رأسي تبدو مثل حجر ثقيل

أخذت مهاميز ودولار وعمله معدنية صغيرة

وتركتني متعطشا لمزيد من خمر الصيف

أووو – أوه سمر واين

(نانسي):

الفراولة والكرير وقبلة ملاك في الربيع

خمرتي الصيفية صنعت حقيقة من هذه الأشياء

إخلع مهاميزك الفضية وساعدني لقضاء بعض الوقت معا

وسأمنحك خمرك الصيفية

ممم..مم.. سمر واين

كتب الرواية

فتحي السيد الصياد ابن العبد

يتسمى في أحيان أخرى باسم

زين عبد الهادي

اللقب المفضل دائما

زين

رمضان هو الوحيد الذي لم يساله يوما ما عن ماحدث له، كان يمارس الأخوة كما ينبغي أن تكون، يمنحه أحيانا بعض الطعام، هو الذي حافظ له على حجرته في أحد شوارع بين السرايات، هو الذي عرفه على كمال إسطفانوس، ورغم كل الصفات المريرة التي يطلقها عليه، فهو لايمكنه تخيل الحياة دون وجوده، وأمينة نفسها تعلم ذلك جيدا ولكن علاقتها برمضان علاقة أخت بأخ لاتراه ولا تكاد تعرف عنه شيئا، وهذا الأمر يعد من مصائب الحياة تقريبا في (قاف)، كثير من الأخوة لايعلمون شيئا عن أخوتهم فتتبعثر كل العلاقات التي خلقتها البشرية عبر آلاف السنوات، أما مسألة ذاكرة فتحي فهناك بعض الشواهد التي تؤكد بأن المسألة كلها تم حشوها في ذهنه، حشوا علميا ممنهجا، كما يفعل أساتذة الجامعة تماما في طلبة الجامعة فيقتنعون بتلك الكلمات الفارغة التي يرددونها امامهم كالببغاوات! ومعنى ذلك أن كثيرا من حوادث هذه الرواية غير حقيقي بالمرة، الشيء الذي يجب أن أتوقف أمامه في حكاية فتحي حادثة صغيرة للغاية ذكرها عرضا، وهو أنه كان يمكنه أن يغير أجهزة الكمبيوتر كل عدة سنوات، معنى ذلك أنه كان يملك مالا ما، وهو ماقد ينفي تأكيدي بأن حوادث هذه القصة حقيقية كلها، لكني أؤكد بحكم انتمائي المهني أن ذلك كله مختلق، تماما مثل عالم المعلومات المختلق الذي أقوم بتدريسه في الجامعة، فلا شيء حقيقي بالمرة، وهو مايعيدني لنقطتين ذكرهما فتحي في الرواية.

تصميم الغلاف: محمد سيد

ميريت